

قصص الأنبياء

للإمام ابن كثير



كتاب الجمهورية

يصدر عن

دار التحرير للطبع والنشر

رئيس مجلس الإدارة

سمير رجب

رئيس التحرير

فاروق فهمى

امتياز الاعلانات :

شركة الاعلانات المصرية

٥ شارع نجيب الريحانى

ت : ٥٧٨١٠١٠

التوزيع :

شركة التوزيع المتحدة

٢١ شارع قصر النيل

ت : ٣٩٢٣٧٤٩

المراسلات :

كتاب الجمهورية ٢٤ شارع

زكريا أحمد ت: ٥٧٨١٩١٨

٥٧٨٣٣٣٣

كتاب الجمهورية



الجزء الثاني

- يوسف عليه السلام
- أيوب عليه السلام
- ذا الكفل عليه السلام
- يونس عليه السلام
- موسى عليه السلام



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَحنُ نَقصُّ عَليكَ أحسَنَ القَصَصِ بِمَا أوْحَينا إليْكَ هٰذا القُرْآنَ وإنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلينَ ﴾ [1] .

﴿ ولَقدْ أرْسَلنا رسُلاً مِنْ قَبلِكَ مِنهُم مَنْ قَصصْنَا عَليكَ ومِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُص عَليْك .. ﴾ [2] .

﴿ نَحنُ نَقصُّ عَليْكَ نَبأَهُم بالحَقِّ .. ﴾ [3] .

﴿ وكلاً نَقصُّ عَليْك مِنْ أنْباءِ الرُّسلِ ما نُثبِّتُ بهِ فُؤادَك ، وجَاءَك في هٰذِه الحَقُّ ومَوْعظَةٌ وذِكْرَى للمُؤمنينَ ﴾ [4]

﴿ لَقَد كانَ في قَصَصِهم عِبْرَةٌ لأُولي الألبَاب ، وما كانَ حَديثاً يُفْتَرى ولٰكِن تَصْديقَ الَّذي بَيْن يَدَيه وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورَحْمةً لِقَوْمٍ يُؤمِنونَ ﴾ [5] .

﴿ ... فاقْصُص القَصَص لَعلَّهُم يتَفكَّرونَ ﴾ [6] .

﴿ وتِلْك حُجَّتُنا آتَيْناها إبْراهيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجات مَنْ نَشاءُ ، إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ * ووَهَبْنا لَه إسْحَاقَ ويَعْقُوب ، كلاً هَدَيْنا ،ونُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبلُ ، ومِنْ ذُرِّيتِهِ دَاوُدَ وسُلَيمانَ وأيُّوبَ ويُوسُفَ ومُوسَى وهَارُونَ ، وكَذٰلِكَ نَجْزي المُحْسنينَ * وزَكريَّا ويَحْيَى وعيسَى وإلْياسَ، كُلٌّ مِنَ الصَّالحينَ* وإسْمَاعِيلَ واليسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً، وكُلاً فَضلْنا عَلَى العَالمينَ﴾ [7] .

﴿ تِلكَ الرُّسلُ فَضَّلْنا بَعْضَهم عَلى بَعْضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهَ ، ورَفَعَ بعضَهُم دَرَجَاتٍ ، وآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَريَمَ البَيِّنَاتِ وأيَّدناهُ برُوحِ القُدُسِ ، ولوْ شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَل الذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِنْ بَعْد ما جَاءَتْهُم البيِّناتُ ولٰكن اخْتَلفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ ومِنْهُم مَنْ كَفَرَ ، ولَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا ولٰكنَّ اللهَ يفْعَل ما يُريدُ ﴾ [8] .

---

(١) يوسف ٣ .
(٢) غافر ٧٨
(٣) الكهف ١٣ .
(٤) هود ٢٠
(٥) يوسف ١١١ .
(٦) الأعراف ١٧٦
(٧) الأنعام ٨٣ ـ ٨٦
(٨) البقرة ٢٥٣ .



يوسف عليه السلام

- أيـوب عليه السلام

- ذا الكفل عليه السلام

- يونـس عليه السلام

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الر ، تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المبِينِ * إنَّا أنْزَلناهُ قُرآناً عَرَبيًّا لَعلَّكُمْ تَعْقِلونَ * نَحنُ نَقصُّ عَلَيْكَ أحسَنَ القَصَصِ بِمَا أوْحَينا إليكَ هٰذا القُرآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبلِه لمنَ الغَافِلينَ ﴾ [1]

قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم ، وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير . ونحن نذكر هاهنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنجاز .

وجملة القول في هذا المقام : أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، بلسان عربي فصيح ، بين واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي زكي ، فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه ورده .

وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج ، وأبين حكماً وأعدل حِكماً .

فهو كما قال تعالى : ﴿ وتَمَّتْ كَلمةُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً ﴾ [2]

يعني صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي .

ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحنُ نَقصُّ عَلَيْكَ أحسَنَ القَصَصِ بِمَا أوْحَينا إليكَ هٰذا القُرآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبلِه لمنَ الغَافِلينَ ﴾ [3] . أي بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه .

---

(١) سورة يوسف آيات ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥

(٣) سورة يوسف الآية ٣ .

كما قال تعالى : ﴿ وكذٰلكَ أوْحَينا إليكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ، ما كنْتَ تَدْري ما الكِتابُ ولا الإيمانُ ولٰكنْ جَعلْناهُ نُوراً نَهْدي بهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا ، وإنَّكَ لتَهدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ * صِراطِ اللهِ الذِي لهُ مَا في السَّمٰواتِ ومَا في الأرْضِ ، ألا إلَى اللهِ تَصيرُ الأُمُورُ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ كذٰلك نَقصُّ عَليْكَ مِنْ أنْباءِ ما قَدْ سَبقَ ، وقَدْ آتَيناكَ مِنْ لَدنَّا ذِكْراً * مَنْ أعْرضَ عنْهُ فإنهُ يَحْمِلُ يَومَ القِيامَةِ وِزْراً * خالِدينَ فِيه وساءَ لَهُم يَوْمَ القِيامَةِ حِمْلاً ﴾ [2] .

يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي ، مرفوعاً وموقوفاً : « من ابتغى الهدى في غيره أضله الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبي عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أتتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية . لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني » . إسناد صحيح .

ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنك حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف . وفي بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته : « أيها الناس .. إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً .

﴿ إذْ قالَ يُوسفُ لأبيهِ ياأبتِ إنِّي رأيتُ أحَدَ عَشَرَ كَوكَباً والشَّمسَ والقَمَرَ رَأيتُهم لِي سَاجِدِينَ * قالَ يابُنَيَّ لا تَقْصُص رُؤْياكَ على إخْوَتِكَ فَيكِيدُوا لَكَ كَيداً ، إنَّ الشَّيْطانَ للإنْسانِ عَدوٌّ مُبِينٌ * وكذٰلك يَجْتَبِيكَ ربُّك ويُعلِّمكَ مِنْ تأوِيلِ الأحادِيثِ ويُتِمُّ نِعْمتَه عَليْك

---

(1) سورة الشورى أيتا ٥٢ ـ ٥٣ .

(2) سورة طه أيات ٩٩ ـ ١٠١ .

وعَلَى آلِ يعْقُوبَ كَمَا أتَمَّها علَى أبَوَيْكَ مِنْ قَبلُ إبْراهِيمَ وإسْحاقَ ، إنَّ ربَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام .

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره ، وباقي إخوته لم يوح إليهم .

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول .

ومن استدل على نبوتهم بقوله : ﴿ قُلْ آمنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلَينَا وما أُنْزِلَ عَلَى إبْراهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحاقَ يعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ﴾ (٢) وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي ، لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجب فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء .. والله أعلم .

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحد من إخوته سواه ، فدل على ما ذكرناه .

ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله ابن دينار ، عن أبيه عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (٣) .

انفرد به البخاري ، فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . وقد ذكرنا طرفه في قصة إبراهيم بما أغنى عن إعادته هنا .. ولله الحمد والمنة .

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً ، وهم إشارة إلى بقية إخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه ، قد سجدوا له ، فهاله ذلك .

فلما استيقظ قصها على أبيه ، فعرف أبوه أن سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبوه وإخوته فيها ، فأمره بكتمانها وألا يقصها علي إخوته ، كيلا

---

(١) سورة يوسف آيات ٤ ـ ٦ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٨٤ .
(٣) متفق عليه .

يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر ، وهذا يدل على ماذكرناه .

ولهذا جاء في بعض الآثار : استيعنوا على قضاء حوائجكم بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً ، وهو غلط منهم .

﴿ وكذلِكَ يجتَبيكَ ربُّكَ ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها ﴿ يَجْتَبِيكَ ربُّكَ ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿ ويُعلّمك مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام مالا يفهمه غيرك .

﴿ ويُتمُّ نعمتَه عليْكَ ﴾ أي بالوحي إليك ﴿ وعلَى آلِ يعْقُوبَ ﴾ أي بسببك ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . ﴿ كمَا أتمَّها علَى أبوَيْك مِنْ قَبلُ إبْراهِيمَ وإسْحاقَ ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة ، كما أعطاها أباك يعقوب ، وجدك إسحاق ، ووالد جدك إبراهيم الخليل ، ﴿ إنَّ ربَّك عَليمٌ حَكِيمٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اللهُ أعلَمُ حَيثُ يَجْعلُ رِسالَتهُ ﴾ [1] .

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل : أي الناس أكرم ؟ قال : « يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » .

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريها ،وأبو يعلى والبزار في مسنديها ، من حديث الحكم بن ظهير ـ وقد ضعفه الأئمة ـ عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر قال : أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له : بستانة اليهودي ، فقال : يامحمد .. أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال : فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء ،ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها . قال : فبعث إليه رسول الله فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها » قال : نعم . فقال : « هي جريان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع ، والضياء ، والنور » .

فقال اليهودي : أي والله إنها لأسماؤها . وعند أبي يعلى : فلما قصها على أبيه قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله ،والشمس أبوه والقمر أمه .

---

(1) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

﴿ لَقدْ كانَ فِي يُوسُفَ وإخْوتِه آياتٌ للسَّائِلينَ * إذْ قالُوا لَيوسُفُ وأخُوهُ أحبُّ إلَى أبينَا مِنَّا ونَحْن عُصْبةٌ إنَّ أبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * اقْتلُوا يُوسُفَ أو اطْرحُوهُ أرْضاً يخْلُ لَكُم وَجْهُ أبِيكُمْ وتَكُونُوا مِنْ بَعدِهِ قَوماً صَالِحِينَ * قالَ قائِلٌ مِنْهُم لا تَقْتلُوا يُوسُفَ ، وألْقُوهُ فِي غَيَابةِ الجُبِّ يلْتَقِطه بعْضُ السَّيَّارةِ إنْ كنْتُم فاعِلينَ ﴾ [1] .

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات المواعظ والبينات . ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه ـ يعنون شقيقه لأمه بنيامين ـ أكثر منهم ، وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إنَّ أبانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ أي بتقديمه حبهما علينا .

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف ، أو إبعاده إلى أرض لايرجع منها ، ليخلوا لهم وجه أبيهم : أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم ،وأضمروا التوبة بعد ذلك .

فلما تمالئوا على ذلك وتوافقوا عليه : ﴿ قال قائلٌ مِنهُم ﴾ قال مجاهد : هو شمعون ، وقال السدي : هو يهوذا . وقال قتادة ومحمد بن إسحاق : هو أكبرهم روبيل : ﴿ لا تقْتلُوا يُوسفَ والْقوهُ في غَيابَةِ الجُبِّ يَلْتقِطهُ بعْضُ السَّيَّارةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ إنْ كُنتُم فاعِلينَ ﴾ ما تقولون لا محالة ، فليكن هذا الذي أقول لكم . فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه .

فأجمعوا رأيهم على هذا ، فعند ذلك ﴿ قالُوا ياأبانا مَالكَ لاتأْمنَّا عَلَى يُوسُفَ وإنَّا لهُ لَناصِحُونَ * أرْسلْه مَعَنا غداً يرْتعْ ويلْعَبْ وإنَّا لهُ لَحافِظُونَ * قالَ إنِّي لَيحْزُنِنِي أنْ تذْهبُوا بهِ وأخافُ أنْ يأْكلهُ الذّئبُ وأنْتُم عنْهُ غافِلُون * قالُوا لَئِنْ أكَلهُ الذئبُ ونحْنُ عُصْبةٌ إنَّا إذاً لَخاسِرُونَ ﴾ [2] طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعي معهم ،و أن يلعب وينبسط وقد أضمروا له ما الله به عليم .

فأجابهم الشيخ ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يابني .. يشق عليَّ أن أفارقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى أن تشغلوا في لعبكم وما أنتم فيه ، فيأتي الذئب فيأكله ، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه .

﴿ قالُوا لَئِنْ أكَلهُ الذئبُ ونحْنُ عُصْبةٌ إنَّا إذاً لَخاسِرُونَ ﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة ، إنا إذن لخاسرون ، أي عاجزون هالكون .

---

(١) سورة يوسف آيات ٧ ـ ١٠ .

(٢) سورة يوسف آيات ١١ ـ ١٤ .

وعند أهل الكتاب : أنه أرسله وراءهم يتبعهم ، فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم ، وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب ، فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم فكيف يبعثه وحده .

﴿ فلمّا ذَهبُوا بهِ وأجْمَعُوا أنْ يَجعلُوهُ في غَيابَةِ الجُبِّ ، وأوحَينـا إليْـهِ لتُنبِّئَنَّهمْ بـأمْرِهِم هٰذا وهُمْ لايشْعُرونَ * وجاءوا أباهُمْ عِشاءً يبْكُونَ * قالُوا يا أبانا إنّا ذَهبْنـا نَسْتَبِق وتَرَكْنـا يُوسُفَ عِندَ متَاعِنا فأكَلَهُ الذِّئبُ ،وما أنْتَ بِمُؤمنٍ لَنـا ولو كُنّا صادِقِينَ * وجاءُوا علَى قَميصِهِ بِدمٍ كَذبٍ ، قالَ بَلْ سَوَّلَت لَكُم أنْفُسُكم أمْراً ، فَصبرٌ جَميلٌ ، واللهُ المُسْتعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ ﴾ [1] .

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال ،وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب ، أي في قعره على راعونته ، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها « الماتح » وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء ،والذي يرفعها بالحبل يسمى « الماتح » .

فلما ألقوه فيه ، أوحى الله إليه : أنه لابد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز ، وهم محتاجون إليك خائفون منك ، ﴿ وهُمْ لايَشْعُرونَ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : وهم لايشعرون بإيحاء الله إليه ذلك . وعن ابن عباس : ﴿ وهُمْ لايشْعُرونَ ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لايعرفونك فيها ، رواه ابن جرير عنه .

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم ، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون ، أي على أخيهم . ولهذا قال بعض السلف : لايغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك ! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون ، أي في ظلمة الليل ، ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم .

﴿ قالُوا يا أبانا إنّا ذَهبْنَا نَستبقُ وتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا ﴾ أي ثيابنا ﴿ فأكلَهُ الذِّئبُ ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا . وقولهم : ﴿ وما أنْتَ بِمُؤمِنٍ لَنا ولَوْ كنّا صادِقِينَ ﴾ أي ما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك .

---

(١) سورة يوسف آيات ١٥ ـ ١٨ .

فكيف وأنت تتهمنا في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ،وضمنا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك ، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه .

﴿ وجاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفتعل ، لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها ، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ، ليوهموه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه ، وآفة الكذب النسيان ! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم ، فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه ، وغيبوه عن عينيه وجاءوا وهم يتباكون ، وعلى ما تمالئوا يتواطئون ، ولهذا : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُم أَمْراً ، فَصبرٌ جَمِيلٌ ، واللهُ المُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لايشعرون ويرده إلى أبيه ، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده ، فصاح وشق ثيابه ، وعمد أولئك إلى جدى فذبحوه ، ولطخوا من دمه جبة يوسف ، فلما علم يعقوب شق ثيابه ، ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة ، وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير .

﴿ وجاءَتْ سيَّارةٌ فأَرْسلُوا وَارِدَهُم فأَدْلَى دَلْوهُ ، قالَ يابُشْرَى هذا غُلامٌ ، وأَسرُّوهُ بِضاعَةً ، واللهُ عَليمٌ بِمَا يعْمَلونَ * وشَروْهُ بِثَمنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودةٍ وكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدينَ * وقَالَ الَّذي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرأَتِهِ أَكْرِمي مثْواهُ عَسَى أَنْ ينْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ ولداً ، وكَذَٰلكَ مَكنَّا لِيوسُفَ في الأَرْضِ ولنُعلِّمَهُ مِنْ تأْويلِ الأَحاديث ،واللهُ غالبٌ علَى أَمْرِهِ ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايعْلَمونَ * ولما بَلَغَ أَشُدَّهُ آتيْناهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكَذٰلكَ نَجْزِي المُحْسِنين ﴾

يخبر الله تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرَج الله ولطفه.

---

(١) سورة يوسف آيات ١٩ ـ ٢٢ .

به ، فجاءت سيارة ، أي مسافرون . قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف .

فلما رآه ذلك الرجل ﴿ قالَ يابُشْرَى ﴾ أي يابشارتي ﴿ هٰذا غُلامٌ ، وأَسَرُّوه بِضَاعَةً ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ واللهُ عَليمٌ بِمَا يعْمَلون ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته ، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ، ومع هذا لايغيره تعالى ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر ، بما يجرى الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم ، بما لايحد ولا يوصف .

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، أي قليل نزر ، وقيل هو الزيف : ﴿ دَراهِم مَعْدودَةٍ وكانُوا فيهِ مِنَ الزّاهِدينَ ﴾ .

قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي : باعوه بعشرين درهماً . اقتسموها درهمين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهما . وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق : أربعون درهما .. والله أعلم .

﴿ وقالَ الَّذي اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لامْرأَتِهِ أكْرِمي مَثْواهُ ﴾ أي أحسني إليه ﴿ عَسَى أنْ ينفَعَنا أوْ نَتَّخذهُ وَلداً ﴾ وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة .

قالوا : وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها ، الذي الخزائن مسلمة إليه . قال ابن إسحاق : واسمه أطفير بن روحيب قال : وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد ، رجل من العماليق . قال : واسم امرأة العزيز : « راعيل » بنت رماييل . وقال غيره : كان اسمها « زليخا » والظاهر أنه لقبها . وقيل « فكا » بنت ينوس ، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعي .

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب عن أبي صالح ، عن ابن عباس : كان اسم الذي باعه بمصر ـ يعني الذي جلبه إليها ـ مالك بن زعر بن نويت بن مديان بن إبراهيم .. والله أعلم .

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حيث قال لامرأته ﴿ أكرمي مثواهُ ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : ﴿ يا أبتِ استأجِرْهُ ، إنَّ خيْرَ مَنِ استأجَرتَ القَويُّ الأَمينُ ﴾ [1] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ثم قيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً ، وقيل بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً .. والله أعلم .

وقوله : ﴿ وكَذٰلكَ مَكَّنَّا لِيُوسفَ في الأَرْضِ ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ، ويعتنيان به ، مكنا له في أرض مصر ﴿ ولنُعلِّمَهُ مِنْ تأْويلِ الأحاديثِ ﴾ أي فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿ واللهُ غالِبٌ علَى أمْرِهِ ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لايهتدى إليها العباد . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكِنَّ أكْثَر النَّاسِ لايَعلَمُونَ ﴾ .

﴿ ولمَّا بَلغَ أشدَّهُ آتيْناهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكذٰلكَ نَجْزي المُحْسِنِين ﴾ [2] فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد ، وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين ، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة ، وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاثة وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ حتّى إذا بَلغَ أشُدَّه وبَلَغ أرْبَعينَ سَنةً ﴾ [3] .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٦ .

(٢) سورة يوسف الآية ٢٢

(٣) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

﴿ وراودته الّتي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسهِ وغَلّقتِ الأبْوابَ وقَالتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعاذَ اللهِ إنّه رَبّي أحْسَنَ مَثْوايَ إنّهُ لايُفْلِح الظّالِمونَ * ولَقَدْ همّتْ بهِ ، وهَمّ بِها لَولا أنْ رأى بُرْهانَ ربّهِ ، كذلكَ لِنَصْرفَ عنْهُ السُّوءَ والفَحْشاءَ ، إنهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِينَ * واسْتَبَقا البَابَ وقَدّتْ قَميصهُ مِنْ دُبُرٍ وأَلْفَيا سَيّدَها لَدَى البَابَ ، قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أرادَ بأهْلِكَ سُوءاً إلاّ أنْ يُسْجَن أوْ عذابٌ أليمٌ * قالَ هِيَ رَاودَتْني عَنْ نَفْسِي ، وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِها إنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهُوَ مِنَ الكاذِبِينَ * وإنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبتْ وهُوَ مِنَ الصّادِقِينَ * فلمّا رَأى قَميصهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إنّه مِنْ كَيْدكنّ ، إن كَيْدكنّ عَظيمٌ * يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذا ، واسْتَغْفِري لِذَنْبك ، إنّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئينَ ﴾ (١) .

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه مالا يليق بحاله ومقامه ، وهي في غاية الجمال والمال ، والمنصب والشباب ، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه . وتهيأت له وتصنعت ، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها ، وهي مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحاق : وبنت أخت الملك الريان ابن الوليد صاحب مصر .

وهذا كله من أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء ، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه عن الفحشاء ، وحماه عن مكر النساء ، فهو سيد السادة النجباء ، السبع الأتقياء ، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله أجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله » .

والمقصود أنها دعته إليهاوحرصت على ذلك أشد الحرص ، فقال ﴿ مَعاذَ اللهِ إنّه رَبّي ﴾ يعني زوجها صاحب المنزل سيدي ﴿ أحْسَنَ مَثْوايَ ﴾ أي أحسن إليّ وأكرم مقامي عنده ﴿ إنّه لايُفْلحُ الظّالمُونَ ﴾ وقد تكلمنا على قوله تعالى : ﴿ ولَقدْ همّت بِهِ وهمّ بِها لَوْلا أنْ رَأى بُرْهانَ ربّهِ ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير .

(١) سورة يوسف أيات ٢٢ ـ ٢٩ .

وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقي من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنا .

والذي يجب أن يعتقد : أن الله تعالى عصمه وبرأه ، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصْرِفَ عنهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ ، إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصينَ ﴾

﴿ واسْتَبقا البابَ ﴾ أي هرب منها طالباً الباب ليخرج منه فراراً منها فاتبعته في أثره ﴿ وألْفَيَا ﴾أي وجدا ﴿ سَيِّدَها ﴾ أي زوجها ﴿ لَدَى البابِ ﴾ فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿ قالَتْ ما جَزَاءُ مَنْ أرادَ بأهْلِكَ سُوءاً إلاّ أنْ يُسْجَنَ أوْ عَذابٌ أليمٌ ﴾ اتهمته وهي المتهمة وبرأت عرضها ونزهت ساحتها ، فلهذا قال يوسف عليه السلام : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْني عَنْ نَفْسِي ﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة .

﴿ وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أهْلِها ﴾ قيل كان صغيراً في المهد قاله ابن عباس ، وروى عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك ، واختاره ابن جرير ، وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ، ووقفه غيره عنه .

وقيل كان رجلاً قريباً إلى « قطفير » بعلها ، وقيل قريباً إليها ، وممن قال إنه كان رجلاً : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم .

فقال : ﴿ إنْ كانَ قَميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهُوَ مِنَ الكَاذِبينَ ﴾ أي لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدّت مقدم قميصه . ﴿ وإنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فكَذَبَتْ وهُوَ مِنَ الصَّادِقينَ ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلمَّا رَأى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إنَّه مِنْ كَيْدِكُنَّ ، إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظيمٌ ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن ، أنت راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمتيه بالباطل .

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال : ﴿ يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذا ﴾ أي لاتذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن ، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها والتوبة إلى ربها ، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام ، إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها

هو الله وحده لاشريك له في ذلك . ولهذا قال لها بعلها ، وعذرها من بعض الوجوه ، لأنها رأت مالا صبر لها على مثله ، إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال : ﴿ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِك ، إِنَّك كُنْت مِنَ الخَاطِئِينَ ﴾ (١) .

﴿ وقالَ نِسْوةٌ في المدينَةِ امْرأةُ العَزيزِ تُراود فَتَاها عَنْ نَفْسِه ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إنَّا لَنَراها في ضَلالٍ مُبينٍ * فَلَمَّا سَمِعتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وأعْتَدَتْ لَهنَّ مُتَّكأً وآتَتْ كلَّ واحِدَةٍ مِنْهنَّ سِكِّيناً وقالَتِ اخْرُجْ عليهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنهُ أَكْبرنَهُ وقَطَّعنَ أيْديهنَّ وقُلْن حَاشَ للهِ ما هٰذا بَشراً إنْ هٰذا إلاَّ مَلكٌ كَريمٌ * قالَتْ فَذٰلكنَّ الَّذيْ لُمتنَّني فِيهِ . ولَقدَ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِه فاسْتَعْصَم ، ولئِن لَمْ يفْعَل ما آمُرهُ ليُسْجنَنَّ وليَكُوناً مِنَ الصَّاغرِينَ * قالَ ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ مِمَّا يدْعُونَني إليهِ ، وإلاَّ تَصْرفْ عَنِّي كَيْدَهنَّ أصْبُ إلِيْهنَّ وأكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ * فاسْتَجابَ لهُ ربُّه فَصَرفَ عنْهُ كيدَهنَّ ، إنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ ﴾ (٢) .

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ، من نساء الأمراءوبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها ، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لايساوي هذا ، لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلا لهذا . ولهذا قلن : ﴿ إنَّا لَنَراها في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله .

﴿ فلمَّا سَمِعتْ بِمَكْرهنَّ ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها ، فأظهرن ذمًّا وهي معذورة في نفس الأمر ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها سدهن ، وتبين أن هذا الفتي ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن . فأرسلت إليهن فجمعتهن في منزلها ، أعتدت لهن ضيافة مثلهن ، وأحضرت جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج ونحوه ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً ،وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ،وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لامحالة .

﴿ فلمَّا رَأينه أكْبرنَهُ ﴾ أي أعظمنه وأجللنه وهبنه ، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا

---

(١) سورة يوسف الآية ٢٩

(٢) سورة يوسف آيات ٣٠ ـ ٣٤ .

يشعرن بالجراح ﴿ وقُلْنَ حاشَ للهِ ما هٰذا بَشَراً إنْ هٰذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقد جاء في حديث الإسراء : « فررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن » . قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فكان في غاية نهايات الحسن البشري . ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه ، ويوسف كان على النصف من حسن آدم . ولم يكن بينهما أحسن منهما ، كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه . وقال غيره : كان في الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس . ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته .

﴿ قالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمتنَّنِي فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة فقالت : ﴿ ولَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ ﴾ أي امتنع ﴿ ولَئِنْ لَمْ يفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ يعنى إن وكلتني إلى نفسي ، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ماقويتني وعصمتني وحفظتني ، وحطتني بحولك وقوتك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حِينٍ * ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ ، قالَ أَحَدُهُما إنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً ، وقالَ الآخَرُ إنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنا بتأويلِه ، إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * قالَ لايَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إلاَّ نَبَّأْتُكُما بتأويلِهِ قَبْلَ أنْ يأْتِيَكُما ، ذٰلِكُما مِمَّا علَّمَنِي رَبِّي ، إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لايُؤْمِنُونَ باللهِ وهُم بالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ * واتَّبعتُ مِلَّةَ آبائِي إبْراهِيمَ وإسْحاقَ ويعْقُوبَ ، ما كانَ لَنا أنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذٰلكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا وعلَى النَّاسِ ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لايشْكُرُونَ * ياصاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبابٌ مُتفرِّقُونَ خَيْرٌ أم اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ * ما تعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ أسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُم وآباؤُكُم ما أنْزلَ اللهُ بِها مِنْ سُلطانٍ ، إنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ ، أمَرَ ألاَّ تعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، ذٰلكَ

الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعْلَمُونَ * يا صاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أحدُكُما فيسْقِي ربَّهُ خَمْراً ، وأمَّا الآخَرُ فَيُصلبُ فتأكلُ الطَّيْرُ مِنْ رأْسِه قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ ﴾ [1] .

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم ، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت ، ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية ، وأحمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها ، فسجنوه ظلماً وعدواناً .

وكان هذا مما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ، فإنه أبعد له عن معاشرتهن ومخالطتهم .

ومن ها هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي : أن من العصمة ألا تجد !

قال الله : ﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيانِ ﴾ قيل : كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل « بنوا » والآخر خبازه ، يعني الذي يلي طعامه ، وهو الذي يقوله له الترك « الجاشنكير » واسمه فيما قيل « مجلث » وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما . فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ،وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

قال أهل التفسير : رأيا في ليلة واحدة . أما الساقي فرأى كأن ثلاثة قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب ، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه . ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضواري الطيور تأكل من السلة الأعلى .

فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا : ﴿ إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِينَ ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها ﴿ قالَ لا يأْتِيكُما طَعامٌ تُرزَقانِه إلاَّ نبَّأتُكُما بتأْوِيلِهِ قَبْلَ أنْ يأْتِيَكُما ﴾ قيل : معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول . وقيل معناه أني أخبركم بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً وحامضاً ، كما قال عيسى : ﴿ وأُنبِّئُكُم بما تأْكُلُونَ وما تدَّخِرُون في بُيُوتِكُم ﴾ [2] .

وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياى ، لأني مؤمن به موحد له متبع ملة أبائي الكرام :

---

(1) سورة يوسف آيات ٣٤ ـ ٤١ .

(2) سورة آل عمران الآية ٤٩ .

إبراهيم الخليل ، وإسحاق ويعقوب . ﴿ ما كانَ لَنا أنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شَيءٍ ، ذلكَ مِنْ فَضلِ اللهِ عَلَيْنا ﴾ أي أن هدانا لهذا ، ﴿ وعلى النّاسِ ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز ، وفي جبلتهم مغروز ﴿ ولكنّ أكْثَر النّاسِ لا يشْكُرونَ ﴾ .

ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ماسوى الله عز وجل ، وصغر أمر الأوثان وحقرها ، وضعف أمرها فقال : ﴿ يا صاحِبَي السِّجْنِ أأربابٌ مُتفرِّقونَ خَيرٌ أم اللهُ الواحِدُ القَهّارُ * ما تَعْبدُونَ مِنْ دُونِه إلاّ أسْماءً سمَّيتُموها أنتم وآباؤكم ما أنْزلَ اللهُ بِها مِنْ سُلطانٍ ، إنِ الحُكْم إلا للهِ ﴾ أي المتصرف في خلقه الفعال لما يريد ، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أمَرَ ألاّ تَعبُدُوا إلاّ إيّاهُ ﴾ أي وحده لاشريك له و ﴿ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿ ولكنّ أكْثَر النّاسِ لايعْلمُونَ ﴾ أي فهم لايهتدون إليه مع وضوحه وظهوره .

وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال ، لأن نفوسهما معظمة له ، منبعثة على تلقى مايقول بالقبول ، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه .

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : ﴿ يا صَاحِبَي السِّجْنِ أمّا أحَدُكُما فيَسْقِي ربَّه خَمراً ﴾ قالوا وهو الساقي ﴿ وأمّا الآخَرُ فَيُصلبُ فَتأكُلُ الطَّيرُ مِنْ رأْسِهِ ﴾ قالوا وهو الخباز ﴿ قُضِيَ الأمْرُ الذي فِيهِ تَسْتَفتيانِ ﴾ أي وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه على كل حالة . ولهذا جاء في الحديث : « الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر ، فإذا عبرت وقعت » .

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا : لم نر شيئاً ، فقال لهما : ﴿ قُضِيَ الأمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتفتيانِ ﴾ .

﴿ وقالَ لِلّذِي ظَنّ أنهُ ناجٍ منْهُما اذكُرني عِنْد ربِّك فأنساهُ الشيْطان ذِكْر ربِّهِ فَلبثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [1] .

يخبر تعالى أن يوسف قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو الساقي : ﴿ اذْكُرني عنْدَ ربِّكَ ﴾ يعنى اذكر أمرى وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك . وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب ، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب .

وقوله : ﴿ فأنْساهُ الشّيطانُ ذِكْرَ ربِّهِ ﴾ أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٢ .

ماوصاه به يوسف عليه السلام . قال مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد . وهو الصواب ، وهو منصوص أهل الكتاب .

﴿ فَلَبِثَ ﴾ يوسف ﴿ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ والبضع : مابين الثلاث إلى التسع ، وقيل إلى السبع، وقيل إلى الخمس، وقيل مادون العشرة: حكاها الثعلبي، ويقال بضع نسوة وبضعة رجال.

ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر . قال : وإنما يقال نيف وقال الله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجن بِضْعَ سِنِين ﴾ وقال تعالىٰ ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [٢] وهذا رد لقوله .

قال الفراء : ويقال بضعة عشر وبعضة وعشرون إلى التسعين ، ولا يقال : بضع ومائة ، وبضع وألف . وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر ، فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين . وفي الصحيح : « الإيمان بضع وستون شعبة » وفي رواية : « وسبعون شعبة ،وأعلاها قول لا إله إلا الله ،وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

ومن قال إن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله ،وإن كان قد روى عن ابن عباس وعكرمة .

والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه ، تفرد بإسناده إبراهيم ابن يزيد الخوري المكي وهو متروك .

ومرسل الحسن وقتادة لايقبل ، ولا هاهنا بطريق الأولى والأحرى .. والله أعلم .

فأما قول ابن حبان في صحيحه . عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن مالبث : أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي ، حدثنا مسدد بن مسرهد ، حدثنا خالد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ مالبث في السجن ما لبث ، ورحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد ، إذ قال لقومه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [٢] ، قال : فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه » .

فإنه حديث منكر من هذا الوجه . ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة . وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها والذي في الصحيحين يشهد بغلطها .. والله أعلم .

---

(١) سورة الروم الآية ٤ .

(٢) سورة هود الآية ٨٠ .

﴿ وقالَ الملِكُ إنِّي أرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سبْعٌ عِجافٌ وسَبْعَ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابِساتٍ ، يا أيُّها الملأُ أفْتوني في رُؤْيايَ إنْ كنْتُم للرُّؤْيا تَعْبُرونَ * قالُوا أضْغاثُ أحْلامٍ ، وما نَحنُ بتأْويلِ الأحْلامِ بعالِمينَ * وقالَ الَّذي نَجا مِنْهُما وادَّكَرَ بَعْدَ أُمةٍ أنَا أُنبِّئُكُم بتأْويلِه فأرْسِلُونَ * يُوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ أفْتِنَا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وسبْعِ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أرْجِعُ إلَى النَّاسِ لعلَّهُم يعْلَمُونَ * قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دأباً فَما حَصدتُم فَذَرُوهُ في سُنْبلِه إلاَّ قَليلاً مَّا تأكُلُونَ * ثمَّ يأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلكَ سبْعٌ شِدادٌ يأكُلْنَ ما قَدَّمتُم لهنَّ إلاَّ قَليلاً مِّمَّا تُحْصِنونَ * ثمَّ يأْتِي مِنْ بعدِ ذلكَ عامٌ فِيه يُغاثُ النَّاسُ وفيهِ يَعصِرونَ ﴾ (١)

هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام ، وذلك أن ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو ابن عملاق بن لاوذ ابن سام بن نوح ، رأى هذه الرؤيا .

قال أهل الكتاب : رأى كأنه على حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلن يرتعن في روضة هناك ، فخرجت سبع هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً ، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً .

فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها ، بل ﴿ قالُوا أضْغاثُ أحْلامٍ ﴾ أي اخلاط أحلام من الليل ، لعلها لاتعبير لها ، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك . ولهذا قالوا : ﴿ وما نَحنُ بتأْويلِ الأحْلامِ بعالِمينَ ﴾ فعند دلك تذكر الناجي منهما ، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا ، وذلك عن تقدير الله عزوجل وله الحكمة في ذلك . فلما سمع رؤيا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيرها ، تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وقالَ الَّذي نَجَا مِنْهُما وادَّكَرَ ﴾ أي تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أي بعد مدة من الزمان ، وهو بضع سنين . وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك : ﴿ وادَّكَرَ بعْدَ أمْهٍ ﴾ أي بعد نسيان وقرأها مجاهد : ﴿ بَعْد أَمةٍ ﴾ بإسكان الميم . وهو النسيان أيضاً . يقال أمه الرجل يأمه أمها وأمْهاً إذا نسى . قال الشاعر :

---

(١) سورة يوسف آيات ٤٢ ـ ٤٩

أمهت وكنت لا أنسى حـــديثـــا كـذاك الـدهر يـزرى بـالعقـول

فقال لقومه وللملك : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال : ﴿ يُوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ أفتِنا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكلهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وسبْعِ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِساتٍ لَعَلِّي أرْجِعُ إلَى النَّاسِ لعلّهُم يعْلَمُونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن الملك لما ذكره له الساقي ، استدعاه إلى حضرته ، وقص عليه ما رآه ففسره له . وهذا غلط .والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران . من فرى وهذيان .

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرطٍ ، ولا طلب الخروج سريعاً ، بل أجابهم إلى ما سألوه ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ ثمَّ يأْتِي مِنْ بَعدِ ذَلكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ النَّاسُ ﴾ يعنى يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ وفِيه يعْصِرونَ ﴾ يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقطاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها .

فعبر لهم وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى مايعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب في السبع الأول في سنبله ، إلا مايرصد بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية ، إذ الغالب على الظن أنه لايرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ وقالَ الملِكُ ائتوني بهِ ، فلمَّا جاءَهُ الرَّسولُ قالَ ارْجِعْ إلَى ربِّكَ فاسْألْهُ ما بالُ النِّسْوةِ اللاَّتِي قطَّعنَ أيْـدِيهنَّ ، إنَّ ربِّي بِكَيْـدِهنَّ عَلِيمٌ * قالَ ما خَطْبُكنَّ إذْ رَاودْتنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قلنَ حَاشَ للهِ ما عَلِمْنا عَليهِ مِنْ سُوءٍ ، قالت امْرأةُ العَزيزِ الآنَ حَصْحصَ الحقُّ أنَا رَاودتُّه عَن نَفْسِه ، وإنَّه لمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلكَ ليَعْلَمَ أنِّي لَمْ أخُنْه بالغَيْبِ وأنَّ اللهَ لايهْدِي كَيْدَ الخَائِنينَ * ومَا أُبرِّئُ نَفْسي ، إنَّ النَّفْسَ لأمَّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رَحِمَ ربِّي ، إنَّ ربِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة يوسف آيات ٥٠ ـ ٥٣ .

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره إلى حضرته ، ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً ، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً . ﴿ قالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ يعني الملك ﴿ فاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قيل معناه : إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إليّ ، أي فمر الملك فليسألهن : كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي ؟ وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد ؟

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر ،وما كان منه من الأمر الحميد ﴿ قُلْنَ حَاشَ للهِ ما عَلِمْنا عَلَيه مِنْ سُوءٍ ﴾

فعند ذلك ﴿ قالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ ﴾ وهي زليخا ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحَق ﴾ أي ظهر وتبين ووضح ، والحق أحق أن يتبع ﴿ أَنَا رَاوَدْتُه عَنْ نَفْسهِ ، وإِنَّهُ لمنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي فيما يقوله ، ومن أنه بريء وأنه لم يراودني ،وأنه حبس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبهتاناً .

وقوله : ﴿ ذٰلكَ لِيعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْب وأنَّ اللهَ لايَهْدِي كَيْدَ الخَائِنينَ ﴾ قيل إنه من كلام يوسف ، أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب . وقيل إنه من تمام كلام زليخا ، أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة .

وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول .

﴿ ومَا أُبرِّئُ نَفْسي ، إنَّ النَّفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوء إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ، إنَّ ربِّي غفورٌ رَحيمٌ ﴾ قيل إنه من كلام يوسف ، وقيل مِن كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى .. والله أعلم .

﴿ وقالَ الملكُ ائْتوني بهِ أَسْتَخلِصهُ لنَفْسِي ، فلمَّا كلَّمهُ قالَ إنَّك اليومَ لَديْنا مَكينٌ أمينٌ * قالَ اجْعَلني علَى خَزائنِ الأرْضِ ، إنِّي حَفيظٌ عَليمٌ * وكذلك مَكَّنا ليوسُفَ في الأرْضِ ، يَتبوَّأُ مِنْها حَيثُ يَشاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المحْسِنينَ * ولأجْرُ الآخِرةِ خَيرٌ للذينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقُونَ ﴾ [1] .

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ﴿ قالَ ائْتُوني بهِ أَسْتَخلِصهُ لِنفْسِي ﴾ أي أجعله من خاصتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتي ، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قالَ إنَّك اليَومَ لَديْنا مَكينٌ أمينٌ ﴾ أي ذو مكانة وأمانة .

﴿ قالَ اجْعَلني علَى خَزائنِ الأرْضِ إنِّي حَفيظٌ عَليمٌ ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء [2] لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب ، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ،وأخبر الملك أنه حفيظ ، أي قوي على حفظ مالديه أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء .

وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

وعند أهل الكتاب : أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً ، وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه ،وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ، ونودي بين يديه : أنت رب ومسلط ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسي .

قالوا : وكان يوسف إذا ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشأن ، وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف .

وقيل : إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء ، لأن زوجها كان لايأتي النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين هما : أفرايم ومنسا . قال : واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكي أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ،وفي كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنة .. والله أعلم .

---

(١) سورة يوسف آيات ٥٤ ـ ٥٧ .

قال الله تعالى : ﴿ وكذٰلكَ مَكنّا ليُوسفَ في الأرْضِ ، يَتبوأُ مِنْها حَيثُ يَشاءُ ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر ، صار مطلق الركاب بديار مصر ، ﴿ يتَبوأُ مِنْها حيَث يَشاءُ ﴾ أي أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً .

﴿ نُصيبُ بِرحْمَتنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ ﴾ من أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع مايدخر له في آخرته من الخير الجزيلْ والثواب الجميل .

ولهذا قال : ﴿ ولأجْرُ الآخِرَة خَيرٌ للَّذينَ آمنُوا وكانُوا يتَّقونَ ﴾ .

ويقال : إن قطفير زوج زليخا كان قد مات ، فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا ، فكان وزير صدق .

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر ـ الوليد بن الريان ـ أسلم على يدي يوسف عليه السلام .. فالله أعلم . وقد قال بعضهم :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تيأسن ، فالله ملَّك يوسفا ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

﴿ وجاءَ إخْوةُ يُوسَفَ فدَخلُوا عَليهِ فَعَرفهُم وهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * ولمَّا جَهَّزهُم بِجَهَازِهِمْ قالَ ائْتُوني بأخٍ لَكُم مِنْ أبِيكُم ، ألاَ تَرونَ أنّي أُوفِي الكَيلَ وأنَا خَيرُ المُنْزلِين * فإنْ لَمْ تأْتُوني بهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُم عِنْدِي ولا تَقْرَبُونِ * قالُوا سَنُراوِدُ عَنهُ أباهُ وإنَّا لَفاعِلونَ * وقالَ لِفتْيانِهِ اجْعلُوا بِضاعَتهُم فِي رِحالِهِمْ لَعلَّهم يعْرِفُونَها إذَا انْقَلبُوا إلَى أهْلِهم لَعلَّهمْ يرْجِعونَ ﴾ [1] .

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً ، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد .

وكان يوسف عليه السلام إذا ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

---

(١) سورة يوسف آيات ٥٨ ـ ٦٢ .

وعند أهل الكتاب : أنهم لما قدموا عليه سجداوا له فعرفهم ،وأراد ألا يعرفوه فأغلظ لهم في القول ، وقال : أنتم جواسيس ، جئتم لنا لتأخذوا خير بلادي . فقالوا : معاذ الله .. إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا . فقال : لابد أن أستعلم أمركم . وعندهم : أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم ، واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر . وفي بعض هذا نظر .

قال تعالى : ﴿ ولمّا جهّزهُم بجَهازِهِمْ ﴾ أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ، من إعطاء كل إنسان حمل بعير لايزيده عليه ﴿ قالَ ائتُوني بأخٍ لكُم مِنْ أبيكُم ﴾ وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثني عشر رجلاً ، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا . فقال : إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم .

﴿ ألاَ تَرونَ أنّي أُوفِي الكَيْل وأنَا خَيرُ المنْزِلينَ ﴾ ؟ أي قد أحسنت نزلكم وقراكم ، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال : ﴿ فإنْ لَم تأْتوني بهِ فلاَ كَيلَ لَكُم عِنْدي ولا تَقْربُونِ ﴾ أي قلست أعطيكم ميرة ، ولا أقريكم بالكلية ، عكس ما أسدي إليهم أولاً .

فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب .

﴿ قالُوا سَنُراوِدُ عنْهُ أباهُ ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ، ﴿ وإنّا لفَاعِلُون ﴾ أي وإنا لقادرون على تحصيله .

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ لَعلّهم يَعْرفُونَها إذا انْقلبُوا إلَى أهْلِهِم لَعلّهُم يرْجعون ﴾ قيل أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم ، وقيل خشي ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية ، وقيل تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة .

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكرها ، وعند أهل الكتاب أنها كانت صرراً من ورق ، وما أشبه .. والله أعلم .

﴿ فلمّا رَجعُوا إلَى أبيهِمْ قالُوا يا أبانَا مُنِعَ مِنّا الكَيْلُ فأرْسِل مَعَنا أخانَا نَكْتَل وإنّا لهُ

لحافظون * قال هلْ آمنكُم عليهِ إلاّ كَما أمنتكم على أخيهِ منْ قبلُ ، فاللهُ خيرٌ حافظاً ، وهُو أرحَم الرّاحِمينَ * ولمّا فتحُوا متاعَهُم وَجدُوا بضاعتَهُم رُدّتْ إليْهِمْ ، قالُوا يا أبانا ما نَبْغي ، هٰذهِ بضاعتُنا رُدّت إلَينا ، ونَميرُ أهْلَنا ونَحفَظُ أخانا ونَزْدادُ كَيْل بَعيرٍ ، ذٰلكَ كَيلٌ يَسيرٌ * قالَ لَنْ أرسِلهُ مَعكُم حتّى تُؤْتونِ مَوْثقاً مِنَ اللهِ لتأتُنّني بهِ إلاّ أنْ يُحاطَ بكُمْ ، فلمّا آتوْهُ مَوْثقهُم قالَ : اللهُ علَى ما نَقُول وَكيلٌ * وقالَ يابَنيَّ لا تدْخُلُوا منْ بابٍ واحدٍ وادْخُلُوا منْ أبْوابٍ مُتفرّقةٍ ، وما أُغنِي عنْكُم مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ ، إنِ الحُكْم إلاّ للهِ عليهِ توكلتُ ، وعَليهِ فلْيتوكّل المتَوكّلونَ * ولمّا دَخلُوا مِنْ حَيْثُ أمَرهُم أبُوهُم ما كان يُغْني عَنْهم مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ ، إلاّ حاجَةً في نَفْس يعْقوبَ قضَاها ، وإنّهُ لَذُو عِلمٍ لِما علّمناهُ ولٰكنّ أكْثَر النّاسِ لايعْلَمونَ ﴾ [1] .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له : ﴿ مُنِعَ مِنّا الكَيلُ ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا .

﴿ ولمّا فتَحُوا مَتاعَهُم وَجدُوا بِضاعَتَهُم رُدّتْ إليْهِمْ ، قالوا يا أبانا ما نَبْغي ﴾ أي شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا ؟ ﴿ ونَميرُ أهْلَنا ﴾ أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ، ﴿ ونَحفَظُ أخانَا ونَزْدادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيلَ بَعيرٍ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ ذٰلكَ كَيلٌ يسيرٌ ﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر .

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين ، لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، ويتعوض بسببه منه .

فلهذا قال : ﴿ لَنْ أرسِلهُ مَعكُم حتّى تُؤْتونِ مَوْثقاً مِنَ اللهِ لتأتُنّني بهِ إلاّ أنْ يُحاطَ بكُمْ ﴾ أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . ﴿ فلمّا آتوْهُ مَوْثقهُم قالَ : اللهُ علَى ما نَقُول وَكيلٌ ﴾ .

أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه في ولده ،ولن يغني حذر من قدر ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة ، لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

---

(١) سورة يوسف آيات ٦٣ ـ ٦٨ .

ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . وقيل : أراد ألا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة . قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك .

وقيل : أرد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله إبراهيم النخعي .

والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿ وما أُغْنِي عَنْكُم مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولَمَّا دَخلُوا مِنْ حَيثُ أمَرَهُم أبوهُم ما كانَ يُغْني عنه مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، إلاّ حاجَةً في نَفْسِ يعْقُوبَ قَضَاها ، إنهُ لذُو عِلْمٍ لِمَا علّمناهُ ولكنّ أكْثَر الناسِ لايعْلَمونَ ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية إلى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعرضاً آخر .

﴿ ولَمَّا دَخلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إليهِ أخاهُ ، قالَ إنّي أنا أخُوكَ فلا تَبْتَئِسْ بِمَا كانُوا يعْمَلونَ * فلمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ في رَحْلِ أخِيهِ ثُمَّ أذَّنَ مُؤذِّنٌ أيَّتُها العِيرُ إنَّكُم لَسارِقُونَ * قالُوا وأقْبلُوا عَلَيْهِم ماذا تَفْقِدونَ * قالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ ولِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعيرٍ وأنَا بِهِ زَعِيمٌ * قالُوا تاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ما جِئْنا لِنُفسِدَ في الأرْضِ وما كُنَّا سارِقِينَ * قالُوا فَما جزاؤُهُ إنْ كُنتُم كاذِبِينَ * قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه فَهُوَ جَزاؤُهُ ، كَذلكَ نَجْزي الظَّالِمينَ * فَبَدأ بِأوْعِيتِهِم قبلَ وِعاءِ أخِيهِ ثُمَّ اسْتَخرجَها مِنْ وِعاءِ أخِيهِ ، كَذلكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ، ما كانَ لِيأخُذَ أخاهُ في دِينِ المَلِكِ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرجَاتٍ مَنْ نَشاءُ ، وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَليمٌ * قالوا إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فأسَرَّها يُوسُفُ في نَفْسِهِ ولَم يُبْدِها لَهُم ، قالَ أنْتُم شَرٌّ مَكاناً ، واللهُ أعلمُ بِمَا تَصِفُونَ * قالُوا يا أيُّها العَزِيزُ إنَّ لهُ أباً شَيْخاً كَبيراً فَخُذْ أحَدَنا مَكانَهُ ، إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * قالَ مَعاذَ اللهِ أنْ نأخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنا عندهُ إنَّا إذاً لظَالِمونَ ﴾ [(١)] .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه ، وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتم ذلك عنهم . وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه .

---

(١) سورة يوسف آيات ٦٩ ـ ٧٩ .

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم ، فأمر فتيانه بوضع سقايته ، وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام ، عن غرة في متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة على رده ، حمل بعير ، وضمنه المنادي لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيا قاله لهم: ﴿ قالُوا تَاللهِ لَقَد عَلِمْتُم ما جِئْنا لِنفْسِدَ في الأرْضِ وما كُنَّا سارِقِينَ ﴾ يقولون : أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة .

﴿ قالُوا فَمَا جزاؤُهُ إنْ كُنتُم كاذِبِينَ * قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِد في رَحْله فَهُو جَزاؤُهُ ، كَذٰلك نَجْزِي الظَّالِمينَ ﴾ وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه . ولهذا قالوا : ﴿ كَذٰلك نَجْزِي الظَّالِمينَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَبَدأَ بِأَوْعِيَتِهِم قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ، ثم قال الله تعالى : ﴿ كَذٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، ما كانَ لِيَأْخُذَ أخاهُ في دِينِ المَلِكِ ﴾ أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ ﴾ أي في العلم : ﴿ وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَليمٌ ﴾ .

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً ، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ، لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك ، من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه .

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿ قالُوا إنْ يَسْرِقْ فَقَد سَرَقَ أخٌ لَهُ مِنْ قَبلُ ﴾ يعنون يوسف ، قيل كا قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره . وقيل كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقاً كانت لإسحاق ، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له . وقيل كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل غير ذلك . فلهذا : ﴿ قالُوا إنْ يَسْرِق فَقَد سَرَقَ أخٌ لهُ مِنْ قَبلُ ، فأَسَرَّها يُوسُفُ في نَفْسِه ﴾ وهي كلمته بعدها ، وقوله : ﴿ أنتُمْ شرٌّ مكَاناً ، واللهُ أعْلَمُ بِمَا تَصِفونَ ﴾ أجابهم سراً لاجهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً ، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا :﴿ يا أيُّها العَزِيزُ إنَّ لهُ أباً شَيْخاً كَبيراً فخُذْ أحَدَنا مَكانَهُ ، إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنينَ * قالَ مَعاذَ اللهِ أنْ نَأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتَاعنا عندهُ إنَّا إذاً لظَالِمونَ ﴾ أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء ، وهذا مالا نفعله ولا نسمح به ،وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف تعرف إليهم حينئذ . وهذا مما غلوا فيه ولم يفهموه جيداً .

﴿ فلمّا استيأسُوا منهُ خلصُوا نَجيًّا قالَ كَبيرُهُم ألَمْ تعلَمُوا أنّ أباكُمْ قدْ أخذَ عليكُم مَوْثِقاً منَ اللهِ ومِنْ قَبلُ ما فرّطتُم في يُوسُفَ ، فلَنْ أبْرَحَ الأرْضَ حتّى يأذَنَ لي أبي أوْ يَحكُم اللهُ لي ، وهُوَ خيْرُ الحاكِمينَ ، ارْجعُوا إلى أبيكُم فقُولُوا يا أبانا إنّ ابنكَ سَرَقَ وما شَهِدْنا إلاّ بِما عَلِمْنا وما كُنّا للغَيبِ حافِظِينَ * واسْألِ القَريةَ الّتي كُنّا فِيهَا والعيرَ الّتى أقْبَلنا فِيها ،وإنّا لصَادِقُونَ * قالَ بَلْ سَوّلتْ لكُم أنْفُسكُم أمْراً ، فَصَبرٌ جَميلٌ ، عَسَى اللهُ أنْ يأتِيني بِهِم جَميعاً ، إنّهُ هُوَ العَليمُ الحَكيمُ * وتَولّى عَنْهُم وقالَ يا أسَفَى عَلَى يُوسُفَ وابيضّتْ عيناهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُم كَظيمٌ * قالُوا تالله تَفْتأُ تَذْكُر يُوسُفَ حتّى تكونَ حَرَضاً أوْ تَكونَ مِنَ الهالِكينَ * قالَ إنما أشكُوا بَثّي وحزْني إلَى اللهِ وأعْلمُ مِنَ اللهِ ما لاَ تعْلَمونَ * يابَنِيّ اذْهبُوا فَتَحسّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخيهِ ولا تَيأسُوا مِنْ رَوحِ اللهِ ، إنّهُ لا يَيْأسُ مِنْ رَوحِ اللهِ إلاّ القَومُ الكَافِرُونَ ﴾ [1] .

يقول تعالى مخبراً عنهم لما استيأسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم وهو روبيل : ﴿ ألَمْ تعلَمُوا أنّ أباكُمْ قدْ أخذَ عليكُم مَوْثِقاً مِنَ الله ﴾ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ؟ لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿ فلَنْ أبْرَحَ الأرْضَ ﴾ أي لا أزال مقيماً هاهنا ﴿ حتّى يأذَنَ لي أبي ﴾ في القدوم عليه ، ﴿ أوْ يَحكُم اللهُ لي ﴾ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي ﴿ وهُوَ خيْرُ الحاكِمينَ ﴾ .

﴿ ارْجعُوا إلَي أبيكُم فقُولُوا يا أبانَا إنّ ابنَك سَرَقَ ﴾ أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ ومَا شَهِدْنا إلاّ بمَا عَلِمنَا وما كُنّا للغَيبِ حافِظِينَ * واسْألِ القَرْيةَ الّتى كنّا فِيها والعيرَ الّي أقْبلنا فِيها ﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به ـ من أخذهم أخانا لأنه سرق ـ أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك ﴿ وإنّا لَصادِقُونَ ﴾ .

﴿ قالَ بَلْ سوّلَتْ لَكُم أنْفسُكُم أمْراً ، فَصَبْرٌ جَميلٌ ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم ، لم يسرق ، فإنه ليس سجية له ولا خلقة . وإنما ﴿ سوّلتْ لَكم أنْفُسكُم أمْراً ، فَصبرٌ جَميلٌ ﴾ .

قال ابن إسحاق وغيره : لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف

---

(١) سورة يوسف آيات ٨٠ ـ ٨٧

قال لهم ما قال . وهذا كما قال بعض السلف : إن من جزاء النبيئة السيئة بعدها !

ثم قال : ﴿ عَسَى اللهُ أنْ يَأْتِيَنِي بِهِم جَمِيعاً ﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل : ﴿ إِنَّهُ هُوَ العَليمُ ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ الحَكِيمُ ﴾ فيما يقدره ويفعله ،وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة .

﴿ وتَولّى عَنْهُم ﴾ أي أعرض عن بنيه : ﴿ وقالَ يا أسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ،وحرك ما كان كامناً كما قال بعضهم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى	ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر :

لقد لامني عند القبور على البكا	رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال : أتبكي كل قبر رأيته	لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى	فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله : ﴿ وابْيَضَّتْ عَيناهُ مِنَ الحُزْنِ ﴾ أي من كثرة البكاء ، ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف .

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ قالُوا ﴾ له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه : ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتّى تَكونَ حَرَضاً أوْ تَكونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾ .

يقولون : لاتزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك .

﴿ قالَ إنَّمَا أشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إلَى اللهِ وأعْلَمُ مِنَ اللهِ مالاَ تَعْلَمونَ ﴾ يقول لبنيه : لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكوه إلى الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً ،وأعلم أن رؤيا يوسف لابد أن تقع ، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى . ولهذا قال : ﴿ وأعْلَمُ مِنَ اللهِ مالاَ تعْلَمونَ ﴾ .

ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهما : ﴿ يابَنِيَّ اذْهَبُوا

فَتَحسَّسوا مِنْ يُوسُفَ وأخِيهِ ولا تَيأسُوا مِنْ رَوحِ اللهِ ، إنَّه لايَيأسُ مِنْ رَوحِ اللهِ إلاَّ القَومُ الكَافِرُون ﴾ أي لاتيأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لاييأس من روح الله وفرجه ، وما يقدره من المخرج في المضايق ، إلا القوم الكافرون .

﴿ فلمَّا دَخلوا عَليهِ قالوا يا أيُّها العَزِيزُ مَسَّنا وأهْلَنا الضُّرُّ وجِئْنا بِبِضاعةٍ مُزْجاةٍ فأَوْفِ لَنا الكَيلَ وتَصدَّقْ عَلينا ، إنَّ اللهَ يَجْزِي المُتَصدِّقِينَ * قالَ هَلْ عَلِمْتُم ما فَعلتُم بِيُوسُفَ وأخِيهِ إذْ أنتمْ جاهِلونَ * قالُوا أئنَّك لأنْتَ يُوسُفُ ، قالَ أنَا يُوسُفُ وهٰذا أخِي ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلينا ، إنهُ مَنْ يتَّقِ ويَصْبِر فإنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ * قالُوا تاللهِ لَقدْ آثَرَكَ اللهُ عَلينا وإنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ * قالَ لاتَثْرِيبَ عَليكُمُ اليَومَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُم ، وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اذهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذا فألْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أبِي يأتِ بَصِيراً وأْتُونِي بأهلِكُم أجْمَعِينَ ﴾ [1] .

يخبر تعالى عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ، ورغبتهم فيا لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم : ﴿ فلمَّا دخَلُوا عَليْهِ قالُوا يا أيُّها العَزِيزُ مسَّنَا وأهْلَنا الضُّرُّ ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ، ﴿ وجِئْنا بِبِضاعةٍ مُزْجاةٍ ﴾ أي ضعيفة لايقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا . قيل كانت دراهم رديئة ، وقيل قليلة ، وقيل حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك . وعن ابن عباس : كانت خلق الغرائر والحبال ونحو ذلك .

﴿ فأوفِ لَنا الكَيْلَ وتَصدَّقْ عَلَيْنا ، إنَّ اللهَ يَجْزِي المُتَصدِّقِينَ ﴾ قيل بقولها ، قاله السدي ، وقيل برد أخينا إلينا ، قال ابن جريج . وقال سفيان بن عيينة : إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية . رواه ابن جرير .

فلما رأى ما هم فيه من الحال ، وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ، تعرف إليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ، وقد حسر عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الخال الذي يعرفون فيه : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم ما فَعلتُم بِيُوسُفَ وأخِيهِ إذْ أنْتُم جاهِلُون ﴾ .

﴿ قالُوا ﴾ وتعجبوا كل العجب ، وقد ترددوا إليه مراراً عديدة وهم لايعرفون أنه هو

---

(١) سورة يوسف آيات ٨٨ ـ ٩٣ .

﴿ أئنّكَ لأنْتَ يُوسُفُ ﴾ ؟

﴿ قالَ أنا يُوسُفُ وهٰذا أخِي ﴾ يعني أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم ، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم . وقوله ﴿ وهٰذا أخِي ﴾ تأكيد لما قال ، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد ، وعملوا في أمرهما من الاحتيال . ولهذا قال : ﴿ قَدْ منَّ اللهُ عَلينَا ﴾ أي بإحسانه إلينا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا ، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا ، وصبرنا على ما كان منكم وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا . ﴿ إنّهُ مَنْ يتّقِ ويَصْبر فإنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ المُحسِنينَ ﴾ .

﴿ قالُوا تَاللهِ لَقَد آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا ﴾ أي فضلك وأعطاك ما لم يعطنا ، ﴿ وإنْ كنّا لخَاطِئينَ ﴾ أي فيما أسدينا إليك . وها نحن بين يديك . ﴿ قالَ لا تَثْرِيبَ عَليكُم اليَوْم ﴾ أي لست أعاتبكم على ما كان منكم بعد يومكم هذا . ثم زادهم على ذلك فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم ، وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ومن زعم أن الوقف على قوله : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَليْكُم ﴾ وابتدأ بقوله : ﴿ اليَوْم يَغْفِرُ اللهُ لَكُم ﴾ فقوله ضعيف والصحيح الأول .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه ، وهو الذي يلي جسده ، فيضعوه على عيني أبيه ، فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب ، بإذن الله ، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات .

ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر ، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

﴿ ولَمّا فَصَلَتِ العِيرُ قالَ أبُوهُم إنّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أنْ تُفَنِّدُونِ * قالُوا تَاللهِ إنّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ * فَلمّا أنْ جاءَ البَشِيرُ ألقاهُ علَى وجْهِهِ فارْتَدَّ بَصِيراً ، قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُم ، إنّي أعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا تَعْلَمُونَ * قالوا يا أبَانَا اسْتَغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إنّا كنّا خَاطِئِينَ * قالَ سَوْفَ أسْتغفِرُ لَكُم رَبّي ، إنّهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ ﴾ [1] .

قال عبد الرزاق : أنبأنا إسرائيل ، عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، سمعت ابن

---

(1) سورة يوسف آيات ٩٤ ـ ٩٨

عباس يقول : ﴿ ولَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿ إنِّي لأجدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أنْ تُفَنِّدُون ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به .

وقال الحسن البصري وابن جريج المكي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة .

وقوله : ﴿ لَوْلا أنْ تُفَنِّدُون ﴾ أي تقولون إنما قلت هذا من الفند ، وهو الخرف وكبر السن .

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ تسفهون ، وقال مجاهد أيضاً والحسن : تهرمون .

﴿ قالُوا تَاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ ﴾ قال قتادة والسدي : قالوا له كلمة غليظة

قال الله تعالى : ﴿ فلمَّا أنْ جاءَ البَشيرُ ألْقاهُ عَلَى وجْهِه فارْتَدَّ بَصيراً ﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً . وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ ألَمْ أقلْ لَكُم ، إنِّي أعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا تَعْلَمونَ ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف ، وسيقر عيني به ، وسيريني فيه ومنه ما يسرني .

فمنذ ذلك : ﴿ قالُوا يا أبانَا اسْتغفِرْ لَنا ذُنوبنَا إنَّا كُنَّا خاطِئينَ ﴾ طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه ، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل ، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم ، فأجابهم أبوهم إلى ماسألوا ، وما عليه عولوا قائلاً : ﴿ سَوْفَ أسْتَغفرُ لَكُم رَبِّي ، إنهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر . قال ابن جرير : حدثني أبو السائب : حدثنا ابن إدريس قال : سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال : كان عمر يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول : « اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي » قال : فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿ سَوفَ أسْتَغفرُ لَكُم رَبِّي ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ والمسْتَغفِرينَ بالأسْحارِ ﴾ [1] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠ .

وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له » ؟ وقد ورد في حديث : « أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة » .

قال ابن جرير : حدثني المثنى ، قال : حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي ، حدثنا الوليد ، أنبأنا ابن جريج ، عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ سَوفَ أَسْتَغفرُ لَكُم رَبِّي ﴾ يقول : « حتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخي يعقوب لبنيه » .

وهذا غريب من هذا الوجه ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ فلمَّا دَخلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إليْهِ أبَويْه وقالَ ادْخلُوا مِصْر إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ * ورَفَع أبَويْه علَى العَرْش وخرُّوا لَهُ سُجَّداً ، وقالَ ياأبَتِ هٰذا تأْويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا ، وقَدْ أحسَنَ بي إذْ أخْرجَني مِنَ السِّجْنِ وجاءَ بِكُمْ مِنَ البَدْو مِنْ بَعْد أنْ نَزغَ الشَّيْطانُ بيْني وبَيْن إخْوتِي ، إنَّ رَبِّي لَطيفٌ لِما يَشاءُ ، إنَّه هُو العَليمُ الحَكيمُ * رَبِّ قَدْ آتيْتَني مِنَ المُلْكِ وعلَّمتَني مِنْ تأْويلِ الأحادِيثِ ، فاطِرَ السَّمٰواتِ والأرْضِ أنْتَ ولِيِّي في الدُّنيا والآخِرَة ، توفَّني مُسْلماً وألْحِقْني بالصالِحينَ ﴾ [1] .

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة ، التي قيل : إنها ثمانون سنة ! وقيل : ثلاث وثمانون سنة ،وهما روايتان عن الحسن ، وقيل : خمس وثلاثون سنة . قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة . قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة .

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً ، فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة ، فيما قاله غير واحد ، فامتنع . فكان في السجن بضع سنين ، وهي سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي ، جاء إخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم ، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين ،وفي الثالثة تعرف

---

(١) سورة يوسف آيات ٩٩ ـ ١٠١ .

إليهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين ، فجاءوا كلهم .

﴿ فلمّا دَخلُوا علَى يُوسُفَ آوَى إليهِ أبَويْه ﴾ واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته ، ﴿ وقالَ ادْخلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ ﴾ قيل هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره قال : ادخلوا مصر ، وآوى إليه أبويه ، وضعفه ابن جرير وهو معذور . وقيل : بل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر قال : ﴿ ادْخلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ ﴾ قاله السدي ، ولو قيل : إن الأمر لايحتاج إلى هذا أيضاً ، وأنه ضمن قوله : ادخلوا ، بمعنى اسكنوا مصر ، أو أقيموا بها : ﴿ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ ﴾ كان صحيحاً مليحاً أيضاً .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب لما وصل إلى أرض جاشر - وهي أرض بلبيس - خرج يوسف لتلقيه ،وكان يعقوب قد بعث ابنه يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه ، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر ، يكونون فيها ، ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم . وقد ذكر جماعة من المفسرين ، أنه لما أزف قدوم نبي الله يعقوب - وهو إسرائيل - أراد يوسف أن يخرج لتلقيه ، فركب معه الملك وجنوده ، خدمة ليوسف وتعظيماً لنبي الله « إسرائيل » وأنه دعا للملك ، وأن الله رفع عن أهل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه إليهم .. فالله أعلم .

وكان جلة من قدم مع يعقوب من بنيه وأولادهم - فيما قاله أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود - ثلاثة وستين إنساناً .

وقال موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب ، عن عبد الله بن شداد : كانوا ثلاثة وثمانين إنساناً .

وقال أبو إسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنساناً .

قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيد من ستمائة ألف مقاتل ، وفي نص أهل الكتاب : أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم .

قال الله تعالى : ﴿ ورَفَعَ أبَويْه عَلَى العَرْش ﴾ قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين : أحياها الله تعالى . وقال آخرون : بل كانت خالته « ليا » والخالة بمنزلة الأم

وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ ، فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيا خالفه . وهذا قوي .. والله أعلم .

ورفعهما على العرش ، أي أجلسهما معه على سريره ﴿ وخرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ أي سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر ، تعظيماً وتكريماً وكان هذا مشروعاً لهم ، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتي حرم في ملتنا .

﴿ وقالَ ياأبَتِ هٰذا تأويلُ رُؤيايَ مِنْ قَبلُ ﴾ أي هذا تعبير ماكنت قصصته عليك : من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، حين رأيتهم لي ساجدين ،و أمرتني بكتمانها ، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ قَدْ جَعلَها رَبِّي حقا ، وقَدْ أحْسَن بِي إذْ أخْرجَنِي مِنَ السِّجْن ﴾ أي بعد الهم والضيق ، جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت . ﴿ وجاءَ بِكمْ مِنَ البَدو ﴾ أي البادية . وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخيل ﴿ مِنْ بَعْد أنْ نَزَغ الشَّيْطانُ بَيْني وبَيْن إخْوَتِي ﴾ أي فيا كان منهم من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره .

ثم قال : ﴿ إنَّ رَبِّي لَطيفٌ لمَا يَشاءُ ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ، ويسرها وسهلها من وجوه لايهتدي إليها العباد ، بل يقدرها ويسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . أي بجميع ﴿ إنَّهُ هُو العَليمُ ﴾ بالأمور ﴿ الحَكِيمُ ﴾ في خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده ، بأموالهم كلها ، من الذهب والفضة ، والعقار والأثاث ، وما يملكونه كله ، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء . ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ، ويكون خمس ما يستغلون من زروعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده .

وحكى الثعلبي : أنه كان لايشبع في تلك السنين ، حتى لاينسى الجيعان ، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار . قال : فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك . قلت : وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لايشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب .

قال الشافعي : قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة : لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة !

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع ، وعرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان ، وما بعد التمام إلا النقصان ، فنعد ذلك أثنى على ربه بما هو أهله ،واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ،وسأل منه - وهو خير المسئولين - أن يتوفاه ، أي حين يتوفاه على الإسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ،وهكذا كما يقال في الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين » أي حين تتوفانا .

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام ، كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى ، والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين ، كما قال : « اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثاً » ثم قضى .

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاء على الإسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته ، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم ، كما روى عن ابن عباس أنه قال : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف .

فأما في شريعتنا فقد نهى عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن ، كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد : « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا إليك غير مفتونين » وفي الحديث الآخر : « ابن آدم .. الموت خير لك من الفتنة » وقالت مريم عليها السلام : ﴿ يالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذا وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴾ [1] وتمنى الموت علي بن أبي طالب ، لما تفاقت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال ، وكثر القيل والقال . وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح ، لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إما محسناً فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب ، ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » والمراد بالضر هاهنا : ما يخص العبد في بدنه ، من مرض ونحوه ، لا في دينه .

والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك ، إما عند احتضاره ، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٣ .

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب : أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ، ثم توفي عليه السلام . وكان قد أوصى إلى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق ، قال السدي : فصبره وسيره إلى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ، ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة .

هذا نص كتابهم وهو غلط : أما في النسخة ، أو منهم ، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيا هو أكثر من هذا ، فكيف يستعملون الطريقة هاهنا .

وقد قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقوبَ الموْتُ إِذْ قالَ لِبنيهِ ما تَعبُدونَ مِنْ بَعْدي قالُوا نَعبدُ إلٰهكَ وإلٰهَ آبائِكَ إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ إلٰهاً وَاحداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ﴾[1] .

يوصي بنيه بالإخلاص ، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب : أن أوصى بنيه واحداً واحداً ، وأخبرهم بما يكون من أمرهم ، وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله تطيعه الشعوب ، وهو عيسى ابن مريم .. والله أعلم .

وذكروا : أنه لما مات يعقوب بكي عليه أهل مصر سبعين يوماً ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً . ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله ، فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها ، فلما وصلوا حبرون ودفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي ، وعملوا له عزاء سبعة أيام .

قالوا : ثم رجعوا إلى بلادهم ، وعزى إخوة يوسف يوسف في أبيهم ، وترققوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر .

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة ، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه ، فحنطوه ووضعوه في تابوت ، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام . فدفنه عند آبائه كما سيأتي . قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٣

هذا نصهم وفيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً ، وقال مبارك ابن فضالة عن الحسن : ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقال غيره : أوصى إلى أخيه يهوذا ، صلوات الله علية وسلامه .



قصة أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق : كان رجلاً من الروم . وهو أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب ، وقيل غيره ذلك في نسبه .

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار فلم تحرقه .

والمشهور الأول ، لأنه من ذرية إبراهيم ، كما قررنا عند قوله تعالى : ﴿ ومِنْ ذُرِّيتِهِ دَاوُد وسُلَيمانَ وأَيُّوبَ ويُوسُفَ ومُوسَى وهَارُونَ ﴾ [1] الآيات ، من أن الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ إنَّا أوْحَينَا إليْكَ كَمَا أوْحَيْنَا إلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْده وأوْحَينَا إلَى إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ ويَعقُوبَ والأَسْباطِ وعِيسَى وأيُّوبَ ﴾ [2] الآية .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل : اسمها « ليا » بنت يعقوب ، وقيل « رحمة » بنت أفرائم ، وقيل « ليا » بنت منسا بن يعقوب . وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا .

ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى : ﴿ وأيُّوبَ إذْ نادَي رَبَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمينِ * فاسْتَجبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وآتَيْناهُ أهْلَهُ ومِثْلَهم مَعَهُم رحْمةً مِنْ عِنْدِنا وذِكْرى للعَابِدينَ ﴾ [3]
وقال تعالى في سورة صۤ : ﴿ واذْكُر عَبْدَنا أيُّوبَ إذْ نادَى ربَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بنُصْبٍ وعَذابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلكَ ، هٰذا مغْتَسلٌ باردٌ وشَرابٌ * ووَهَبْنا لَهُ أهْلَه ومِثْلَهُمْ مَعَهُم رحْمةً مِنَّا وذِكْرَى لأُولِي الألْبابِ * وخُذْ بيَدِكَ ضِغْثاً فاضْرِبْ بهِ ولا تَحْنَثْ ، إنَّا وجَدْناهُ صابِراً ،

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٤ .
(٢) سورة النساء الآية ١٦٣ .
(٣) سورة الأنبياء آيتا ٨٣ ، ٨٤ .

نِعْمَ العبْدُ ، إنَّه أوّابٌ ﴾ [1] .

وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال : أول نبي بعث إدريس ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم إسحاق ، ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم موسى وهارون ، ثم إلياس ، ثم اليسع ، ثم عرفي بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، ثم يونس بن متىّ من بني يعقوب ، ثم أيوب بن زراح ابن آموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم . وفي بعض هذا الترتيب نظر : فإن هودًا وصالحاً : المشهود أنها بعد نوح وقبل إبراهيم .. والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ، من الأنعام والعبيد والمواشي ، والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران ، وحكى ابن عساكر : أنها كلها كانت له . وكان له أولاد وأهلون كثير .

فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلى في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما . وهو في ذلك كله صابر محتسب . ذاكر الله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه .

وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ،وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته ، وضعف حالها وقلّ مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر ، لتطعمه وتقوم بأوده ، رضي الله عنها وأرضاها ، وهي صابرة معه على ما حل بها من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » وقال : « يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه » .

---

(١) سورة صٓ آيات ٤١ ـ ٤٤ .

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا .

وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبر طويل ، في كيفية ذهاب ماله وولده ، وبلائه في جسده .. والله أعلم بصحته .

وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابهُ الجدري .

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال : فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص . وقال أنس : ابتلي سبع سنين وأشهراً ، وألقى على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتي فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه . وقال حميد : مكث في بلواه ثماني عشرة سنة . وقال السدي : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب ، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته ، فلما طال عليها ، قالت : يا أيوب .. لو دعوت ربك لفرج عنك ، فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من هذا الكلام ، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها ، لعلمهم أنها امرأة أيوب ، خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها ، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدي ضفيرتيها بطعام طيب كثير ، فأتت به أيوب ، فقال : من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت : خدمت به أناساً . فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به ، فأنكره وحلف لايأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه : ﴿ رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [1] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن حازم ، عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان ، فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع مثله من شيء قط ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني . فصدق من السماء وهما

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .

يسمعان . ثم قال : اللهم بعزتك وخر ساجداً ، فقال اللهم : بعزتك لاأرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد ، عن عقيل ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ؟ غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق .

قال : وكان يخرج في حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : أن ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [1] فاستبطأته فتلقته تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذا كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض » .

هذا لفظ ابن جرير ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة ، عن حرملة ، عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جدًّا ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال :وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية ، فجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : ياعبد الله .. أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هاهنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب ! قالت : أتسخر مني ياعبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله عليّ جسدي .

---

(١) سورة صۤ الآية ٤٢ .

قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ، ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحي الله إليه : « قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب من صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك » . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لما عافي الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه . قال : فقيل له : يا أيوب .. أما تشبع ؟ قال : يارب .. ومن يشبع من رحمتك ؟ »

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي ، وعبد الصمد عن همام ، عن قتادة به . ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي ، عن إسحاق بن راهويه ، عن عبد الصمد به ،ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح .. والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة : أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها في ثوبه ، فقيل : يا أيوب .. ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال : أي رب .. من يستغني عن ذلك ؟

هذا موقوف ، وقد روى عن أبي هريرة من وجه مرفوعاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثى في ثوبه . فناداه ربه عز وجل : يا أيوب .. ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لا غني لي عن بركتك » .

رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به .

وقوله : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي اضرب الأرض برجلك ، فامتثل ما أمر به ، فأنبع الله

عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسقم والمرض . الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالاً تامًّا ومالاً كثيراً ، حتى صب له من المال صباً ، مطراً عظيماً جراداً من ذهب .

وأخلف الله له أهله ، كما قال تعالى : ﴿ وآتيناهُ أهْلَهُ ومِثْلَهُم مَعَهُم ﴾ [1] فقيل : أحياهم الله بأعيانهم ، وقيل : آجره فيمن سلف ، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة ، وقوله : ﴿ رحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ﴾ [1] أي رفعنا عنه شدته ، وكشفنا ما به من ضر ، رحمة منا به ورأفة وإحساناً . ﴿ وذِكْرى للعَابِدِينَ ﴾ [1] أي تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : هي « رحمة » من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق النزع . وقال الضحاك عن ابن عباس : رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم .

وقوله : ﴿ وخُذْ بيَدِكَ ضِغْثاً فاضْرِبْ بهِ ولا تَحْنَثْ ، إنّا وَجَدْناهُ صابِراً ، نِعمَ العبْدُ إنّه أوّابٌ ﴾ [2] هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام ، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط . فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان ، فحلف ليضربنها مائة سوط ، فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث .

وهذا من الفَرَج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولاسيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة ، المكابدة الصديقة البارة الراشدة ، رضي الله عنها .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٤ .

(٢) سورة ص الآية ٤٤ .

ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ العَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور ، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان ، وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام ، عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

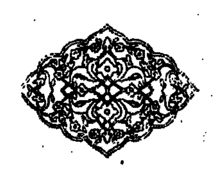
وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ : أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك .

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه : أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء ، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء ، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء .

وأنه أوصى إلى ولده « حومل » وقال بالأمر بعده ولده « بشر » بن أيوب ،وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه « ذو الكفل » فالله أعلم .

ومات ابنه هذا وكان نبيًّا فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمساً وسبعين .

ولنذكر هاهنا قصة ذي الكفل ، إذ قال بعضهم : إنه ابن أيوب عليهما السلام وهذه هي .



قصة ذى الكفل

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبيـاء : ﴿ وإِسْمَـاعِيلَ وإِدْرِيسَ وذَا الكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وأَدْخَلْناهُم في رَحْمَتِنا ، إنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [١]

وقـال تعـالى بعـد قصـة أيـوب أيضـاً في سـورة ص : ﴿ واذْكُر عِبـادَنـا إبْراهِيمَ وإسْحـاقَ ويعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي والأَبْصَار * إنَّا أخْلَصْنـاهُم بِخَالِصةٍ ذِكْرَى الـدَّار * وإنَّهمْ عِنْـدَنـا لِمِنَ المصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ * واذْكُر إسْماعِيلَ واليَسَع وذَا الكِفْلِ ، وكُلٌّ مِنَ الأَخْيارِ ﴾ [٢] .

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبيـاء أنـه نبي ، عليه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًّا ، وإنما كان رجلاً صـالحـاً وحكمـاً مقسطـاً عـادلاً . وتوقف ابن جرير في ذلك .. فالله أعلم .

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً . وكان قـد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسمي ذا الكفل .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند ، عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسـع قـال : لـو أني استخلفت رجـلاً على النـاس يعمـل عليهم في حيـاتي ، حيث أنظر كيف يعمل . فجمع النـاس فقـال : من يتقبل مني بثلاث أستخلفـه : يصوم النهـار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقـال : أنـا ، فقـال : أنت تصوم النهـار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال : نعم . قال : فرده ذلـك اليوم ، وقـال مثلهـا في اليوم الآخر ، فسكت أنـاس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا . فاستخلفه .

قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك ، فقال : دعوني وإيـاه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقـائلـة ، وكان لاينـام الليل والنهـار

---

(١) سورة الأنبياء آيتا ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) سورة صٓ آيات ٤٥ ـ ٤٨ .

إلا تلك النومة ، فدق الباب فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم . قام : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه ، فقال : إن بيني وبين قومي خصومة ، وأنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة . فقال : إذا رحت فإنني آخذ لك بحقك .

فانطلق رواح فكان في مجلسة ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه . فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة أخذ مضجعه أتاه فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتني ؟ قال : إنهم أخبث قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدوني . قال : فانطلق فإذا رحت فأتني .

قال : ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، شق عليه النعاس فقال لبعض أهله : لاتدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام ، فإني قد شق علي النوم . فلما كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل ، وراءك وراءك . فقال : قد أتيته أمس وذكرت له أمري . فقال : لا والله ، لقد أمرنا أن لاندع أحداً يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل . قال : فاستيقظ الرجل ، فقال : يافلان .. ألم آمرك ؟ قال : أما من قبلي والله فلم تؤت ، فانظر من أين أتيت ؟

قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه . فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ؛ أعييتني في كل شيء ففعلت كل ما ترى لأغضبك .

فسماه الله ذا الكفل ، لأنه تكفل بأمر فوفي به !

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قريباً من هذا السياق وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر ، وغيرهم من السلف نحو هذا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي : حدثنا أبو الجماهر ، أنبأنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة ، عن كنانة بن الأخنس ، قال : سمعت الأشعري - يعني أبا موسى رضي الله عنه - وهو على هذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبيًّا ، ولكن ... كان رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل .

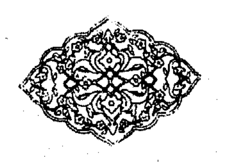
ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش ، عن عبد الله ابن عبد الله عن سعد مولي طلحة ، عن أبن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتي عد سبع مرار - لم أحدث به ، ولكني قد سمعته أكثر من ذلك قال : « كان الكفل من بني إسرائيل لايتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال لها ، مايبكيك ؟ آأكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتني عليه الحاجة . قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ! ثم نزل فقال : اذهبي بالدنانير لك . ثم قال : والله لايعصي الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل » .

ورواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال : حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر .

فهو حديث غريب جدًا وفي إسناده نظر ، فإن سعداً هذا قال أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا .. فالله أعلم .

وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل وإنما لفظ الحديث : الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن .. فالله تعالى أعلم .



أمم أهلكوا بعامه

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : ﴿ ولَقَد آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أهْلَكنا القُرونَ الأُولَى ﴾ [1] .. الآية .

كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض ، بعد ما أنزل التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التي مسخوا قردة . ألم تر أن الله تعالى يقول : ﴿ ولَقَد آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أهْلَكنا القُرونَ الأُولَى ﴾ .

ورفعه البزار في رواية له ، والأشبه والله أعلم وقفه . فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام .

فمنهم :

أصحاب الرس

قال الله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وعاداً وثَمُودَ وأصْحابَ الرَّسِّ وقروناً بيْنَ ذلكَ كَثيراً * وكلاً ضَرِبْنا لَهُ الأمْثالَ وكُلاً تَبَّرنَا تَتْبيراً ﴾ [2] .

وقال تعالى في سورة قّ : ﴿ كذَّبت قَبْلهُم قومُ نُوحٍ وأصْحابُ الرَّسِّ وثَمودُ * وعادٌ وفِرْعَونُ وإخوانُ لُوطٍ * وأصْحابُ الأيْكَةِ وقَومُ تُبّعٍ ، كلٌّ كذَّبَ الرُّسُل فَحقَّ وَعِيدِ ﴾ [3] .

وهذا السياق والذي قبله ، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا ، وهو الهلاك .

وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج ، لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح علية السلام . وفيه نظر أيضاً .

وروى ابن جرير قال : قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود .

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق ، عن

---

(١) سورة القصص الآية ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان آيتا ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) سورة ق آيات ١٢ ـ ١٤ .

تاريخ أبي القاسم عبد الله بن عبد الله بن جرداد وغيره ، أن أصحاب الرس كانوا بحضور ، فبعث الله إليه نبيًا يقال له حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه ، فصال عاد بن عوص بن إرم ابن سام بن نوح وولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها ، حتى نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، دمشق وبني مدينتها ، وسماها جبرون ، وهي إرم ذات العماد ،وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق ، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، إلى عاد ، يعني أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه فأهلكهم الله عز وجل .

فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم ، عن أبيه عن شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الرس بئر بأذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم ، أي دفنوه فيها .

قال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة

قلت : فإن كانوا أصحاب « يس » كما زعمه عكرمة ، فقد أهلكوا بعامة ، قال الله تعالى في قصتهم : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذا هُمْ خامِدُونَ ﴾ [1] وستأتي قصتهم بعد هؤلاء .

وإن كانوا غيرهم ، وهو الظاهر ، فقد أهلكوا أيضاً وتبّروا ، وعلى كل تقدير فينافي ماذكره ابن جرير .

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعاً ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال : إني لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ، ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لايموت أبداً ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه ، فبعث الله فيهم نبياً ، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

---

(١) سورة يسٓ الآية ٢٩ .

قال السهيلي ، وكان يوحي إليه في النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه في البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ، ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن في مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسود وصوت الضباع .

فأما ما رواه - أعني ابن جرير - عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخلون الجنة يوم القيامة العبد الأسود » وذلك أن الله تعالي بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت .

قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً . ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخري . ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم إنه ذهب إلى الحفيرة ، إلى موضعها الذي كانت فيه ، يلتمسه فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه .

قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له ما ندري ؟ حتى قبض الله النبي عليه السلام وهب الأسود من نومته بعد ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » .

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي .. والله أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه ، وقال : لايجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم وهؤلاء قد بدا لهم

فآمنوا بنبيهم . اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم .. والله أعلم .

ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف ، لما تقدم ، ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة ، إن لم يتوبوا ،ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهذا أصحاب الرس .. والله تعالى أعلم .

قصة قوم يس

وهم أصحاب القرية أصحاب « يس » قال الله تعالى : ﴿ واضربْ لَهُم مَثلاً أصْحَابَ القَرْيَةِ إذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ * إذْ أرْسَلْنَا إلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فكذَّبُوهُمَا فَعززْنَا بِثَالِثٍ فقالُوا إنَّا إلَيْكُم مُرْسلُونَ * قالُوا ما أنْتُمْ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وما أنْزلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إنْ أنْتُم إلاَّ تَكْذِبُونَ * قالُوا ربُّنا يعْلَمُ إنَّا إلَيْكُم لمُرْسَلونَ * وما علَيْنا إلاَّ البَلاغُ المبين * قالُوا إنَّا تَطيَّرنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تنْتَهُوا لنَرْجُمنَّكم ولَيمَسَّنَّكُم منَّا عَذابٌ أليمٌ * قالُوا طائِركُمْ معَكُمْ ،أئِنْ ذُكِّرْتُم ، بَلْ أنْتُم قَومٌ مُسرِفُونَ * وجاءَ مِنْ أقْصا المدِينَةِ رجُلٌ يَسْعَى قالَ ياقَوْم اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لايسْألُكُم أجْراً وهُمْ مهْتَدونَ * وماليَ لا أعْبدُ الَّذِي فَطَرَني وإلَيْهِ تُرجَعُون * أأتَّخذُ مِنْ دُونِه آلِهةً إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰن بضرٍّ لا تُغْنِ عنِّي شَفاعَتُهم شَيْئاً ولا يُنقِذُونِ * إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ * إنِّي آمنتُ بِربِّكُم فاسْمَعونِ * قِيلَ ادْخُلِ الجنَّةَ ، قالَ يالَيْتَ قَوْمي يعْلَمُونَ * بمَا غَفَر لِي ربِّي وجَعَلَني مِنَ المكْرمِينَ * وما أنْزَلنا علَى قَوْمِه مِنْ بعْده مِنْ جُندٍ مِنَ السَّماءِ وما كنَّا مُنْزلِينَ * إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدةً فإذَا هُمْ خامِدُونَ ﴾ [1] .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية « أنطاكية » رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب ابن منبه ،وكذا روى عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا : وكان لهم ملك اسمه انطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادوق ومصدوق وشلوم ، فكذبهم .

---

(١) سورة يسٓ آيات ١٣ ـ ٢٩ .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل ، وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح . وكذا قال ابن جرير ، عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي : كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ،ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جدًا ، لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت . ولهذا كانت إحدى المدني الأربع التي تكون فيها بتاركة النصاري . وهن : أنطاكية ، والقدس ، والإسكندرية ، وروميـة ، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا ، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : ﴿ إنْ كَانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدةً فإذا هُمْ خامِدُونَ ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن . بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم ، فلا يمنع هذا .. والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلاً ﴾ يعنى لقومك يامحمد ﴿ أصْحابَ القَرْيةِ ﴾ يعني المدينة ﴿ إذْ جَاءَها المرْسَلونَ * إذْ أرسَلْنا إليْهِمُ اثنَيْنِ فكذَّبُوهُما فعزَّزْنَا بثَالثٍ ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة ، ﴿ فقالُوا إنَّا إليْكُم مُرْسَلُونَ ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم ، كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبيًا بشريًا . فأجابو بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام . ﴿ ومَا عَليْنا إلاَّ البَلاغُ المبِينُ ﴾ أي إنما علينا أن نبلغكم ماأرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ قالُوا إنَّا تَطيَّرنا بكُمْ ﴾ أي تشاءمنا بما جئتمونا به . ﴿ لَئِن لَمْ تَنْتهُوا لَنرجُمَنَّكُم ﴾ قيل بالمقال ، وقيل بالفعال ، ويؤيد الأول قوله : ﴿ وليمسَّنَّكُم منَّا عذابٌ أليمٌ ﴾ توعدهم بالقتل والإهانة .

﴿ قالُوا طائِرُكُم مَعَكُم ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أئِنْ ذُكِّرتُم ﴾ أي بسبب أنا ذكرنا بالهدى ودعوناكم إليه ، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ بلْ أنتُمْ قومٌ مُسْرِفُونَ ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿ وجَاءَ مِنْ أقْصَا المدِينَةِ رَجلٌ يَسْعَى ﴾ يعنى لنصرة الرسل وإظهار الإيمان

بهم ﴿ قالَ ياقَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لايسْألُكُم أجْراً وهُمْ مهْتَدونَ ﴾ أي يـدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة .

ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لاينفع شيئـاً لا في الدنيـا ولا في الآخرة . ﴿ إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ أي إن تركت عبـادة الله وعبـدت معـه سواه .

ثم قال مخاطباً للرسل : ﴿ إنِّي آمَنْت بِربِّكُم فاسْمَعونِ ﴾ قيل : فاستمعوا مقـالتي واشهـدوا لي بها عند ربكم ، وقيل معناه : فاستمعوا ياقومي إيماني برسل الله جهرة . فعنـدْ ذلـك قتلوه ، قيل رجماً ، وقيل عضّاً ، وقيل وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه .

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قـال : وطئوه بـأرجلهم ، حتى أخرجوا قصبته .

وقـد روى الثوري عن عـاصم الأحـول ، عن أبي مجلـز : كان اسم هـذا الرجـل « حبيب بن مري » ثم قيل : كان نجاراً ، وقيل حياكاً ، وقيل إسكافـاً ، وقيل قصـاراً ، وقيل كان يتعبـد في غار هناك .. فالله أعلم .

وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ،وكان كثير الصدقة فقتله قومـه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الجنَّةَ ﴾ يعني لما قتله قومه أدخله الله الجنة ، فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿ قـالَ يـالَيْت قَـوْمِي يعْلَمُـون * بِمَـا غَفَر لِي رَبِّي وجَعَلَني مِنَ المكْرَمينَ ﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يـاقَوْم اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ ﴾ وبعـد ممـاتـه في قـولـه : ﴿ يـالَيْتَ قَـوْمِي يعْلَمُـونَ * بِمَـا غَفَر لِي رَبِّي وجَعلنِي مِنَ المُكْرمينَ ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وكذلك قال قتادة : لايلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لايلقى غاشاً ، لما عـاين مـا عـاين من كرامة الله . ﴿ يالَيْتَ قَوْمِي يعْلَمُونَ * بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وجَعلنِي مِنَ المُكْرمينَ ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه !

قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله : ﴿ إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحةً واحِـدةً فـإذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أنْزَلنَا عَلى قَوْمِه مِنْ بَعْدهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّماءِ وما كنَّـا مُنْزلِينَ ﴾ أي

وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم .

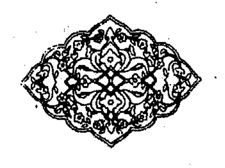
هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة : وما أنزل عليهم جنداً ، أي رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أولى .

قلت : وأقوى ، ولهذا قال : ﴿ وما كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أي وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذا هُمْ خامِدُون ﴾ .

قال المفسرون : بعث الله إليه جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون ، أي قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ، لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم . فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح .

فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقر ، عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى : يوشع بن نون ،والسابق إلى عيسى : صاحب يس ، والسابق إلى محمد : على بن أبي طالب » فإنه حديث لايثبت ، لأن حسيناً هذا متروك شيعي من الغلاة ، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية .. والله أعلم .



قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس : ﴿ فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَت فَنَفَعَها إيمانُها إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لمَّا آمنُوا كَشَفْنا عَنْهم عَذابَ الخِزْيِ في الحَيَاةِ الدُّنْيا ومَتَّعْناهُم إلى حِينٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وذَا النُّونِ إذْ ذَهبَ مُغاضِباً فَظنَّ أنْ لَنْ نَقْدر عَلَيْه فَنادَى في الظُّلماتِ أنْ لا إلَهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَك إنّي كنْتُ مِنَ الظّالِمينَ * فاسْتَجبْنا لَهُ ونجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ ، وكذَلِكَ نُنْجي المؤْمِنينَ ﴾ (٢)

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرْسَلِينَ * إذْ أبَقَ إلى الفُلْكِ المشْحُون * فسَاهَم فكان مِنَ المدْحَضِينَ * فالْتَقَمهُ الحُوتُ وهُوَ مُليمٌ * فلَوْلاَ أنّه كانَ مِنَ المسَبِّحينَ * للَبِثَ في بَطْنِه إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنبذْناهُ بالعَراء وهُوَ سَقِيمٌ * وأنْبَتْنا عَليْهِ شَجَرةً مِنْ يَقْطِينٍ * وأرْسلناهُ إلَى مِائَةِ ألفٍ أوْ يَزِيدُونَ * فآمنُوا فمتَّعْناهُم إلَى حِينٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى في سورة القلم : ﴿ فاصْبِرْ لِحُكْمِ ربِّكَ ولا تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نادَى وهُوَ مكْظُومٌ * لَوْلا أنْ تَدارَكَهُ نِعمَةٌ مِنْ ربِّهِ لَنُبِذَ بالعَراءِ وهُو مذْمُومٌ * فاجْتباهُ ربُّه فَجَعلَهُ مِنَ الصّالِحِينَ ﴾ (٤) .

قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل « نينوي » من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة ، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم ، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات ، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي . فرغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة .

(١) سورة يونس الآية ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء آيتا ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) سورة الصافات آيات ١٣٩ ـ ١٤٨ .

(٤) سورة القلم آيات ٤٨ ـ ٥٠

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته ، عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ،ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمنَتْ فَنفَعها إيمانُها ﴾ [1] أي هلا وجدت فيا سلف من القرون قرية،آمنت بكاملها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كا قال تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إلاّ قالَ مُترفُوها إنّا بِمَا أُرْسِلتُم بهِ كافِرُون ﴾ [2] وقوله : ﴿ إلاّ قَوْمَ يُونسَ لمّا آمنُوا كَشفنا عَنْهم عَذاب الخِزْي في الحَياةِ الدُّنْيا ومتّعناهُم إلى حِينٍ ﴾ [1] أي آمنوا بكاملهم .

وقد اختلف المفسرون : هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة ، فينقذهم من العذاب الأخروى كا أنقذهم من العذاب الدنيوي ؟ على قولين :

الأظهر من السياق : نعم . والله أعلم . كا قال تعالى : ﴿ لمّا آمَنُوا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأرْسَلناهُ إلَى مائَةِ ألفٍ أوْ يَزيدُون * فآمنُوا فمتّعناهُمْ إلَى حِينٍ ﴾ [3] وهذا المتاع إلى حين لاينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي .. والله أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لا محالة . واختلفوا في الزيادة : فعن مكحول عشرة آلاف . وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية : حدثني أبي بن كعب ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وأرْسَلناهُ إلَى مائَةِ ألفٍ أوْ يَزيدُونَ ﴾ قال : « يزيدون عشرين ألفاً » فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وعنه : وبضعة وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً .

واختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ على ثلاثة أقوال : هي مبسوطة في التفسير .

---

(١) سورة يونس الآية ٩٨ .

(٢) سورة سبأ الآية ٣٤ .

(٣) الصافات الآية ١٤٧ ، ١٤٨

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب، قومه ، ركب سفينة في البحر فلجت بهم ، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون على ماذكره المفسرون .

قالوا : فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه .

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً ، لما يريده الله به من الأمر العظيم .

قال الله تعالى : ﴿ وإنَّ يونُسَ لمِنَ المرْسَلينَ * إذْ أبقَ إلى الفُلْكِ المشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكانَ مِنَ المدْحَضينَ * فالْتَقَمَهُ الحوتَ وهُوَ مُليمٌ ﴾ [1] . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقى في البحر . ويعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحماً ولايهشم له عظماً فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها . وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه .

قالوا : ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات ، فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال : يارب .. اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه ، فقال مجاهد عن الشعبي : التقمه ضحىً ولفظه عشية ،وقال قتادة : فمكث فيه ثلاثاً ، وقال جعفر الصادق : سبعة أيام . ويشهد له شعر أمية ابن أبي الصلت :

وأنت بفضل منك نجيت يونساً   وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك : مكث في جوفة أربعين يوماً .. والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

---

(١) سورة الصافات آيات ١٣٩ ـ ١٤٢

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي [١] ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى ، فعند ذلك وهنالك ، قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال . الذي يعلم السر والنجوي ، ويكشف الضر والبلوى ، سمع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ،ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : ﴿ وذَا النُّونِ إذْ ذَهبَ ﴾ أي إلي أهله ﴿ مُغاضِباً فَظنّ أنْ لَنْ نَقْدر عَليْه فَنادَى في الظُّلماتِ أنْ لا إلَهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ * فاسْتَجبنَا لَهُ ونَجّيْناهُ مِنَ الغَمّ ، وكَذلِكَ نُنْجي المؤْمِنينَ ﴾ [١] ﴿ فَظنّ أنْ لَنْ نَقْدرَ عَليْهِ ﴾ أن نضيق عليه .وقيل معناه : نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة ، قَدرَ وقَدّرَ كما قال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى   تباركت ، ماتقدر يكن ، فلك الأمر

* فَنادَى في الظُّلماتِ ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد ابن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

وقال سالم بن أبي الجعد : ابتلع الحوت حوت آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أنّه كانَ مِنَ المسَبّحِينَ * لَلبِثَ في بَطْنِه إلَى يَوْم يُبْعثُون ﴾ [٢]. قيل معنا فلولا أنه سبح الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ،والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت . وهذا معنى ماروى عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه .

وقيل معناه : ﴿ فَلَوْلا أنّه كانَ ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ مِنَ المسَبّحِينَ ﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً ، قاله الضحاك ابن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

ويشهد لهذا ماروا‌ه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس.أن رسول الله ﷺ قال

---

(٢) سورة الأنبياء آيتا ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) سورة الصافات آيتا ١٤٣ ، ١٤٤ .

له : « ياغلام .. إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

وروى ابن جرير في تفسيره ، والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق ، عمن حدثه ، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً . فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسًّا ، فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : فسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يارينا .. إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ! قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر . قالوا : العبد الصالح ، الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله : ﴿ وهُوَ سَقِيمٌ ﴾ .

هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً . ثم قال البزار : لانعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . كذا قال

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي وهب ، حدثنا عمي ، حدثني أبو صخر ، أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول : « إن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهي في بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقال الملائكة : يارب .. صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال : أما تعرفون ذاك ؟ فقالوا : لا يارب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس . قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا : يارينا .. أولا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحه في العراء » .

ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به .

زاد ابن أبي حاتم : قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث ، أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا : يا أبا

هريرة .. وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء ، قال أبو هريرة : وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض ، أو قال : هشاش الأرض ، قال : فتفسخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت .

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره .

فأنبت يقطيناً عليه برحمة | من الله لولا الله أصبح ضاويا

وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه . ويزيد الرقاشي ضعيف ، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم ، كما يتقوى ذاك بهذا .. والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ فنبذناه ﴾ أي ألقيناه ﴿ بالعراء ﴾ وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار ، بل هو عار منها ، ﴿ وهو سقيم ﴾ أي ضعيف البدن . قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش ، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد : كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوش ليس عليه شيء .

﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد ابن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاووس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد : هو القرع .

قال بعض العلماء : في إنبات القرع عليه حكم جمة ، منها أن ورقه في غاية النعومة ، وكثير وظليل ، ولا يقربه ذباب ، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره ، نيًّا ومطبوخاً ، ويقشره وببزره أيضاً . وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك .

وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية ، وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه . ولهذا قال تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا يحي بن صالح ، حدثنا أبو يحي ابن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب

قال :سمعت سعد بن مالك ـ وهو ابن أبي وقاص ـ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . دعوة يونس بن متى » قال : فقلت : يارسول الله .. هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] فهو شرط من الله لمن دعاه به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد ، عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب ـ يعني ابن سعد ـ عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » قال أبو سعيد الأشج : يريد به : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وهذان طريقان عن سعد .

وثالث أحسن منهما : وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد ، عن أبيه سعد ـ وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه ـ قال : مررتُ بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : ياأمير المؤمنين .. هل حدث في الإسلام شيء ؟ قال : لا . وما ذاك ؟ قلت : لا ، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : مامنعك ألا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى ، حتى حلف وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ،وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبئك بها ، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ؟ أبو إسحاق ؟ » قال : قلت : نعم يارسول الله ، قال : « مه » ؟ قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال : « نعم .. دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له »

(١) سورة الأنبياء آيتا ٨٧ ، ٨٨ .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به .

فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإنَّ يُونُس لِمنَ المرْسَلِينَ ﴾ [1] وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لاينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي العالية عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ، ونسبه إلى أبيه » .

ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به ، قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث ، وهذا أحدها .

وقد رواه الإمام أحمد عن عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يونس بن مهران ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى » . تفرد به أحمد .

وراه الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، أنبأنا إسرائيل ، عن أبي يحيى العتاب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لاينبغي لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى » . إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، عن سعد ابن إبراهيم ، سمعت حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لاينبغي لعبد أن يقول أنا خير من

---

(١) سورة الصافات الآية ١٣٩ .

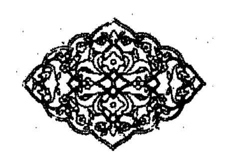
يونس بن متى » . وكذا رواه مسلم من حديث شعبة بن .

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهوديّ حين قال : لا والذي اصطفى موسى على العالمين .

قال البخاري في آخره-: « ... ولا أقول : إن أحداً أفضل من يونس بن متى » وهذا اللفظ يقوى أحد القولين من المعنى : « لاينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس .

والقول الآخر : لاينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى . كما قد ورد في بعض الأحاديث : « لاتفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى »

وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .



موسى عليه السلام

- هارون عليه السلام
- الخضر عليه السلام
- يوشع بن نون



وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى : ﴿ واذْكُر في الكِتابِ مُوسَى ، إنَّـهُ كانَ مُخْلصاً وكانَ رسُولاً نَبيًّا * وناديْناهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأيْمَنِ وقَرَّبناهُ نَجيًّا * ووَهبْنا لَهُ مِنْ رَحْمتِنا أخاهُ هارُونَ نَبيًّا ﴾ [1] .

وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن . وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة وغير مطولة . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وماورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات الذي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى : ﴿ بسمِ الله الرحمن الرحيم * طسم * تلْكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ * نَتْلُوا عَليكَ مِنْ نَبأِ مُوسَى وفِرْعَونَ بالحَقِّ لِقَومٍ يُؤْمِنونَ * إنَّ فِرْعَونَ علاَ في الأرْضِ وجَعَلَ أهْلَها شِيَعاً يَسْتضعِفُ طائِفةً مِنْهُم يُذبِّحُ أبْناءَهُم ويسْتَحيِي نِساءَهُم ، إنَّه كانَ مِنَ المُفْسِدينَ * ونُريدُ أنْ نَمنَّ علَى الذِينَ اسْتُضعِفُوا في الأرْضِ ونَجْعلَهمْ أئِمَّةً ونَجْعلهُمُ الوارِثِينَ * ونُمكِّنَ لَهمْ في الأرْضِ ونُرِيَ فِرْعونَ وهَامانَ وجُنُودَهُما مِنْهُم ما كانُوا يحذَرُونَ ﴾ [2] .

يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق ، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له .

﴿ إنَّ فِرْعونَ علاَ في الأرْضِ وجَعَلَ أهْلَها شِيَعاً ﴾ أي تجبر وعتا وطغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى . وجعل أهلها شيعاً ، أي قسم رعيته إلى أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله . وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض . وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذبِّحُ أبْناءَهُم ويسْتَحيِي نِساءَهُم إنَّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدينَ ﴾ .

---

(١) سورة مريم آيات ٥١ ـ ٥٣ .

(٢) سورة القصص آيات ١ ـ ٦ .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ، وذلك ـ والله أعلم ـ حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل ، حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يغني حذر من قدر !

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه ، كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة ، وسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي الذين يئول ملك مصر وبلادها إليهم : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ أي سنجعل الضعيف قويًا والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً ، وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [1] الآية وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [2] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ألا يوجد موسى ، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٧

(٢) سورة الشعراء آيات ٥٧ ـ ٥٩ .

وعند أهل الكتاب : أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان ، لتضعف شوكة بني إسرائيل ، فلا يقاوموهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم .

وهذا فيه نظر ، بل هو باطل . وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فلمّا جَاءهُم بالحَقّ مِنْ عِندنا قالُوا اقْتلُوا أبناءَ الّذينَ آمنُوا مَعهُ واسْتَحْيوا نِساءَهُمْ ﴾ [1] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ أوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تأتِيَنا ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا ﴾ [2] .

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذراً من وجود موسى .

هذا ، والقدر يقول : يا أيهذا الملك الجبار ، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لايغالب ولا يمانع ، ولا تخالف أقداره ، إن هذا المولود الذي تحترز منه ،وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذي إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشيئة التي لامرد لها !

وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ،وخشي أن تتفاني الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً واحترزت من أول ماحبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل . فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتاً ، فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به .

قال الله تعالى : ﴿ وأوْحَينَا إلى أمّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيه ، فإذَا خِفْتِ عَليهِ فألْقيه في اليمّ ولا

---

(١) سورة غافر الآية ٢٥ . (٢) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .

تخافِي ولا تَحزنِي ، إنَّا رَادُّوهُ إليكِ وجَاعِلُوه مِنَ المرْسَلِينَ * فالْتقَطهُ آلُ فِرْعونَ ليَكُونَ لَهمْ عَدوًّا وحَزَناً ، إنَّ فِرْعَونَ وهَامانَ وجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ * وَقالت امْرأةُ فِرْعَونَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولكَ ، لا تَقْتلوهُ عَسَى أنْ ينفَعنا أوْ نتَّخذهُ ولداً وهُمْ لايشْعُرونَ ﴾ [1] .

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : ﴿ وأوْحَى ربُّكَ إلَى النَّحل أن اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يعْرِشُونَ * ثمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ فاسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُللاً ، يَخرجُ مِنْ بُطُونِها .. ﴾ [2] . الآية . وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلي : واسم أم موسى « أيارخا » وقيل ، « أياذخت » المقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وألقى في خلدها وروعها ألا تخافي ولا تحزني ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيجعله نبيًّا مرسلاً ، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ فالْتقَطهُ آلُ فِرْعَونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لِيكُونَ لَهُم عَدوًّا وحَزَناً ﴾ قال بعضهم : هذه (لام) العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله : ﴿ فالْتقَطَه ﴾ وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوًّا وحزناً ، وصارت اللام معللة كغيرها . والله أعلم . ويقوى هذا التقدير الثاني قوله : ﴿ إنَّ فِرْعَونَ وهَامانَ ﴾ وهو الوزير السوء ﴿ وجُنُودَهما ﴾ التابعين لهما ﴿ كانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أي كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون : أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون « آسية » بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد ، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف ، وقيل إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى . وقيل بل كانت عمته ، حكاه السهيلي .. فالله أعلم .

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران ، وأنها يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة .

فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب ، ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة

(١) سورة القصص آيات ٧ ـ ٩ .
(٢) سورة النحل آيتا ٦٨ ، ٦٩ .

الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً جداً فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكَ ﴾ فقال لها فرعون : أما لك فنعم وأما لي فلا - أي لا حاجة لي به . والبلاء موكل بالمنطق !

وقولها : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا ﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ وذلك أنها تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لها ولد ، قال الله تعالى : ﴿ وهُمْ لايَشْعُرونَ ﴾ أي لايدرون ماذا يريد الله بهم ، أن قيضهم لالتقاطه ، من النقمة العظية بفرعون وجنوده ؟

وعند أهل الكتاب أن التي التقطت موسى « دربته » ابنة فرعون وليس لامرأته ذكر بالكلية وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل .

وقال الله تعالى : ﴿ وأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً ، إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلَى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ * وقالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وهُمْ لايَشْعُرُونَ * وحَرَّمْنا عَلَيهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُم وهُمْ لَهُ ناصِحُونَ * فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ ، ولِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولكِنَّ أَكْثَرَهُم لايَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ وأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً ﴾ أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . ﴿ وإِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلَى قَلْبِها ﴾ أي صبرناها وثبتناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ * وقالَتْ لأُخْتِهِ ﴾ وهي ابنتها الكبيرة : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره ، واطلبي لي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ قال مجاهد : عن بعد . وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لاتريده . ولهذا قال : ﴿ وهُمْ لايَشْعُرونَ ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ، كما قال تعالى : ﴿ وحَرَّمْنا عَلَيهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته . فبينما هم وقوف به والنساء عكوف عليه إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها

(١) سورة القصص آيات ١٠ ـ ١٣ .

تعرفه بل قالت : ﴿ هَلْ أدلُّكُم عَلى أهْلِ بيْتٍ يَكْفلونهُ لكُم وهُم لَهُ ناصِحُونَ ﴾ ؟ قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته .

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى « آسية » يعلمها بذلك ، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها . فأبت عليها وقالت إن لي بعلاً وأولاداً ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي . فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى : ﴿ فَرددْناهُ إلى أمِّهِ كَيْ تَقرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ ، ولِتَعلَمَ أنْ وعْدَ اللهِ حقٌّ ﴾ أي كما وعدها برده ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته . ﴿ ولكنَّ أكْثرَهُم لايعْلَمونَ ﴾ .

وقد امتن على موسى بهذا ليلة كلمه ، فقال له فيما قال : ﴿ ولَقدْ مننَّا عليكَ مرَّةً أخْرَى * إذْ أوْحَينا إلى أُمِّكَ ما يُوحَى * أن اقْذِفيهِ في التَّابُوت فاقْذِفيهِ في اليمِّ فَلْيلقهِ اليمُّ بالسَّاحِل يأخذهُ عدوٌّ لِي وعَدوٌّ لهُ ، وألقيتُ عَليكَ محبّةً منِّي ﴾ [1] وذلك أنه كان يراه أحد إلا أحبه ﴿ ولتُصْنعَ عَلى عَيْني ﴾ [1] قال قتادة وغير واحد من السلف : أي تطعم وترفه وتغذي بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني ، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك ،وقدرته من الأمور التي لايقدر عليها غيري . ﴿ إذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فتَقُولُ هَل أدلُّكُم عَلى مَنْ يكْفُلُه ، فَرجَعْناكَ إلَى أُمِّكَ كَيْ تَقرَّ عينُها ولاتَحزَنَ ، وقَتلْتَ نَفساً فَنَجّيناكَ منَ الغَمِّ وفَتنَّاك فُتُوناً ﴾ [2] وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

﴿ ولمَّا بَلغَ أشُدَّه واسْتَوى آتيْناهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكَذلِكَ نَجْزِي المُحسِنينَ * ودَخلَ المدينَةَ عَلى حينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهْلهَا فَوجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يقْتَتلانِ هَذا مِنْ شِيعَتهِ وهَذا مِنْ عَدوِّه فاسْتَغاثَهُ الّذي مِنْ شيعتِه عَلَى الّذي مِنْ عدوِّه فوَكزهُ مُوسَى فَقَضي عَليْه ، قالَ هَذا مِنْ عَمَل

(١) سورة طه الآيات ٣٧ ـ ٣٩ .

(٢) سورة طه الآية ٤٠ .

الشَّيْطان ، إنهُ عدوٌّ مُضلٌّ مُبينٌ * قالَ ربِّ إنِّي ظلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِر لِي فغفَر لهُ ، إنَّهُ هُو الغفُور الرَّحيمُ * قالَ ربِّ بِمَا أنْعمْتَ عليَّ فلنْ أكُونَ ظَهِيراً للمُجْرِمِينَ ﴾ [1] .

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها ، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ،وهو احتكام الخَلْق والخُلق ، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وهو النبوة والراسلة التي كان بشر بها أمه حين قال : ﴿ إنَّا رَادُّوه إليكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ .

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله له ، وإكرامه بما أكرمه به ، كما سيأتي .

قال تعالى : ﴿ ودَخل المدينَةَ علَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِها ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشائين .

﴿ فوَجَدَ فِيهِا رَجُلَيْن يقْتَتِلانِ ﴾ أي يتضاربان ويتهارشان ﴿ هٰذا مِنْ شِيعَتِه ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهٰذا مِنْ عَدُوه ﴾ أي قبطي . قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق .

﴿ فاستَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِه علَى الَّذِي مِنْ عَدوِّه ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه ،وهم أخواله ـ أي من الرضاعة ـ فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فوَكزَهُ ﴾ قال مجاهد : أي طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : بعصاً كانت معه ، ﴿ فقَضى عَلَيْهِ ﴾ أي فمات منها .

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ، ولم يرد موسى قتله بالكلية ،وإنما أراد زجره وردعه ، ومع هذا ﴿ قالَ ﴾ موسى : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إنهُ عدوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ * قالَ ربِّ إنِّي ظلمْتُ نَفْسِي فاغفِر لِي فَغَفَر لهُ ، إنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ * قالَ ربِّ بِمَا أنْعمْتَ عليَّ ﴾ أي من العز والجاه ﴿ فلَنْ أكُونَ ظَهِيراً للمُجْرِمينَ ﴾ .

---

(1) سورة القصص : ١٤ ـ ١٧ .

﴿ فأصْبَحَ في المدينَة خائِفاً يترقَّبُ فإذا الَّذي استَنصرَهُ بالأمْسِ يسْتَصْرِخُهُ ، قالَ لهُ موسَى إنَّك لغويٌّ مُبينٌ * فلمَّا أنْ أرادَ أنْ يَبْطُشَ بالَّذي هُو عدوٌّ لهُمَا قالَ ياموسَى أتُريدُ أنْ تقْتلَني كَمَا قتلتَ نفساً بالأمْس ، إنْ تُريدُ إلاَّ أنْ تكونَ جبَّاراً في الأرْضِ وما تُريدُ أنْ تكونَ مِنَ المصْلِحينَ * وجاءَ رجُلٌ مِنْ أقْصا المدينَةِ يسْعَى قالَ ياموسَى إنَّ الملأَ يأْتَمِرُونَ بكَ ليقْتلُوك فاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحينَ * فخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَترقَّبُ ، قالَ ربِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظَّالمينَ ﴾ [1] .

يخبر تعالى أنّ موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ـ أي من فرعون ومَلَئه ـ أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم .

فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خائفاً يترقَّبُ ﴾ أي يتلفت ، فبينما هو كذلك ، إذ ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته ، قال له : ﴿ إنَّكَ لغويٌّ مُبينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي ، فيردعه عنه ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿ قالَ ياموسَى أتُريدُ أنْ تقْتلني كَما قتلْتَ نفساً بالأمْسِ ، إنْ تُريدُ إلاَّ أنْ تكونَ جبَّاراً في الأرْضِ وما تُريدُ أنْ تكونَ مِنَ المصْلِحينَ ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ماصنع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه ، لما عنفه قبل ذلك بقوله : ﴿ إنَّكَ لَغويٌّ مُبينٌ ﴾ فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس . فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل أن قائل هذه هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي . فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه مادله على هذا .. والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب . ﴿ وجَاءَ رجُلٌ مِنْ أقْصَا المدينَة ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه

---

(١) سورة القصص آيات ١٨ ـ ٢١ .

فقال : ﴿ ياموسَى إنَّ الملأ يأتمِرونَ بِك ليقْتلُوكَ فاخْرُجْ ﴾ أي من هذه البلدة ﴿ إنّي لكَ مِنَ النَّاصِحينَ ﴾ أي فيما أقوله لك .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرجَ منْهَا خائِفاً يتَرقَّبُ ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لايهتدي إلى طريق ولا يعرفه ، قائلا : ﴿ ربِّ نَجني مِنَ القَوْم الظَّالمِينَ * ولما توجَّهَ تِلْقاءَ مَدْينَ قالَ عَسَى رَبّي أنْ يهْدِيَني سَواءَ السَّبِيل * ولمَّا وَرَدَ ماءَ مدْيَن وجَدَ عَليهِ أمةً مِنَ النَّاس يَسْقُونَ ووَجَد مِنْ دُونِهِم امْرأتينِ تَذُودان ، قالَ ما خطبكُما ، قالَتَا لا نَسْقِي حتَّى يُصْدرَ الرِّعاءُ ، وأبُونَا شَيْخٌ كبيرٌ * فسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تولَّى إلَى الظلِّ فقالَ ربِّ إنِّي لِمَا أنْزلتَ إليّ مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ ﴾ [(1)] .

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقب ، أي يتلفت ، وخشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لايدري أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها .

﴿ ولمَّا تَوجَّه تِلْقاءَ مَدْينَ ﴾ أي اتجه له طريق يذهب فيه ، ﴿ قالَ عَسَى رَبِّي أنْ يَهْدِيَني سَواءَ السَّبِيلِ ﴾ أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود .

﴿ ولمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْينَ ﴾ وكانت بئراً يسقون منها ، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ،وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء .

ولما ورد الماء المذكور ﴿ وجَدَ عَليهِ أُمةً مِنَ النَّاس يَسْقُونَ ووَجَد مِنْ دُونِهِم امْرأتين تَذُودان ﴾ أي تكفكفان عنهما غنمها أن تختلط بغنم الناس .

وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعلهن كن سبعاً ، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن ، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين ﴿ قالَ ما خَطبكُمَا ، قالَتَا لا نَسْقِي حتَّى يُصْدرَ الرِّعاءُ ، وأبُونَا شَيْخٌ

---

(1) سورة القصص آيات ٢١ ـ ٢٤ .

كبيرٌ ﴾ أي لانقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى : ﴿ فسقى لهما ﴾ .

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان . قال أمير المؤمنين عمر : وكان لايرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما .

ثم تولى إلى الظل ، قالوا : وكان ظل شجرة من السمر وروى ابن جرير عن ابن مسعود ، أنه رآها خضراء ترف ﴿ فقال ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ .

قال ابن عباس : سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة .

قال عطاء بن السائب لما قال : ﴿ رَبِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ أسمع المرأة .

﴿ فجاءَتْه إحداهُما تمشي على استحياءٍ قالتْ إن أبي يدعُوكَ ليجزِيكَ أجْرَ ما سَقَيتَ لنا ، فلمَّا جاءَهُ وقصَّ عليه القَصصَ قالَ لا تخفْ ، نَجَوتَ مِنَ القَومِ الظَّالمينَ * قالَتْ إحداهُما يا أبتِ استأجرْه ، إنَّ خيْرَ مَنِ استأجرْتَ القَويُّ الأمينُ * قالَ إنِّي أُريدُ أنْ أنكحكَ إحْدَى ابْنتيَّ هاتَيْنِ عَلَى أنْ تأجُرَني ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فإنْ أتْممتَ عَشْراً فَمِن عِندكَ ، وما أُريدُ أنْ أشُقَّ عَليكَ ، ستَجدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالحينَ * قالَ ذلكَ بَيْني وبَيْنكَ ، أيَّما الأجليْنِ قَضيْتَ فَلا عُدْوان عَليَّ ، واللهُ على ما نقُولُ وَكيلٌ ﴾ (١)

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال : ﴿ ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما فيقال : إنه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام . فأمر إحداهما ، أن تذهب إليه فتدعوه : ﴿ فجاءتْهُ إحْداهُما تَمْشي على استِحياءٍ ﴾ أي مشي الحرائر ، ﴿ قالَتْ إنَّ أبي يدعُوك ليجزِيكَ أجْرَ ما سقيتَ لنَا ﴾ صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة . وهذا من تمام حيائها وصيانتها : ﴿ فلمَّا جاءَهُ وقصَّ

(١) سورة القصص آيات ٢٥ - ٢٨ .

عليْهِ القَصَص ﴾ وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها .

﴿ قالَ ﴾ له ذلك الشيخ : ﴿ لاتَخفْ نَجوْتَ مِنَ القَوم الظَّالمِينَ ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس ، وجاء مصرحاً به في حديث ،ولكن في إسناده نظر .

وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته .

وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري : أن صاحب موسى عليه السلام هذا ، اسمه شعيب ،وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين . وقيل : إنه ابن أخي شعيب ، وقيل : ابن عمه ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل : رجل اسمه « يثرون » هكذا هو في كتب أهل الكتاب ، يثرون كاهن مدين . أي كبيرها وعالمها .

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله : اسمه يثرون . زاد أبو عبيدة : وهو ابن أخي شعيب . وزاد ابن عباس : صاحب مدين .

والمقصود : أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ﴿ يا أَبتِ اسْتَأْجِرهُ ﴾ أي لرعي غنمك ، ثم مدحته بأنه قوي أمين .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقال : إنه رفع صخرة لايطيق رفعها إلا عشرة ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته : ﴿ أكْرِمي مَثْواهُ ﴾ وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ ياأبتِ اسْتَأجِرهُ ، إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأجَرْتَ القَويُّ الأَمِينُ ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

﴿ قالَ إنّي أُريدُ أنْ أنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتيَّ هاتَيْنِ عَلَى أنْ تَأْجُرَني ثَمانِيَ حِجَج ، فإنْ

أتممتَ عَشْراً فَمِن عِندكَ ، وما أُريدُ أنْ أشقّ عَليكَ ، سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصّالحينَ ﴾ .

استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله ، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك ، أن يصح ، لقوله : ﴿ إحْدَى ابْنتيَّ هَاتَيْنِ ﴾ .

وفي هذا نظر ، لأن هذه مراوضة لامعاقدة .. والله أعلم .

واستدل أصحاب أحمد على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة ، كما جرت به العادة ، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه مترجماً عليه في كتابه : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » حدثنا محمد بن المصفى الحمصي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مسلمة بن على ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن رباح قال : سمعت عتبة ابن الندر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ : ﴿ طسٓمٓ ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى ، قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين - أو عشر سنين - على عفة فرجه وطعام بطنه » .

وهذا الحديث من هذا الوجه لايصح ، لأن مسلمة بن على الخشني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لايحتج بتفرده ، ولكن قد روى من وجه آخر ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحي بن عبد الله بن بكر ، حدثني أبن لهيعة . ح . وحدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن على بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة بن الندر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلكَ بَيْني وبَيْنك ، أيّما الأجَلَيْن قَضَيتَ فلاَ عُدْوانَ عليّ ، واللهُ علَى ما نَقُولُ وَكيلٌ ﴾ يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ماقلت ، فأيها قضيت فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع وشاهد ، ووكيل عليّ وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمها وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضي موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، أن رسول الله إذا قال فعل .

تفرد به البخاري من هذا الوجه ، وقد رواه النسائي في حديث الفتون ، كما سيأتي من

طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير به .

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطوسي ، وابن أبي حاتم . عن أبيه . كلاهما عن الحميدي ، عن سفيان بن عيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل أي الأجلين قضي موسى ؟ قال : أتمها وأكملها » .

وإبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث . وقد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن أعين ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره .

وقد رواه سنيد عن حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مرسلاً .

أن رسول الله سأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل ، فسأل إسرافيل الرب عز وجل فقال : « أبرهما وأوفاهما » .

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرج مرسلاً .

ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب ، أن رسول الله ﷺ سئل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأتمهما » .

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران الجوني ،وهو ضعيف ، عن أبيه عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر ، أن رسول الله ﷺ سئل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما » قال : « وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقال الصغرى منهما » .

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن على بن رباح ، عن عتبة بن الندر ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه وطعام بطنه » فلما وفي الأجل قيل : يارسول الله .. أي الأجلين ؟ قال : « أبرهما وأوفاهما » .

فلما أراد فراق شعيب ـ سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه ، من قالب لون من ولد ذلك العام ،وكانت غنمه سوداء حساناً ،

فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ثم وضعهما في أدنى الحوض ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض ، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة ، قال : « فأتأمت وألبنت » ووضعت كلها في قوالب ألوان ، إلا شاة أو شاتين ، ليس فيها فشوش ، ولا ضبوب ، ولا عزوز ، ولا ثعول ، ولا كموش تفوت الكف . قال النبي ﷺ : « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية » .

قال ابن لهيعة : « الفشوش : واسعة الشخب ، والضبوب : طويلة الضرع تجره . والعزوز : ضيقة الشخب . والثعول : الصغيرة الضرع كالحلمتين ، والكموش : التي لايحكم الكف على ضرعها لصغره » .

وفي صحة رفع هذا الحديث نظر . وقد يكون موقوفاً كما قال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : « لما دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها ، فعمد موسى فوضع حبالا على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقاً إلا شاة واحدة ، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام » وهذا إسناد جيد رجاله ثقات .. والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حين فارق خاله « لابان » أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقاً ، ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام .. فالله أعلم .

قال الله : ﴿ فلمَّا قَضَى مُوسىَ الأجَلَ وسارَ بأهْلِه آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّور ناراً قالَ لأهْلِه امْكثوا إنّي آنَستُ ناراً لَعَلّي آتيكم مِنْها بَخبَرٍ أوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّارِ لَعلَّكُم تصْطَلُونَ * فلمَّا آتاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِي الأيْمنِ في البُقْعةِ المبَارَكَةِ مِنَ الشَّجرةِ أنْ يامُوسَى إنّي أنا اللهُ ربُّ العَالَمِينَ * وأنْ ألْقِ عَصاكَ ، فلمَّا رَآها تَهتزُّ كأنَّها جانٌّ ولَّى مُدبِراً ولَمْ يُعقِّبْ ، يامُوسَى أقْبِل ولا تَخَفْ ، إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ * اسْلُك يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إليكَ جَنَاحَك مِنَ الرَّهْبِ ، فَذانِكَ بُرْهانَانِ مِنْ ربِّكَ إلَى فِرْعَونَ ومَلَئِه ، إنَّهمْ كانُوا قَوماً فاسِقِينَ ﴾ [1] .

---

(١) سورة القصص آيات ٢٩ ـ ٣٢ .

تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملها ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ فلمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ وعن مجاهد : أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها .

وقوله : ﴿ وسَارَ بأَهْلِهِ ﴾ أي من عند صهره ، زاعماً - فيا ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم - أنه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف . فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه .

قالوا : واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة ، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف ، وجعل يورى زناده فلا يورى شيئاً ، واشتد الظلام والبرد .

فبينا هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فـ ﴿ قالَ لأَهْلِهِ امْكثُوا إنِّي آنَسْتُ ناراً ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم ، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتَها لكل أحد : ﴿ لَعلّي آتِيكُم مِنْها بَخَبرٍ ﴾ أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق : ﴿ أوْ جَذْوةٍ مِنَ النَّارِ لعلَّكُم تَصْطَلُونَ ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة ، لقوله في الآية الأخرى : ﴿ وهَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إذْ رَأَى ناراً فَقالَ لأَهْلِه امْكثُوا إنّي آنَسْت ناراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْها بقَبسٍ أوْ أجِدُ عَلَى النَّارِ هُدَى ﴾ [١] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق ،وجمع الكل في سورة النمل في قوله : ﴿ إذْ قالَ مُوسَى لأَهْلِه إنِّي آنسْتُ ناراً سَآتِيكُم مِنْها بِخَبرٍ أوْ آتِيكُم بشِهابٍ قَبَسٍ لَعلَّكُم تَصْطَلونَ ﴾ [٢] وقد أتاهم بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدًى وأي هدًى ، واقتبس منها نوراً وأي نور ؟!

قال الله تعالى : ﴿ فلمَّا آتاهَا نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الوادِي الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المبارَكةِ مِنَ الشَّجَرةِ أنْ ياموسَى إنِّي أنَا اللهُ ربُّ العَالَمينَ ﴾ .

وقال في النمل : ﴿ فَلمَّا جاءَها نُودِي أنْ بُورِكَ مَنْ في النَّارِ ومَنْ حَوْلَها وسُبْحان اللهِ رَبِّ العَالَمينَ ﴾ [٣] أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ ياموسَى إنَّهُ أنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكيمُ ﴾ [٤]

---

(١) سورة طه آيتا ٩ ، ١٠ .
(٢) سورة النمل الآية ٧ .
(٣) سورة النمل الآية ٨ .
(٤) سورة النمل الآية ٩ .

وقال في سورة طه : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [1] .

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها ، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الضجرة في ازدياد . فوقف متعجباً ، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الأَمْرَ وما كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [2] وكان موسى في واد اسمه « طوى » فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوي ، فأمر أولا بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب : أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور ، مهابة له وخوفاً على بصره .

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له : ﴿ إِنِّي أنا اللهُ ربُّ العَالَمِينَ ﴾ [3] ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [4] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو ، الذي لاتصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له .

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التي لابد من كونها ووجودها : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ أي من خير وشر ،وحضه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لايؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه . ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء ، والذي يقول للشيء كن فيكون : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [5] أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها ؟ ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ [6] أي بلى هذه عصاي التي أعرفها وأتحققها ،

---

(١) سورة طه آيات ١١ ـ ١٦ .
(٢) سورة القصص الآية ٤٤ .
(٣) سورة القصص الآية ٣٠ .
(٤) سورة طه الآية ١٤ .
(٥) سورة طه الآية ١٧ .
(٦) سورة طه الآية ١٨ .

﴿ قالَ أَلْقِها يامُوسَى * فأَلْقاها فإذا هي حيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [1] .

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الـذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب : أنه سأل برهاناً صادقاً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التي في يدك ؟ قال : عصاي ، قال : ألقها إلى الأرض ﴿ فأَلْقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ فهرب موسى من قدامها ، فأمر الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخري : ﴿ وأَنْ أَلْقِ عصاكَ ، فلمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كأنَّها جانٌّ ولَّى مُدْبِراً ولَمْ يُعقِّبْ ﴾ [2] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات يقال له : الجان والجنان ، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًّا ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة . فلما عاينها موسى عليه السلام : ﴿ وَلَّى مُدْبِراً ﴾ أي هارباً منها ، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿ ولَمْ يُعقِّبْ ﴾ أي ولم يلتفت ، فناداه ربُّه قائلاً له : ﴿ يامُوسَى أَقْبِل ولا تَخَفْ ، إنَّك مِنَ الآمِنينَ ﴾ .

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿ قال خُذْها ولا تَخَفْ ، سَنُعِيدُها سِيرَتَها الأُولَى ﴾ [3] فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده في كم مدرعته ، ثم وضع يده في وسط فمها . وعند أهل الكتاب : أمسك بذنبها ، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين ، فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين !

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء ، أي من غير برص ولا بهق ، ولهذا قال : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إليكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ [4] قيل معناه : إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك .

وهذا وإن كان خاصًّا به ، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على

---

(1) سورة طه آيتا ١٩، ٢٠

(2) سورة القصص الآية ٣١ .

(3) سورة طه الآية ٢١ .

(4) سورة القصص الآية ٣٢

وجه الاقتداء بالأنبياء .

وقال في سورة النمل : ﴿ وأدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، في تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ ، إنَّهمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ﴾ [1] أي هاتان الآيتان وهما : العصا واليد ، هما البرهانان المشار إليهما في قوله : ﴿ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ ربِّكَ إلى فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ ، إنَّهمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ﴾ [2] ومع ذلك سبع آيات أخر . فبذلك تسع آيات بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان ، حيث قال تعالى : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ بيِّناتٍ ، فاسْأَلْ بَنِي إسْرائيلَ إذْ جاءَهُمْ فقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَى مَسْحُوراً * قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أنْزَلَ هَؤُلاءِ إلاّ ربُّ السَّمواتِ والأرْضِ بَصائِرَ وإنِّي لأظُنُّكَ يافِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾[3] .

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله : ﴿ ولَقَدْ أخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِنَ الثَّمراتِ لَعلَّهم يذَّكَّرُونَ * فإذا جاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ ، وإنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بمُوسَى ومَنْ مَعَهُ ، ألاَ إنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ ولكنَّ أكْثَرَهُم لايعْلَمونَ * وقالُوا مَهْما تأْتِنا بهِ مِنْ آيةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بمُؤْمِنِينَ * فأرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ والجَرادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفصَّلاتٍ فاسْتَكْبَرُوا وكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ [4] كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات . فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هي هذه ، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل .

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون : ﴿ قالَ ربِّ إنِّي قَتَلْتُ مِنهُم نَفْساً فأخافُ أنْ يقْتُلونِ * وأخِي هارُونُ هُوَ أفْصحُ مِنِّي لِساناً فأرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصدِّقُنِي ، إنِّي أخافُ أنْ يُكذِّبُونِ * قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخِيكَ ونَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فلاَ يَصِلُونَ إلَيْكُما ، بآياتِنا أنْتُما ومَنِ اتَّبعَكُما الغالِبُونَ ﴾ [5] .

---

(١) سورة النمل الآية ١٢ .
(٢) سورة القصص الآية ٣٢ .
(٣) سورة الإسراء آيات ١٠١ ، ١٠٢ .
(٤) سورة الأعراف آيات ١٣٠ ـ ١٣٣
(٥) سورة القصص آيات ٣٣ ـ ٣٥ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، في جوابه لربه عز وجل ، حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا : ﴿ قالَ ربِّ إنِّي قَتلْتُ مِنهُم نَفْساً فأخافُ أنْ يقْتُلونِ * وأخِي هارُون هُو أفْصحُ منِّي لِساناً فأرْسِلهُ مَعيَ رِدْءاً يُصدِّقني ، إنِّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِ ﴾ أي أجعله معى معيناً وردءًا ووزيراً يساعدني ، ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً .

قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : ﴿ سنشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ ونَجْعلُ لكُما سُلْطاناً ﴾ أي برهاناً ﴿ فلاَ يَصِلُونَ إليْكُما ﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا . ﴿ أنْتُما ومَنِ اتَّبعكُما الغَالِبُون ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿ اذْهَبْ إلَى فِرْعَوْن إنَّه طَغَى * قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْري * ويسِّر لِي أمْرِي * واحْلُل عُقْدةً مِنْ لِسانِي * يفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [1] قيل إنه أصابه في لسانه لثغة ، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه ، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله ، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافت عليه آسية وقالت : إنه طفل ، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة ، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها . فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ،ولم يسأل زوالها بالكلية .

قال الحسن البصري : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ،ولهذا بقيت في لسانه بقية .

ولهذا قال فرعون ، قبحه الله ، فيما زعم أنه يعيب به الكليم : ﴿ ولاَ يَكادُ يَبِينُ ﴾ [2] أي يفصح عن مراده ، ويعبر عما في ضميره وفؤاده .

ثم قال موسى عليه السلام : ﴿ واجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي * هارُونَ أخِي * اشْدُدْ بهِ أزْرِي * وأشْركهُ فِي أمْرِي * كَيْ نُسبِّحكَ كَثِيراً * ونذْكُركَ كَثِيراً * إنَّك كنْتَ بِنا بَصِيراً * قالَ قدْ أُوتِيت سُؤْلَكَ يامُوسَى ﴾ [3] .

أيْ قد أجبناك إلى جميع ما سألت ،وأعطيناك الذي طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه .وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى :

---

(١) سورة طه آيات ٢٤ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٢ .

(٣) سورة طه آيات ٢٩ ـ ٣٦

﴿ وكانَ عِنْدَ اللهِ وَجيهاً ﴾ [1] وقـال تعـالى : ﴿ ووهَبْنـا لـهُ مِنْ رَحْمتنـا أخـاهُ هـارُونَ نبيّاً ﴾ [2] .

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج : أي أخ أمن على أخيه ؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه . قال الله تعالى : ﴿ ووهَبْنا له مِنْ رَحْمتِنا أخاهُ هارُونَ نَبيًّا ﴾ .

وقـال تعـالى في سورة الشعراء : ﴿ وإذْ نـادَى ربُّـكَ مُوسَى أن ائْتِ القَومَ الظّـالِمينَ * قَـومَ فِرْعونَ ، ألاَ يتّقونَ * قالَ رَبِّ إنّ أخـافُ أن يُكـذّبُونِ * ويَضيقُ صَـدْري ولا يَنْطَلِقُ لِسـاني فأرْسِل إلَى هارُونَ * ولَهمْ عليّ ذَنبٌ فأخـافُ أنْ يَقتُلونِ * قـالَ كلاّ ، فـاذْهَبـا بـآيـاتِنَـا ، إنّا مَعكُم مُسْتمِعونَ * فأْتِيا فِرْعونَ فقُولا إنّا رَسُول رَبِّ العالَمِينَ * أنْ أرْسِل مَعَنـا بَني إسْرائيل * قالَ ألَمْ نُربكَ فينـا وَليـداً ولَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنينَ * وفَعلْتَ فعْلتَـكَ التي فَعلْت وأنْتَ مِنَ الكافِرِينَ ﴾ [3] .

تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلا بـه من دعوتـه إلى عبـادة الله تعـالى وحـده لاشريـك لـه ، وأن يفـك أسـارى بني إسرائيـل من قبضتـه وقهره وسطـوتـه

فتكبر فرعون في نفسـه وعتـا وطغي ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص قـائلا لـه : ﴿ ألَمْ نُربّكَ فِينَا وَليداً ولَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنـا ؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر ؟

وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه ، خلافاً لما عنـد أهل الكتـاب : من أن فرعون الذي فر منه مات في مقامه بمدين ، وأن الذي بعث إليه فرعون آخر .

وقـولـه : ﴿ وفَعلْتَ فِعْلتَـكَ التي فَعلْتَ وأنْتَ مِنَ الكَـافِرِينَ ﴾ [4] أى وقتلت الرجـل القبطي ، وفررت منا وجحدت نعمتنا .

---

(1) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

(2) سورة مريم الآية ٥٣ .

(3) سورة الشعراء آيات ١٠ ـ ١٩ .

(4) سورة الشعراء الآية ١٩ .

﴿ قالَ فَعلتُها إذاً وأنا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [1] أي قبل أن يوحى إلي وينزل عليّ ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُم لَمّا خِفْتُكُم فوهَبَ لِي ربِّي حُكماً وجَعَلَني مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ [2] .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : ﴿ وتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمنُّها عَليَّ أنْ عَبَّدتَ بَني إسْرائيلَ ﴾ [3] أي وهذه النعمة التي ذكرت ، من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك .

﴿ قالَ فِرْعونُ وما رَبُّ العَالمينَ * قالَ ربُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهما ، إنْ كُنتُم مُوقِنينَ * قالَ لِمنْ حَوْلَه ألا تَسْتَمِعُونَ * قالَ رَبُّكُم وربُّ آبائكُم الأَوَّلِينَ * قالَ إنَّ رَسُولَكُم الَّذي أُرسِلَ إلَيْكُم لَمَجْنُونٌ * قالَ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وما بَيْنَهُما ، إنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ ﴾ [4] .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم ، من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية .

وذلك أن فرعون ـ قبحه الله ـ أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإلٰه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فقَالَ أنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى ﴾ [5] ﴿ وقالَ فِرعَونُ يا أيُّها المَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إلٰهٍ غَيْرِي ﴾ [6] .

وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارئ المصور ، الإلٰه الحق كما قال تعالى : ﴿ وجَحَدُوا بِها واسْتَيقَنَتْها أنْفُسُهم ظُلْمًا وعُلُوًّا ، فانْظُر كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ [7] .

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله : ﴿ وما ربُّ العَالَمينَ ﴾ [8] لأنهما قالا له : ﴿ إنا رسُولُ رَبِّ العَالمينَ ﴾ [9] فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟

---

(1) سورة الشعراء الآية ٢٠ .
(2) سورة الشعراء الآية ٢١ .
(3) سورة الشعراء الآية ٢٢ .
(4) سورة الشعراء آيات ٢٣ ـ ٢٨ .
(5) سورة النازعات آيتا ٢٣ ، ٢٤ .
(6) سورة القصص الآية ٣٨ .
(7) سورة النمل الآية ١٤ .
(8) سورة الشعراء الآية ٢٣ .
(9) سورة الشعراء الآية ١٦ .

فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رَبُّ السَّمٰواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهما إن كنْتُم مُوقِنِينَ ﴾ يعنى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتعددة ، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق . وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين .

﴿ قالَ ﴾ أي فرعون ﴿ لِمَنْ حَولَه ﴾ من أمرائه ومرازبته ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ ألاَ تَسْتَمِعُون ﴾ يعنى كلامه هذا .

﴿ قالَ ﴾ موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ ربُّكُم وربُّ آبائِكُم الأوّلِينَ ﴾ أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم ، من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة في الآباد ، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنْفُسِهِم حتّى يَتبيَّنَ لَهُم أنّه الحَقّ ﴾ [1] .

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه : ﴿ قالَ إنَّ رَسُولَكمُ الّذِي أُرسِلَ إليْكُم لمجنونٌ * قالَ رَبُّ المشْرِقِ والمغْربِ وما بَيْنَهُما ، إنْ كُنتُم تَعقِلُون ﴾ أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة المسيرة للأفلاك الدائرة . خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفي فلك يسبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون . فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه ، ولم يبق له قول سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ﴿ قالَ لَئِنِ اتَّخذْتَ إلٰهاً غَيْرِي لأجْعلنَّكَ مِنَ المسْجُونِينَ * قالَ أولَوْ جِئْتكَ بشَيءٍ مُبِينٍ * قالَ فأْتِ بهِ إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فألْقَى عَصاهُ فإذا هِيَ ثُعبانٌ مُبِينٌ * ونَزَعَ يدَهُ فإذا هِيَ بيْضاءُ للنّاظِرِينَ ﴾ [2] .

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بها ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم ، الذي بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، أي عظيم

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ . (٢) سورة الشعراء آيات ٢٩ ـ ٣٣ .

الشكل ، بديع في الضخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر ، حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه ، أخذه رهب شديد وخوف عظيم ، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم ، وكان قبل ذلك لايتبرز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة ، فانعكس عليه الحال .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلي جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى .

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر ، وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه ، وأهل دولته وملته .. ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [1] .

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه ،وأنعم بالنبوة عليه ،وكلمه منه إليه : قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون ،وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري ، فلبثت فيها سنين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ ﴾ أي مني لذلك ، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي اصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي .

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ يعنى ولا تفترا في ذكري إذا قدمتما عليه ووفدتما إليه ، فإنه ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته ،وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه .

---

(١) سورة طه آيات ٤٠ ـ ٤٦ .

وقد جاء في بعض الأحاديث : يقول الله تعالى : « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه » وقال تعالى : ﴿ ياأيُّها الذينَ آمنُوا إذاً لَقيتُم فِئةً فاثْبتُوا واذْكُروا الله كَثيراً لَعلَّكُم تفْلِحُونَ ﴾ [1] .

ثم قال تعالى : ﴿ اذْهَبا إلَى فِرْعونَ إنَّه طَغَى * فَقُولا لهُ قَولاً لَيِّناً لعلَّه يتذَكَّر أوْ يخْشَى ﴾ [1] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ، ويعاملاه بألطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى .

كما قال لرسوله : ﴿ ادْعُ إلَى سَبِيلِ ربِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ وجَادِلْهُم بالَّتِي هِيَ أحْسَن ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ ولا تُجادِلوا أهْلَ الكِتابِ إلاَّ بالَّتِي هِيَ أحْسَن إلاَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم ﴾ [3] قال الحسن البصري : ﴿ فَقُولا لهُ قَولاً لَيِّناً ﴾ أعذرا إليه ، قولا له : إن لك رباً ولنا معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً

وقال وهب بن منبه : قولا له : إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة . قال يزيد الرقاشي عند هذه الآية : يامن يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟!

خافَ أنْ يفْرُطَ عَلَيْنا أوْ أنْ يَطْغَى ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً سلطان في بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ، فهاناه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر ، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال : ﴿ لا تَخَافا إنَّني مَعَكُما أسْمعُ وأرَى ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ ..إنَّا مَعَكُم مُسْتَمِعُون ﴾ [4] .

﴿ فأْتِياهُ فقُولا إنَّا رَسُولا رَبِّك فأرْسِل مَعَنا بَنِي إسْرائيلَ ولا تُعذِّبْهُم ، قَدْ جِئْناكَ بآيةٍ مِنْ ربِّكَ ، والسَّلامُ عَلى مَن اتَّبعَ الهُدَى * إنَّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنا أنَّ العَذابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وتَولَّى ﴾ [5] يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله تعالى ، أن يعبده

---

(1) سورة الأنفال الآية ٤٥ .
(2) سورة النحل الآية ١٢٥ .
(3) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .
(4) سورة الشعراء الآية ١٥ .
(5) سورة طه آيتا ٤٧ ، ٤٨ .

وحده لاشريك لـه وأن يرسل معها بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذبهم . ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهو البرهان العظيم في العصي واليد ، ﴿ والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾ تقييد مفيد بليغ عظيم ، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا : ﴿ إنَّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنا أنَّ العَذابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾ أي كذب بالحق بقلبه ، وتولى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السدي وغيره : أنه لما قدم من بلاد مدين ، دخل علي أمه وأخيه هارون ، وهما يتعشيان من طعام فيه « الطفشيل » وهو اللفت ، فأكل معهما ، ثم قال : ياهارون .. إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته ، فقم معي ، فقاما يقصدان باب فرعون فإذا هو مغلق . فقال موسى للبوابين والحجبة ، أعلموه أن رسول الله بالباب . فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به .

وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل ، قال محمد بن إسحاق : أذن لهما بعد سنتين ، لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما .. فالله أعلم . ويقال إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه ، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما ، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب : أن الله قال لموسى عليه السلام : إن هارون اللاوي - يعنى الذي من نسل لاوي بن يعقوب - سيخرج ويتلقاك ، وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى فرعون ، وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات وقال له : إني سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب ، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر . وأوحي الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب ، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه . فلما دخلا مصر جميعاً شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون ، فلما بلغاه رسالة الله قال : من هو الله ؟ لاأعرفه ولاأرسل بني إسرائيل .

وقال الله مخبراً عن فرعون : ﴿ قالَ فَمنْ رَبُّكُما يَامُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قالَ فَما بالُ القُرونِ الأُولَى * قالَ عِلْمُهَا عِنْد رَبِّي في كِتابٍ ، لايَضلُّ رَبِّي ولا يَنْسَى * الَّذي جَعَل لَكُم الأرْضَ مَهْداً وسَلَكَ لَكُم فِيها سُبُلاً وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ أزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى * كُلُوا وارْعَوا أنْعامَكُم ، إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهى * مِنْها

﴿ خَلَقْناكُم وفِيها نُعيدُكُم ومِنْها نُخْرِجكُم تارةً أُخرَى ﴾ [1]

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يامُوسَى * قالَ رَبُّنا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي هو الذي خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ماقدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه ، وقدرته وقدره لكمال علمه ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [2] أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه .

﴿ قالَ فَما بالُ القُرونِ الأُولَى ﴾ يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادي الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لايستحق العبادة سواه ، فلم عبد الأولون غيره ؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ماقد علمت ؟ فهلا اهتدى إلى ماذكرته القرون الأولى ؟ ﴿ قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي في كِتابٍ ، لايَضِلُّ رَبِّي ولا يَنْسَى ﴾ أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك ، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ، ولايظلم أحداً مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لايضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً .

ثم ذكر له عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً ، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أَنْعامَكُم ، إِنَّ في ذلكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة . والفطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالى الخالق الرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً وأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُم ، فلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال : ﴿ مِنْها ﴾ أي من الأرض ﴿ خَلَقْناكُم وفِيها نُعيدُكُم ومِنْها نُخْرِجُكُم تارةً أُخْرَى ﴾ كما قال

---

(1) سورة طه الآيات ٤٩ ـ ٥٥ .
(2) سورة الأعلى آيات ١ ـ ٣ .
(3) سورة البقرة الآيات ٢١ ، ٢٢

تعالى : ﴿ كَمَا بَدأَكُم تَعُودُونَ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وهُو الّذِي يَبْدأُ الخَلْق ثمّ يُعيدُهُ وهُو أهْونُ عَليهِ ، ولهُ المثَلُ الأعْلَى في السّموات والأرْضِ ، وهُو العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [2] .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقَد أرَيناهُ آياتِنَا كُلّها فكذّبَ وأبَى * قالَ أجئتَنا لتُخرِجَنا مِنْ أرْضِينا بِسِحْرِكَ يامُوسَى * فلنأتِينَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِه فاجْعَل بَيْنَنَا وبيْنك مَوْعداً لا نُخلِفهُ نَحنُ ولا أنْتَ مَكاناً سِوًى * قالَ موْعِدكُم يَوْم الزِّينةِ وأنْ يُحشَرَ النّاسُ ضُحى ﴾ [3] .

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله ، في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها ، وقوله لموسى : إن هذا الذي جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم .

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام : أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس .. ولهذا ﴿ قالَ موْعِدُكُم يَوْم الزِّينةِ ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وأنْ يُحشَر النّاسُ ضُحًى ﴾ أي من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلي ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلا في ظلام ، كما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهارا جهرة ، لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط !

قال الله تعالى : ﴿ فتَولّى فِرْعونُ فَجمَعَ كيْدَهُ ثمّ أتَى * قالَ لَهُم مُوسَى ويْلَكُم لا تَفْتَرُوا علَى اللهِ كَذِباً فيُسْحِتكُم بعذابٍ ، وقَدْ خابَ مَنْ افْتَرى * فتنازَعُوا أمْرَهُم بيْنَهُم وأسَرُّوا النَّجْوَى * قالُوا إنّ هٰذانِ لَساحِران يُرِيدانِ أنْ يُخرِجاكُم مِنْ أرْضِكُم بسِحْرِهِما ويَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ المثْلَى * فأجْمِعُوا كيْدَكُم ثمّ ائتوا صَفاً ، وقَدْ أفْلَحَ اليَوْم مَنِ اسْتَعلَى ﴾ [4]

---

(1) سورة الأعراف الآية ٢٩

(2) سورة الروم الآية ٢٧

(3) طه الآيات ٥٦ ـ ٥٩

(4) سورة طه لآيات ٦٠ ـ

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء ، في فنهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير ، فقيل : كانوا ثمانين ألفاً ـ قاله محمد بن كعب ـ وقيل سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بردة ، وقال السدي : بضعة وثلاثين ألفاً ، وعن أبي أمامة : تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحاق : خمسة عشرة ألفاً . وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروى عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر ، ولهذا قالوا : ﴿ ومَا أكْرَهْتَنا عَلَيْه مِنَ السِّحْرِ ﴾[1] وفي هذا نظر .

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بدله عن بكرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : ﴿ لَعلَّنا نَتَّبِع السَّحَرة إنْ كانُوا هُمْ الغَالِبينَ ﴾[2] .

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال : ﴿ ويْلَكُم لا تَفْتَرُوا علَى اللهِ كَذِباً فيُسْحِتَكُم بعَذابٍ ، وقَدْ خابَ مَنْ افْتَرى * فَتنازَعوا أمْرَهُم بيْنَهُم ﴾ .

قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر .. فالله أعلم . وأسروا التناجي بهذا وغيره .

﴿ قالوا إنّ هٰذانِ لَسَاحِرانِ يُرِيدَانِ أنْ يُخْرِجَاكُم مِنْ أرْضِكُم بِسِحْرِهِما ﴾ يقولون : إن هذا وأخاه هارون ، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة ، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرهما عليكم بهذه الصناعة .

﴿ فأجْمِعُوا كيْدَكُم ثمّ ائْتُوا صَفًّا ، وقَدْ أفْلَح اليَوْمَ مَنِ اسْتَعلَى ﴾ وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا ، بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والبهتان .

وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان ، والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الديان ، على يدي عبده الكليم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان .

---

(١) طه الآية ٧٣

(٢) الشعراء الآية ٤٠ .

وقولهم : ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ ثم ائتوا صفًا ﴾ أي جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومنّاهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

﴿ قالوا ياموسى إمّا أنْ تُلقي وإمّا أنْ نكونَ أوّلَ مَنْ ألقى * قالَ بَلْ ألقوا ، فإذا حِبالُهم وعِصيُّهمْ يُخيّلُ إليهِ مِنْ سِحرهِمْ أنها تَسْعَى * فأوْجَسَ في نَفْسهِ خِيفةً مُوسَى * قُلْنا لا تَخفْ إنّكَ أنْتَ الأعْلَى * وألْقِ مَا في يَمينكَ تَلْقفْ ما صَنَعُوا ، إنّما صَنَعوا كَيدُ سَاحِرٍ ، ولا يُفْلحُ السَّاحِرُ حَيثُ أتَى ﴾ (١)

لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تلقي قبلنا ، وإما أن نلقي قبلك ﴿ قالَ بَلْ ألقوا ﴾ أنتم ، وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي ، فأودعوها الزئبق وغيره ، من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ،وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : ﴿ بعِزةِ فِرْعَونَ إنّا لَنحْنُ الغَالبُونَ ﴾ (٢) .

قال الله تعالى : ﴿ فلمّا ألقوا سَحَرُوا أعْيُنَ النّاس واسْتَرهبُوهُم وجاءُوا بسِحْرٍ عَظيمٍ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ فإذا حِبالُهم وعِصيُّهُم يُخيّلُ إليهِ مِنْ سِحْرِهمْ أنّها تَسْعَى * فأوْجسَ في نَفْسِهِ خِيفةً مُوسَى ﴾ أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم ، قبل أن يلقى ما في يده ، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر ، فأوحي الله إليه في الساعة الراهنة : ﴿ لاتَخَفْ إنّكَ أنْتَ الأعْلَى * وألْقِ ما في يَمِينكَ تَلْقفْ ما صَنَعُوا ، إنّما صَنَعُوا كَيدُ ساحِرٍ ، ولا يُفْلحُ السَّاحِرُ حَيثُ أتَى ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ﴿ ما جِئْتُم بهِ السِّحْر ، إنّ اللهَ سَيُبطِلهُ ، إنّ اللهَ لايُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ * ويُحقُّ الحَقَّ بِكلماتِه وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وأوْحيْنا إلَى مُوسَى أنْ ألقِ عَصَاكَ ، فإذا هِيَ تَلْقفُ ما يأفِكُونَ * فوَقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ ما كانُوا يعْمَلُونَ * فغُلِبُوا هُنَالِكَ وانْقَلَبُوا صاغِرينَ * وألقي السَّحَرة سَاجِدِينَ *

---

(١) طه الآيات ٦٥ - ٦٩

(٢) سورة الشعراء الآية ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١١٦

(٤) سورة يونس ٨١ ، ٨٢ .

قالوا آمنّا بربِّ العالَمينَ * ربِّ موسَى وهارُون ﴾ [1] .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة ذات قوائم ، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف ، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج ، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم ، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ،ولا محال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لايقدر عليه إلا الحق ، الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ،وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : ﴿ آمنّا بربِّ هارُونَ ومُوسَى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فألقِيَ السَّحَرةُ سُجّداً قالوا آمنّا بربِّ هارُونَ وموسَى * قالَ آمنْتُم لَه قَبْل أنْ آذَنَ لَكُم ، إنَّه لَكَبيرُكُم الَّذي علَّمكُم السِّحْرَ ، فلأُقطِّعنَّ أيْديكُمْ وأرْجُلكُم مِنْ خِلافٍ ولأُصَلِّبنَّكُم في جُذوعِ النَّخلِ ولَتعْلمُنَّ أينا أشدُّ عذاباً وأبْقَى * قالُوا لَنْ نُؤْثِركَ علَى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ والَّذي فَطَرنَا ، فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ ، إنَّما تَقْضِي هذه الحَياةَ الدُّنيا * إنَّا آمنَّا بِربِّنا ليَغفرَ لَنا خَطايَانا وما أكْرَهتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْر ، واللهُ خَيرٌ وأبْقَى * إنهُ مَنْ يأتِ ربَّه مُجْرِماً فإنَّ لَهُ جَهنَّم لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيا * ومَنْ يأتِهِ مؤمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالحاتِ فأُولَئِكَ لَهمُ الدَّرجاتُ العُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتها الأنْهارُ خالِدينَ فِيها ، وذَلكَ جَزاءُ مَنْ تَزكَّى ﴾ [2] .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بردة والأوزاعي وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم ، وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده .

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس

(1) سورة الأعراف الآيات ١١٧ ـ ١٢٢

(2) سورة طه الآيات ٧٠ ـ ٧٦

على هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس : ﴿ آمَنْتُم لهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُم ﴾ أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ؟! ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذب فأبعد قائلاً : ﴿ إنَّه لكَبيرُكُم الَّذي علَّمكُم السِّحْر ﴾ وقال في الآية أخرى : ﴿ إنَّ هٰذا لَمَكْرٌ مَكرتُموهُ فِي المدِينَةِ لِتُخرِجوا مِنْها أهْلَها ، فسَوفَ تعْلَمونَ ﴾ [1] .

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لايروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر ؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق ، من حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ثُمَّ بَعثْنا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بآياتنا إلَى فِرْعونَ ومَلَئِهِ فظلموا بِها ، فانْظُر كيْفَ كانَ عاقِبةُ المُفْسِدينَ * وقالَ مُوسَى يافِرْعونُ إنِّي رسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالمينَ * حقيقٌ علَى أنْ لا أقُولَ علَى اللهِ إلاَّ الحقَّ ، قدْ جِئْتكُم ببيِّنةٍ مِنْ ربِّكُم فأرْسِلْ مَعي بَنِي إسْرائيلَ * قالَ إنْ كُنتَ جِئْتَ بآيةٍ فأْتِ بها إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فألْقَى عَصاهُ فإذا هِيَ ثُعبانٌ مُبينٌ * ونَزَعَ يدَهُ فإذا هِيَ بيْضاءُ للنَّاظِرِينَ * قالَ الملأُ مِنْ قَوْمِ فرْعونَ إنَّ هٰذا لَساحِرٌ عَليمٌ * يُريدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُم ، فماذا تأْمُرونَ * قالُوا أرْجِه وأخاهُ وأرْسِلْ في المدائِنِ حاشِرينَ * يأْتُوكَ بكلِّ ساحِرٍ عَليمٍ * وجاءَ السَّحرةُ فِرْعَون قالُوا إنَّ لَنا لأجْراً إنْ كنَّا نَحنُ الغَالِبينَ * قالَ نَعَم وإنَّكُم لمِنَ المقَرَّبينَ * قالُوا يامُوسَى إمَّا أنْ تُلقيَ وإمَّا أنْ نَكونَ نَحنُ الملْقِينَ * قالَ ألْقُوا ، فلَمَّا ألْقَوا سَحَروا أعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرهَبوهُم وجاءُوا بسِحْرٍ عَظِيمٍ * وأوْحَينَا إلَى مُوسَى أنْ ألْقِ عَصاكَ ، فإذا هِيَ تلْقفُ ما يَأْفِكونَ * فوقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ ما كانُوا يعْمَلونَ * فَغُلِبُوا هُنالكَ وانْقلبُوا صاغِرِينَ * وألْقِيَ السَّحرةُ ساجدِينَ * قالُوا آمنَّا بربِّ العَالمِينَ * رَبِّ مُوسَى وهارُون * قالَ فِرْعونُ آمنْتُم بهِ قبْلَ أنْ آذَنَ لَكُم ، إنَّ هٰذا لمكْرٌ

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٣ .

مكرتموهُ في المدينـةِ لتخرجُوا منها أهلَها ، فسَوف تَعلمونَ * لأقطِّعنَّ أيـديكُم وأرجُلكُم مِنْ خِلافٍ ثمّ لأُصَلِّبنّكُم أجْمعينَ * قالُوا إنّا إلى ربّنا منْقلِبُون * وما تنْقِم مِنّا إلاّ أنْ آمنّا بآياتِ ربّنا لمّا جاءَتْنا ، ربّنا أفْرِغْ عليْنا صَبْرا وتَوفّنا مُسْلمِينَ ﴾ [1] .

وقال تعـالى في سورة يونس : ﴿ ثمّ بعَثْنـا مِنْ بَعدهِم مُوسَى وهـارُونَ إلى فِرْعونَ ومَلَئِـه بآيَاتِنا فاسْتَكبرُوا وكانُوا قوْمـاً مُجْرِمينَ * فَلمّـا جـاءَهُم الحقُّ مِنْ عِنْـدِنـا قـالُوا إنّ هـٰذا لَسحرٌ مُبِينٌ * قالَ مُوسَى أتقُولُونَ لِلحقّ لمّا جاءَكُم ، أسِحْرٌ هٰذا ولا يُفلحُ السَّاحِرُونَ * قالُوا أجِئْتَنـا لِتلْفِتَنا عمّا وجَدْنا عليهِ آباءَنَا وتَكونَ لَكُما الكِبْرِياءُ في الأرْضِ ومـا نَحنُ لَكُما بمُؤْمِنِينَ * وقـالَ فِرْعونُ ائْتوني بكلّ ساحِرٍ عَليمٍ * فلمّـا جـاءَ السّحَرةُ قـالَ لَهُم مُوسَى ألْقُوا مـا أنْتُم مُلْقونَ * فلمّا ألْقوا قالَ مُوسىَ ما جِئْتُم بهِ السِّحْرُ ، إنّ اللهَ سَيبْطِلُه ، إنّ الله لايُصْلِحُ عَمَلَ المفْسِدِينَ * ويُحق اللهُ الحَقّ بكَلماتِه ولَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ ﴾ [2] .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ قالَ لَئِنِ اتّخـذْتَ إلٰهـاً غَيْري لأجْعلنّـكَ مِنَ المسْجُونِينَ * قالَ أوَ لَوْ جِئْتُك بشَيءٍ مُبِينٍ * قالَ فأْتِ بهِ إنْ كنْتَ مِنَ الصّـادِقِينَ * فـألْقي عَصـاهُ فـإذَا هِيَ ثُعبانٌ مُبينٌ * ونَزَع يَدهُ فإذا هِيَ بيْضاءُ للنّاظِرِينَ * قالَ للملأِ حَوْلَهُ إنّ هـٰذا لَسـاحِرٌ عَليمٌ * يُرِيدُ أنْ يُخرجكُمْ مِنْ أرْضِكُم بِسحْرِهِ فماذا تـأْمُرونَ * قـالُوا أرْجِه وأخَـاهُ وابْعَث في المدَائِنِ حَاشِرِينَ * يأْتُوك بِكلّ سحّارٍ عَليمٍ * فَجُمِعَ السّحرةُ لِميقـاتِ يَوْمٍ معْلُومٍ * وقِيلَ للنّـاسِ هَلْ أنْتُم مُجْتَمِعُون * لعلّنا نتّبعُ السّحَرةَ إنْ كانُوا هُمُ الغـالِبِينَ * فلمّـا جـاءَ السّحرةُ قـالُوا لفِرعَونَ أئِنّ لَنا لأجْراً إنْ كُنّا نَحْنُ الغَالبِينَ * قالَ نَعَم وإنّكُم إذاً لمنَ المقرّبِينَ * قالَ لَهُم مُوسَى ألْقُوا ما أنْتُم مُلْقونَ * فألقوْا حِبالَهُم وعِصِيّهُم وقالُوا بِعزّةِ فِرْعَونَ إنّا لنَحنُ الغَالِبُونَ * فـألْقَى مُوسَى عَصاهُ فإذا هِيَ تَلْقَفُ ما يأفِكون * فألقِي السّحرةُ ساجِدينَ * قـالُوا آمنّـا بِربّ العَـالمِينَ * رَبِّ مُوسَى وهارُونَ * قـالَ آمنْتُم لَـهُ قَبْل أنْ آذَنَ لَكُم ، إنـهُ لَكَبيرِكُم الّـذِي عَلّمكُم السّحْر فلسَوْفَ تعْلَمُون ، لأُقطّعنّ أيْـدِيكُم وأرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ ولأُصَلّبنّكُمْ أجْمعِينَ * قـالُـوا لاضَيْر ، إنّـا إلى رَبّنا منْقَلِبُون * إنّا نطْمَعُ أنْ يغْفِرَ لَنا ربُّنا خَطَايانا أنْ كنّا أوّل المؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٠٣ ـ ١٢٦

(٢) سورة يونس الآيات ٧٥ ـ ٨٢ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ٢٩ ـ ٥١

والمقصود أن فرعون كذب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله : ﴿ إنَّه لكَبيرُكُم الَّذي علَّمَكم السِّحْر ﴾ وأتي ببهتان يعلمه العالمون بل العالمون في قوله : ﴿ إنَّ هٰذا لمكْرٌ مَكرتُمُوه في المدِينَة لِتخرجُوا مِنْها أهْلَها ، فَسوفَ تعْلَمونَ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ لأُقطِّعنَّ أيْدِيكُم وأرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ ﴾ يعنى يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، ﴿ ولأُصَلِّبنكُمْ أجْمَعِينَ ﴾ أي ليجعلنهم مثلة ونكالا لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته . ولهذا قال : ﴿ ولأُصَلِّبنَّكُم في جُذُوعِ النَّخْل ﴾ [2] أي على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿ ولتَعلَمُنَّ أيُّنا أشَدُّ عذاباً وأبْقَى ﴾ [2] يعنى في الدنيا .

﴿ قالُوا لَنْ نُؤْثِركَ علَى ما جَاءَنا مِنَ البَيِّناتِ ﴾ [3] أي لن نطيعك ونترك ما وقع في قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات﴿ والَّذي فَطَرنا ﴾ [3] قيل معطوف ، وقيل قسم ﴿ فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ ﴾ [3] أي فافعل ماقدرت عليه ﴿ إنَّما تَقْضِي هٰذِه الحَيَاةَ الدُّنْيا ﴾ [3] أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا نتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله : ﴿ إنَّا آمنَّا برَبِّنا لِيغْفِرَ لَنا خَطَايانَا وما أكْرهْتَنا علَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، واللهُ خَيْرٌ وأبْقَى ﴾ [4] أي ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ وأبْقَى ﴾ أي وأدوم من هذه الدار الفانية . وفي الآية الأخرى : ﴿ قالُوا لاضَيْر ، إنَّا إلَى رَبِّنا مُنْقلِبُونَ * إنَّا نَطْمعُ أنْ يَغْفرَ لَنا رَبُّنا خَطَايَانا ﴾ أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم ﴿ إنْ كنَّا أول المؤْمِنِينَ ﴾ أي من القبط ، بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا له أيضاً : ﴿ وما تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمنَّا بآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا ﴾ [5] أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا ، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ رَبَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً ﴾ [5] أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ، ﴿ وتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ ﴾ [5] .

وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : ﴿ إنَّه مَنْ يأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فإنَّ لَهُ

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٣ .

(٢) سورة طه الاية ٧١ .

(٣) سورة طه الآية ٧٢ .

(٤) سورة طه الآية ٧٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٦

جَهَنَّم لايَمُوتُ فِيها ولا يَحْيا ﴾ [1] يقولون لـه : فـإيـاك أن تكون منهم . فكان منهم ﴿ ومَنْ يأتِـهِ مؤمناً قَدْ عَمِل الصَّالِحاتِ فأُولئكَ لَهُم الدَّرجاتُ العُلَى ﴾ [2] أي المنـازل العـاليـة ، ﴿ جنَّات عَدْن تَجْري مِنْ تَحْتها الأنْهارُ خالدِينَ فِيها ، وذلكَ جَزاءُ مَنْ تَزكَّى ﴾ [3] فـاحرص أن تكون منهم ، فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لاتغالب ولا تمانع ،وحكم العلي العظيم بـأن فرعون ـ لعنه الله ـ من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأيه الحميم . ويقال لـه على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح والـذميم اللئيم : ﴿ ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ [4] .

والظاهر من هذه السياقـات أن فرعون ـ لعنـه الله ـ صلبهم وعـذبهم رضي الله عنهم . قـال عبد الله بن عبـاس وعبيـد بن عمير : كانـوا من أول النهـار سحرة ، فصـاروا من آخره شهـداء بررة !

ويؤيد هذا قولهم : ﴿ ربَّنا أفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وتَوفَّنا مُسْلمينَ ﴾ [5]

إيذاء موسى

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلـك الموقف الهـائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم ، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق . .

قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف : ﴿ وقـالَ الملأُ مِنْ قَوْم فِرْعَونَ أتَـذرُ مُوسَى وقَوْمَهُ ليُفْسِدُوا في الأرْض ويَذَرَكَ وآلِهتَكَ ، قـالَ سَنُقَتِّلُ أبْنـاءَهُم ونَسْتَحْيي نِسـاءَهُم وإنَّا فَوقَهُم قاهِرُونَ * قالَ مُوسَى لقَوْمِه اسْتَعِينُوا بـالله واصْبِرُوا ، إنَّ الأرْضَ لله يُورِثُهـا مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه ، والعاقِبةُ للمتَّقينَ * قالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تأْتِينـا ومِنْ بَعْد مـا جِئْتَنـا ،

---

(1) سورة طه الآية ٧٤ .

(2) سورة طه الآية ٧٥ .

(3) سورة طه الآية ٧٦ .

(4) الدخان الآية ٤٩

(5) سورة الأعراف آية : ١٢٦ .

قالَ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهلكَ عَدوَّكُم ويسْتَخلفكُم في الأَرْضِ فينْظُرَ كَيفَ تعمَلونَ ﴾ [1]

يُخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به ، والكفر والرد والأذى .

قالوا : ﴿ أَتَذرُ مُوسَى وقَوْمَهُ ليُفْسدُوا في الأَرْض ويَذَرَكَ وآلِهتَكَ ﴾ يعنون - قبحه الله - أن دعوته إلى عبادة الله وحده لاشريك له ،والنهي عن عبادة ما سواه ، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم : ﴿ ويَذَرك وآلهتَكَ ﴾ أي وعبادتك . ويحتمل شيئين : أحدهما ويذر دينك ، وتقويه القراءة الأخرى . والثاني : ويذر أن يعبدك ، فإنه كان يزعم أنه إله ، لعنه الله .

﴿ قالَ سَنُقتِّلُ أبْناءَهُم ونَسْتَحيي نِساءَهُم ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وإنَّا فوْقَهُم قاهِرُونَ ﴾ أي غالبون .

﴿ قالَ مُوسَى لِقَوْمِه اسْتَعينُوا باللهِ واصْبِرُوا ﴾ أي إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم ، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿ إنَّ الأرْضَ للهِ يُورثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ،والعاقِبَةُ للمتَّقينَ ﴾ أي فكونوا أنتم المتقين تكون لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وقالَ مُوسَى ياقَوْمِ إنْ كُنتُم آمنتُم باللهِ فَعليْه توَكَّلُوا إنْ كُنتم مُسْلمِينَ * فقالُوا علَى اللهِ تَوكَّلْنا ربَّنا لا تَجْعَلْنا فِتنةً للقَوْمِ الظَّالمِينَ * ونَجِّنا بِرَحمتِكَ مِنَ القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [2] .

وقولهم : ﴿ قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْل أنْ تأْتِينا ومِنْ بَعْد ما جِئْتنا ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبلَ مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قالَ عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يُهلكَ عَدوَّكُم ويسْتَخْلفكُم في الأرْضِ فينْظُرَ كَيفَ تعْمَلونَ ﴾ .

وقال الله تعالى في سور حم المؤمن : ﴿ ولَقدْ أرْسَلنا مُوسَى بآياتِنا وسُلْطانٍ مُبِينٍ * إلَى فِرْعَونَ وهَامانَ وقَارُون فقالُوا ساحِرٌ كذَّابٌ ﴾ [3] .

---

(1) سورة الأعراف آيات ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(2) سورة يونس الآيات ٨٤ ـ ٨٦

(3) سورة غافر الآيات ٢٣ ـ ٢٤

وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون إسرائيليًا من قوم موسى ، إلاّ أنه كان على دين فرعون وملئه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ فلمّا جاءَهُم بالحقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقتلُوا أبْناءَ الَّذِينَ آمنُوا مَعَهُ واستَحيوا نِساءَهُم ،وما كَيدُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلالٍ ﴾ [1] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال ،والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون .

﴿ وقالَ فِرْعونُ ذَرُوني أقْتُل مُوسَى ولْيدْعُ ربَّه ، إنّي أخافُ أنْ يُبدّل دِينكُم أوْ أنْ يُظهِرَ في الأرْضِ الفَسَاد ﴾ [2]. ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : « صار فرعون مذكراً » وهذا منه ، فإن فرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام !

﴿ وقالَ مُوسَى إنّي عُذْتُ بِربّي ورَبّكُم مِنْ كُلِّ مُتكبّرٍ لايؤْمنُ بيَومِ الحِسابِ ﴾ [3] أي عذت بالله ولجأت إليه واستجرت بجنابه ، من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء . وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ مُتكبّرٍ ﴾ أي جبار عنيد لايرعوى ولا ينتهى ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لايعتقد معاداً ولا جزاءً . ولهذا قال : ﴿ مِنْ كلِّ مُتَكبِّرٍ لايُؤْمنُ بيَوْم الحِسَابِ ﴾ .

﴿ وقالَ رجُلٌ مؤْمِنٌ مِنَ آلِ فِرْعونَ يكْتُم إيمانَهُ أتقتُلُونَ رجُلاً أنْ يَقُولَ رَبّيَ اللهُ وقدْ جَاءَكُم بالبيناتِ مِنْ ربّكُم ، وإنْ يكُ كاذباً فَعليْهِ كَذبه وإنْ يكُ صادِقاً يُصبكُم بَعْض الّذي يَعِدكُم ، إنّ اللهَ لايَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرفٌ كَذّابٌ * ياقَوْمِ لَكُم المُلْكُ اليَوْم ظاهِرِينَ في الأرْضِ فَمَن ينْصُرنا مِنْ بأْس اللهِ إنْ جاءَنا ، قالَ فِرْعونُ ما أُريكُم إلاّ ما أرَى وما أهْديكُم إلاّ سَبيلَ الرّشادِ ﴾ [4] .

---

(١) سورة غافر الآية ٢٥

(٢)سورة غافر الآية ٢٦ .

(٣) سورة غافر الآية ٢٧

(٤) غافر الآيات ٢٨ - ٢٩ .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ،وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه . وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً ، وهو بعيد ويخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى .. والله أعلم .

قال ابن جريج قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذي جاء من أقصا المدينة وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم .

وقال الدارقطني لايعرف من اسمه « شمعان » بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون . حكاه السهيلي .

وفي تاريخ الطبراني : أن اسمه « خير » فالله أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه ، فلما همّ فرعون ـ لعنه الله ـ بقتل موسى عليه السلام ؛ وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى .

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لأشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ! لأنه فيه عصمة نبي ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه . والأول أظهر .. والله أعلم .

قال : ﴿ أتقتلون رجلاً أنْ يقولَ رَبّي اللهُ ﴾ أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لايقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام أو الموادعة وترك الانتقام .

يعنى لأنه : ﴿ قدْ جاءَكُم بالبَيِّنات مِنْ رَبّكُم ﴾ [1] أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة ، لأنه : ﴿ إنْ يكُ كاذِباً فعليْه كَذِبهُ ﴾ [2]

---

(١) غافر الآية ٢٨

(٢) غافر الآية ٢٨

ولا يضركم ذلك ﴿ وإنْ يكُ صادِقاً ﴾ وقد تعرضتم لـه ﴿ يُصبْكُم بَعْض الّذِي يَعِدكُم ﴾ أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم بـه ، فكيف بكم إن حل جميعـه عليكم ؟ وهـذا الكلام في هذا المقام ، من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقولـه : ﴿ يـاقَوْم لَكُم المُلْكُ اليَوْم ظَـاهِرِينَ في الأرْضِ ﴾ يحـذرهم أن يسلبـوا هـذا الملـك العزيز ، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم !

وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا في شك وريب ،ومخالفة ومعاندة لما جـاءهم موسى بـه حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور ، والنعمـة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السـافلين .

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق ، البار الراشد ، التابع للحق ، الناصح لقومه ، الكامل العقل : ﴿ ياقَوْم لَكُم المُلْكُ اليَوْم ظاهِرِينَ في الأرْضِ ﴾ أي عالين على النـاس حـاكمين عليهم ، ﴿ فَمنْ ينْصُرُنا مِنْ بأسِ اللهِ إنْ جَاءَنا ﴾ ؟ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعـدة ، والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ، ولا رد عنا بأس مالك الممالك .

﴿ قالَ فِرْعَونُ ﴾ أي في جوابه هذا كله : ﴿ ما أُرِيكُم إلاّ ما أرَى ﴾ أيْ ما أقول لكم إلا مـا عندي ﴿ وما أهْدِيكُم إلاّ سَبيلَ الرَّشادِ ﴾ .

وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقـدمتين ، فـإنـه قـد كان يتحقق في بـاطنـه وفي نفسـه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدوانـاً ، وعتوًا وكفراناً .

قـال الله تعـالى إخبـاراً عن موسى : ﴿ قـالَ لَقـدْ عَلمْتَ مـا أنْـزلَ هـؤُلاء إلاّ رَبُّ السَّمـواتِ والأرْضِ بَصَائرَ وإنّي لأظُنُّك يـافِرْعونَ مثْبُوراً * فـأرادَ أنْ يسْتفزّهُم مِنَ الأرْضِ فـأغْرقْنـاهُ ومَنْ مَعَه جَميعاً * وقُلْنا مِنْ بَعْده لِبنِي إسْرائيلَ اسْكُنوا الأرْضَ فإذا جاءَ وعدُ الآخِرةِ جِئْنا بكُم لَفِيفاً ﴾ [1] .

وقـال تعـالى : ﴿ فَلمّا جـاءَتْهُم آيـاتُنـا مُبْصِرَةً قـالُـوا هـذا سِحْرٌ مُبينٌ * وجَحـدُوا بِهـا واسْتَيقَنَتها أنْفُسُهم ظُلْماً وعُلوًا ، فانْظُر كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المفْسِدينَ ﴾ [2] .

---

(١) الإسراء الآيات ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(٢) النمل الآيات، ١٣ ، ١٤ .

وأما قوله : ﴿ وما أهديكم إلاّ سبيلَ الرّشادِ ﴾ فقد كذب أيضاً ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال ، فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيا زعم من الكفر والمحال ، في دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال !

قال الله تعالى : ﴿ ونادى فِرْعونُ في قَوْمِه قالَ ياقَوْمِ أليسَ لي مُلكُ مِصْر وهٰذهِ الأنهارُ تجري مِنْ تحتي ، أفلا تُبصِرونَ * أمْ أنا خيرٌ مِنْ هٰذا الذي هُو مَهينٌ ولا يَكادُ يُبينُ * فلَوْلا أُلقيَ عليْه أسورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أوْ جاءَ مَعهُ الملائِكةُ مقْتَرِنينَ * فاسْتَخفَّ قومَه فأطاعُوهُ ، إنهُمْ كانُوا قَوماً فاسِقينَ * فلمّا آسَفُونا انْتَقمْنا مِنهُم فأغرقْناهُم أجْمَعينَ * فجَعَلناهُم سَلفاً ومثَلاً للآخِرينَ ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ فأراهُ الآيةَ الكُبْرى ، فكذَّبَ وعَصَى * ثمّ أدْبَر يَسْعَى * فحَشَر فنَادى * فقَالَ أنا رَبُّكُم الأعْلَى * فأخَذَهُ اللهُ نَكالَ الآخِرَةِ والأُولَى * إنّ في ذٰلكَ لعِبْرةً لمَنْ يَخْشَى ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ ولَقدْ أرْسَلْنا مُوسَى بآياتِنا وسُلْطانٍ مُبينٍ * إلَى فِرْعونَ ومَلئِه فاتَّبعُوا أمْرَ فِرْعَونَ وما أمْرُ فِرْعَونَ برَشيدٍ * يَقْدمُ قَومَه يَوْم القيامَةِ فأوْرَدَهُم النّارَ ، وبئْسَ الوِرْدُ المَوْرودُ * وأُتْبعُوا في هٰذِه لَعنةً يَوْمَ القِيامَةِ ، بئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾ [3] .

والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ ما أُريكُم إلاّ ما أرَى ﴾ وفي قوله : ﴿ وما أهْديكُم إلاّ سَبيلَ الرَّشادِ ﴾ .

﴿ وقالَ الّذي آمَنَ ياقَوْمِ إنّي أخافُ عليْكُم مِثلَ يَومِ الأحْزابِ * مِثْلَ دَأبِ قَوْم نُوحٍ وعادٍ وثَمُود والّذينَ مِنْ بَعْدهِم ، وما اللهُ يُريدُ ظُلماً للعِبادِ * وياقَوْمِ إنّي أخافُ عليْكُم يَومَ التّنادِ * يَوْم تُوَلُّونَ مُدْبِرينَ مالَكُم مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ * ولقَدْ جاءَكُم يُوسُفُ مِنْ قَبلُ بالبَيِّناتِ فما زلْتُم في شَكٍّ مِمّا جاءَكُم بهِ ، حتّى إذا هَلَكَ قلْتُم لَنْ

(١) الزخرف الآيات٥١ ـ ٥٦ .

(٢) النازعات الآيات ٢٠ ـ ٢٦ .

(٣) هود الآيات ٩٦ ـ ٩٩ .

يبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسولاً ، كَذٰلِكَ يُضلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ * الذِينَ يُجادِلُون في آيات اللهِ بغَيْرِ سُلطانٍ أتاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتا عِنْدَ اللهِ وعنْدَ الذِينَ آمنُوا ، كَذٰلِكَ يَطْبعُ اللهُ عَلى كلِّ قلْبِ مُتكبِّرٍ جَبّارٍ ﴾ (١)

يحذرهم ولي الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم ، من النقمات والمثلات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة ، في صدق ما جاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة ، وهو يوم التناد ، أي حين ينادى الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ،ولا إلى ذلك سبيلاً : ﴿ يقُولُ الإنْسانُ يوْمئذٍ أيْنَ المفرُّ * كلاّ لا وَزَر * إلَى ربِّكَ يوْمئذٍ المسْتَقرّ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يا مَعْشَر الجِنّ والإنْسِ إن اسْتَطعْتُم أنْ تنْفذُوا مِنْ أقْطارِ السّمٰواتِ والأرْضِ فانفذُوا ، لاتَنْفذُونَ إلاّ بسُلْطانٍ * فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبانِ * يُرْسِل عَليْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ ونُحاسٌ فَلا تنْتَصِرانِ * فَبأيِّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكذِّبانِ ﴾ (٣) .

وقرأ بعضهم : ﴿ يَوْم التّنَادّ ﴾ بتشديد الدال ، أي يوم الفرار . ويحتمل أن يكون يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون يوم يحل الله بهم البأس ، فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿ فلمّا أحسُّوا بأسَنا إذا هُمْ مِنْها يرْكُضونَ * لا ترْكُضُوا وارْجعُوا إلَى ماأُتْرِفْتُم فِيهِ ومَساكِنكُمْ لعلّكُم تُسألونَ ﴾ (٤) .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم . وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وألا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل . ولهذا قال : ﴿ فَمَا زلْتمْ في شَكّ مِمّا جاءَكُم بهِ ، حتّى إذا هلَكَ قُلتُم لَنْ

(١) غافر الآيات ٣٠ ـ ٣٥

(٢) القيامة الآيات ١٠ ـ ١٢

(٣) الرحمن الآيات ٣٣ ـ ٣٦ .

(٤) الأنبياء الآيات ١٢ ، ١٣

يَبْعثَ اللهُ مِنْ بَعْده رَسُولا ﴾ أي وكذبتم في هذا . ولهذا قال : ﴿ كذلكَ يُضلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرفٌ مُرْتابٌ * الذينَ يُجادِلُون في آياتِ اللهِ بغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُم ﴾ أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده ، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت ، أي يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، ﴿ كذلكَ يطْبَعُ اللهُ على كلِّ قلْب مُتكبِّرٍ جبَّار ﴾ قرئ بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق ـ ولا تخالفه إلا بلا برهان ـ فإن الله يطبع عليها ، أي ختم عليها بما فيها .

﴿ وقالَ فِرْعونُ ياهامَان ابْن لِي صَرْحاً لَعلِّي أبْلُغ الأسْبَاب * أسْبابَ السَّمٰواتِ فأطَّلعَ إلى إله موسَى وإنِّي لأظنُّه كاذِباً ، وكذٰلكَ زُيِّن لفرْعونَ سُوء عَمَله وصَدّ عَنِ السَّبِيلِ ، وما كَيْد فِرْعَون إلاَّ في تَبابٍ ﴾ [1]

كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : ﴿ مَا عَلِمتُ لَكُم مِنْ إلٰهٍ غَيْري فأوْقِد لِي ياهَامَانُ على الطِّين فاجْعَل لِي صَرْحا لَعلِّي أطَّلعُ إلى إله مُوسَى وإنِّي لأظنُّه كاذِباً ﴾ [2] . وقال هاهنا : ﴿ لَعلِّي أبْلُغ الأسْبابَ * أسْبَاب السَّمٰواتِ ﴾ أي طرقها ومسالكها ﴿ فأطَّلعَ إلى إلٰهِ مُوسَى وإنِّي لأظنُّه كاذِباً ﴾ ويحتمل هذا معنيين : أحدهما وإني لأظنه كاذباً في قوله أن للعالم ربًّا غَيْري ، والثاني في دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون ، فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فأطَّلعَ إلى إلٰهِ مُوسَى ﴾ أي فأسأله هل أرسله أم لا ؟ ﴿ وإنِّي لأظنُّه كاذِباً ﴾ أي في دعواه ذلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه .

قال الله تعالى : ﴿ وكذٰلكَ زُيِّنَ لِفرْعَون سُوء عَمَله وصُدّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ وقرئ : ﴿ وصَدّ عَنِ السَّبِيل ﴾ ﴿ وما كَيدُ فِرْعَونَ إلاَّ في تَبابٍ ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلا في خسار ، أي باطل ، لايحصل له شيء من مقصوده

(١) غافر الآيات ٣٦ ، ٣٧

(٢) القصص الآية ٣٨

الذي رامه ، فإنه لاسبيل للبشر أن يتوصلوا بقوام إلى نيل السماء أبداً ـ أعني السماء الدنيا ـ فكيف بما بعدها من السموات العلى ؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لايعلمه إلا الله عز وجل ؟ وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح ، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه ، وأنه كان مبنيًا من الآجر المشوى بالنار ولهذا قال : ﴿ فأَوْقِدْ لِي ياهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فاجْعَلْ لِي صَرْحاً ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن ، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لايساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ، ويطلب منهم كل يوم قسط معين ، إن لم يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية ، ولهذا قالوا لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تأْتِينَا ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُم ويَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فيَنْظُرَ كَيْفَ تعْمَلُونَ ﴾ [1] . فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط ، وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه .

قال الله تعالى : ﴿ وقَالَ الَّذِي آمَنَ ياقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ * ياقَوْمِ إِنَّما هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وإِنَّ الآخِرةَ هِيَ دارُ القَرارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَها ، ومَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وهُو مُؤْمِنٌ ، فأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بغَيْرِ حِسابٍ ﴾ [2] .

يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد الحق ، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ،ورغبهم في طلب الثواب عند الله الذي لايضيع عمل عامل لديه ، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه . الذي يعطي على القليل كثيراً ، ومن عدله لايجازي على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ، التي من وافاها ـ مؤمنا قد عمل الصالحات ـ فله الدراجات العاليات ، والغرف

---

(١) الأعراف الآية ١٢٩ .

(٢) غافر الآيات ٣٨ ـ ٤٠

الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لاتبيد ، والخير الذي كل مالهم منه في مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : ﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [1] .

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون .

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : ﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ .

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنها لاتملك من نفع ولا إضرار فقال : ﴿ لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي لاتملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار ؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم ، فيدخل طائعهم الجنة ، وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ .

قال الله : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ، ومكرهم في صدهم على سبيل الله ، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات ، التي ألبسوا بها على عوامهم وطعامهم ، ولهذا قال : ﴿ وحاق ﴾ أي أحاط ﴿ بآل فرعون سوء

---

(1) غافر الآيات ٤١ ـ ٤٦ .

العذاب * النارُ يعرضونَ عليها غدوًّا وعشيًّا ﴾ أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساء على النار . ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ أدخِلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ ﴾ وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية عل عذاب القبر في التفسير ، ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، وإرساله الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، بالترهيب تارة والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ ولقدْ أخذْنا آلَ فرعونَ بالسِّنينِ ونقْصٍ منَ الثمراتِ لعلَّهم يذَّكَّرونَ * فإذا جاءتْهم الحسَنةُ قالوا لنا هذهِ ،وإنْ تُصبْهُم سيئةٌ يطَّيَّروا بموسَى ومَنْ معَهُ ، ألاَ إنَّما طائرُهُم عِندَ اللهِ ولكنَّ أكثرَهُمْ لايعلَمونَ * وقالُوا مَهْما تأْتِنا بهِ منْ آيةٍ لتَسْحَرَنا بها فما نحنُ لكَ بمؤمِنينَ * فأرْسلْنا عليْهِمُ الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفصَّلاتٍ فاستَكبَروا وكانُوا قوما مُجْرِمينَ ﴾ [1] .

يخبر تعالي أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لايستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع . وقوله : ﴿ ونَقْصٍ منَ الثَّمراتِ ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ لعلَّهمْ يذَّكَّرُونَ ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ فإذَا جاءتْهم الحسَنةُ ﴾ والخصب ونحوه ﴿ قالُوا لَنَا هذهِ ﴾ أي هذا الذي نستحقه ،وهذا الذي يليق بنا ﴿ وإنْ تُصيبْهُم سيِّئةٌ يطَّيَّروا بموسَى ومَنْ معَهُ ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق ، إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى : ﴿ ألاَ إنَّما طائِرُهُم عِندَ اللهِ ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء . ﴿ ولكنَّ أكثرَهُم لايعلَمُونَ ﴾ .

﴿ وقالُوا مَهْما تأْتِينا بهِ منْ آيةٍ لتَسْحَرَنا بها فما نحنُ لكَ بمؤمِنينَ ﴾ أي مهما جئتنا به من الآيات - وهي الخوارق للعادات - فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية ، وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ إنَّ الذينَ حقَّتْ عليْهم كلمةُ ربِّكَ لايُؤمِنُونَ * ولَوْ جاءتْهُم كلُّ آيةٍ حتى يرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾ [2] .

---

(1) الأعراف آيات ١٣٠ - ١٣٣

(2) يونس الآيات ٩٦ ، ٩٧ .

قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهمُ الطوفان والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مُفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مُجرمينَ ﴾ أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثار ، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك ، وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت ، وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون على كل حال ،وعن ابن عباس : أمر طاف بهم .

وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحي بن يمان ، عن المنهال بن خليفة ، عن الحجاج ، عن الحكم بن ميناء ، عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « الطوفان الموت » وهو غريب .

وأما الجراد فمعروف ، وقد روى أبو داود عن أبي عثمان ، عن سلمان الفارسي ، قال : سئل رسول الله عن الجراد فقال : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » .وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذر له ، كما ترك أكل الضب ، وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث ، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفي قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا على ماورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زراعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة ، وقال سعيد بن جبير والحسن : هو دواب سود صغار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القُمل هي البراغيث . وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الحمنان ، وهو صغار القردان فوق القهامة ، فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف . وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف .

وأما الضفادع فمعروفة ، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع .

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً

ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة .

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة ،والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل ، وفي هذا أدل دليل .

قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ، ثم أبي إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين : فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون علي أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً ، حتى جهدوا جوعاً .

فلما بلغهم ذلك : ﴿ قالوا يامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [1] .

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم . فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغني ، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، نقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لي أن موسى عليه السلام ، أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمضى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملاً ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار .

فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه .

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دماً ، لايستقون من بئر ولا نهر ، ولا

---

(١) الأعراف الآية ١٣٤ .

يغترفون من إناء ، إلا عاد دماً عبيطاً . وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرعاف . رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ ولمّا وقع عليهمُ الرِّجزُ قالُوا ياموسَى ادعُ لَنا ربَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عنّا الرِّجْزَ لنُؤمِنَنَّ لَكَ ولَنُرسِلَنَّ مَعكَ بَنِي إسْرائِيلَ * فلمَّا كَشَفْنا عَنْهُم الرِّجْزَ إلَى أجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إذا هُم ينكثُونَ * فانْتَقمْنا مِنهُم فأغرقْناهم في اليَمِّ بأنّهم كذَّبُوا بآياتِنا وكانُوا عنْها غافِلِينَ ﴾ [1] .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة ،والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عياناً ،وجعلنا عليهم دليلاً وبرهاناً .

وكلما شاهدوا آية وعاينوها ، وجهدهم وأضنكهم ، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه ،وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون ويكذبون ، ويعدون ولا يفون : ﴿ لئِنْ كَشَفْتَ عنّا الرِّجْزَ لنُؤمِنَنَّ لَكِ ولَنُرسِلَنَّ مَعكَ بَنِي إسْرائِيلَ ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل .

هذا ، والعظيم الحليم القدير ، ينظرهم ولا يعجل عليهم ،ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإعذار إليهم ، أخذ عزيز مقتدر ، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلاً لمن اتعظ من عباده المؤمنين .

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين ، في سورة حم والكتاب المبين : ﴿ ولَقدْ أرْسَلْنَا مُوسَى بآيَاتِنا إلَى فِرْعَوْن ومَلَئِهِ فَقالَ إنِّي رَسُولُ ربِّ العَالمِينَ * فلمَّا جاءَهُم بآياتِنا إذَا هُمْ مِنْها يضْحَكُونَ * وما نُرِيهِم مِنْ آيةٍ إلاّ هِي أكْبَر مِنْ أُخْتِها ،وأخَذْناهُم بالعَذابِ لعلَّهُم يرْجِعُونَ * وقالُوا يا أيُّها السَّاحِرُ ادعُ لَنا ربَّك بِما عَهِدَ عِنْدَكِ إنّنا لَمُهْتَدونَ * فلمَّا كَشَفْنا عَنْهُم العَذابَ إذا هُم ينكثُونَ * ونادَى فِرعوْنُ في قَوْمِهِ قالَ ياقَوْمِ ألَيسَ لِي مُلْكُ مِصْر وهذه الأنْهارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى ، أفَلا تُبصِرُونَ * أمْ أنَا خَيْرٌ مِنْ هذا الَّذي هُوَ مَهينٌ ولا يَكادُ يُبينُ *

---

(١) الأعراف الآيات ١٣٤ ـ ١٣٦ .

فلَوْلا أُلقِيَ عليْه أسورةٌ مِنْ ذَهبٍ أوْ جاءَ مَعهُ الملائِكةُ مقْتَرِنينَ * فاسْتَخفّ قوْمَهُ فأطاعُوهُ ، إنَّهم كانُوا قوماً فاسِقِينَ * فلمَّا آسَفُونا انْتقمْنا مِنهُم فأغرقْناهُم أجْمَعِينَ * فجعَلْناهُم سَلَفاً ومَثَلاً للآخِرِينَ ﴾ [1] .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم ، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ،وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يصدون ، وعن الحق ينصرفون ، فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من التي تتلوها ، لأن التوكيد أبلغ مما قبله .

﴿ وأخَذْناهُم بالعَذابِ لَعلّهُم يَرْجِعُونَ * وقالُوا يا أيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لنَا ربَّكَ بمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إنّنا لمُهْتَدُونَ ﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ، لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ،ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى ﴿ فلَمَّا كَشَفْنا عَنْهمُ العَذابَ إذَا هُمْ ينْكُثُون ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها ، وتخرق الأنهار فيها ، وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجج بنفسه وحليته ، وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ، ويزدريه بكونه ﴿ لاَيكادُ يُبينُ ﴾ يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة ، التي هي شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه ، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه .

وتنقصه فرعون ـ لعنه الله ـ بكونه لا أساور في يديه ، ولا زينة عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء ، لايليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً ، وأتم معرفة ، وأعلى همة وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى ؟

وقوله : ﴿ أوْ جَاءَ مَعهُ الملائِكةُ مُقْتَرِنينَ ﴾ لايحتاج الأمر إلي ذلك ، فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة ، فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، كما جاء في الحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » فكيف يكون

---

(١) الزخرف الآيات ٤٦ ـ ٥٦

تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم !؟

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ،ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور ، وترك لُب اللباب ، وطبع على قلبه ،ب ا' يباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب .

قال الله تعالى : ﴿ فاسْتَخفَّ قومَه فأطَاعُوه ﴾ أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية ، لعنه الله وقبحهم ﴿ إنَّهمْ كانُوا قوماً فاسِقينَ * فلمَّا آسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا ﴿ انْتَقمْنا مِنْهُم ﴾ أي بالغرق والإهانة وسلب العز ،والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ،والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياذاً بالله وسلطانه القديم من ذلك .

﴿ فَجَعلْناهُم سَلَفاً ﴾ أي لمن اتبعهم في الصفات ﴿ ومَثَلاً ﴾ أي لمن اتعظ بهم : خاف من وبيل مصرعهم ، ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال الله تعالى : ﴿ فلمَّا جَاءَهُم مُوسَى بآياتِنَا بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذا إلاَّ سِحرٌ مُفْتَرى وما سَمِعْنا بهٰذا في آبائِنا الأوَّلينَ * وقالَ مُوسَى رَبِّي أعْلمُ بمَنْ جاءَ بالهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ومَنْ يَكونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ، إنهُ لايُفلحُ الظَّالمونَ * وقالَ فِرْعونُ يا أيُّها الملأُ ما عَلِمتُ لَكُم مِنْ إلٰهٍ غَيْري فأوْقِدْ لِي يَاهَامانُ عَلَى الطِّينِ فاجْعَل لِي صَرْحاً لَعلِّي أطَّلِعُ إلَى إلٰه مُوسَى وإنِّي لأظنُّه مِنَ الكَاذِبينَ * واسْتَكبرَ هُو وجُنُودهُ في الأرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ وظنُّوا أنَّهُم إليْنا لايُرْجعُونَ * فأخَذْناهُ وجُنُودهُ فَنَبذْناهُمْ في اليَمِّ ، فانْظُر كَيفَ كانَ عاقِبةُ الظَّالِمينَ * وجَعلْناهُم أئمَّةً يدْعُون إلَى النَّارِ ، ويَوْم القِيامَةِ لايُنْصرُونَ * وأتْبَعناهُم في هٰذهِ الدُّنْيا لَعنةً ، ويَوْم القِيامَةِ هُمْ مِنَ المقْبُوحِينَ ﴾ [1]

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ،و ادعى ملكهم الباطل ، ووافقوه عليه وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لايغالب ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم

(١) القصص الآيات ٣٦ ـ ٤٢ قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم : ما علمت لكم إلها غيري ، قال ابن عباس : كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله : « أنا ربكم الأعلى » أربعون سنة ، كذب عدو الله بل علم أن له هو خالقه ، وخالق قومه . راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢ / ٢٨٨) .

أشد الانتقام ،وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار ، بل كل قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ،ويوم القيامة هم من المقبوحين .

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول ،وهم مع ذلك لايرعوون ولا ينتهون ،ولا ينزعون ولا يرجعون .

ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة : وهم امرأة فرعون ـ ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ـ ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ،والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصا المدينة ، فقال : ﴿ يا مُوسَى إنَّ المَلأَ يأتَمِرُونَ بكَ ليقْتلُوكَ فاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١) .

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة ، فإنهم كانوا من القبط .

وقيل بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَما آمَنَ لِمُوسَى إلاَّ ذُرِّيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعونَ ومَلَئِهِم أنْ يفْتِنَهُم ، وإنَّ فِرْعَون لَعالٍ فِي الأرْضِ وإنَّه لَمِنَ المُسْرِفِينَ ﴾ (٢) .

فالضمير في قوله : ﴿ إلاَّ ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِه ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفيًا لمخالفتهم من فرعون وسطوته ،وجبروته وسلطته ، ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم .

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفي بالله شهيداً : ﴿ وإنَّ فِرْعَونَ لَعالٍ فِي الأرْضِ ﴾ أي

(١) القصص الآية ٢٠

(٢) يونس الآية ٨٢ .

جبار عنيد مشتغل بغير الحق ، ﴿ وإنّه لمن المسْرفِينَ ﴾ أي في جميع أموره وشئونه وأحواله ولكنه جرثومة قد حان انجعافها وثمرة خبيثة قد آن قطافها ، ومنهجة ملعونة قد حتم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : ﴿ يا قَوْمِ إن كُنتُم آمنتُم بالله فَعَلَيْهِ توكّلوا إنْ كُنتُم مُسْلمِينَ * فقالُوا عَلَى الله تَوكّلْنا ربّنا لا تَجْعلْنا فِتْنةً للقَوْم الظّالِمينَ * ونَجّنا برَحْمتِكَ مِنَ القَوْمِ الكافِرِينَ ﴾ [1] فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به ، والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً .

﴿ وأوْحَيْنا إلى مُوسَى وأخِيْهِ أنْ تَبوّءَا لِقَومِكُما بِمِصْرَ بيُوتاً واجعَلوا بيُوتكُم قِبْلَةً وأقِيمُوا الصّلاةَ ، وبَشِّرِ المؤْمِنينَ ﴾ [2] .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض . وقوله : ﴿ واجْعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً ﴾ قيل مساجد ، وقيل معناه كثرة الصلاة فيها .

قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النخعي والربيع والضحاك وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وغيرهم .

ومعناه على هذا : الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ واسْتَعِينُوا بالصّبْرِ والصّلاةِ ﴾ [3] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلي .

وقيل معناه : أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان ، الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملئه ، والمعنى الأول أقوى لقوله : ﴿ وبَشّرِ المؤْمِنينَ ﴾ وإن كان لاينافي الثاني أيضاً .. والله أعلم .

---

(١) يونس الآيات ٨٤ - ٨٦ .

(٢) يونس الآية ٨٧

(٣) البقرة الآية ٤٥

وقال سعيد بن جبير : ﴿ واجْعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً ﴾ أي متقابلة .

﴿ وقالَ مُوسَى ربَّنا إنَّكَ آتيتَ فِرْعَونُ ومَلأَهُ زِينَةً وأمْوالاً في الحَياةِ الدُّنيا ربَّنا ليُضِلُّوا عَنْ سَبيلِكَ ، ربَّنا اطْمِسْ علَى أمْوالِهِم واشْدُدْ علَى قلُوبِهِم فلا يُؤْمِنُوا حتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ * قالَ قَدْ أُجيبتْ دَعْوتُكُما فاسْتَقِيما ولا تَتَّبِعانِّ سَبيلَ الَّذِينَ لا يعْلَمُونَ ﴾[1] .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون ، غضباً لله عليه ، لتكبره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده ، واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي ، والبرهان القطعي ، فقال : ﴿ رَبَّنا إنَّكَ آتَيْتَ فِرْعونَ ومَلأَهُ ﴾ يعني قومه من القبط ، ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وأمْوالاً في الحَياةِ الدُّنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبيلِكَ ﴾ أي وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا ، فيحسب الجاهل أنهم على شيء ، لكن هذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمراكب الحسنة الهنية ، والدور الأنيقة والقصود المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتكين ، والجاه العريض في الدنيا لا الدين .

﴿ رَبَّنا اطْمِسْ عَلَى أمْوالِهِم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها . وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة ، وقال محمد بن كعب : جعل سكرهم حجارة ، وقال أيضاً : صارت أموالهم كلها حجارة ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : قم ائتني بكيس ، فجاء بكيس ، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة ! رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ واشْدُد عَلَى قُلُوبِهِم فلاَ يُؤْمِنُوا حتى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ ﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه .

فاستجاب الله تعالى لها ، وحققها وتقبلها ، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إنَّكَ إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً

---

(1) يونس الآيات ٨٨ ، ٨٩ .

كفاراً ﴾ [1] ولهذا قال تعالى مخاطباً لموسى حين دعا على فرعون وملئه ،وأمن أخوه هارون على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً : ﴿ قالَ قدْ أُجيبَتْ دَعْوتُكما فاسْتَقيما ولا تَتّبعانِّ سَبيلَ الذينَ لايعْلَمُون ﴾

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وإنما كان في نفس الأرض مكيدة بفرعون وجنوده ، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم .

وأمرهم الله تعالى ـ فيا ذكره أهل الكتاب ـ أن يستعيروا حليًا منهم ، فأعاروهم شيئاً كثيراً ، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم ، طالبين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق ، واشتد غضبه عليهم ، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم .

قال الله تعالى : ﴿ وأوْحينا إلَى مُوسَى أنْ أسْرِ بِعبَادِي إنَّكُم مُتَّبعونَ * فأرْسَلَ فِرْعونُ في المدَائِنِ حَاشِرينَ * إنَّ هؤلاءِ لَشِرذِمةٌ قَليلُونَ * وإنَّهُم لنَا لَغائظُونَ * وإنَّا لجَميع حاذِرُونَ * فأخْرَجناهُم منْ جَنَّاتٍ وعُيونٍ * وكنُوزٍ ومَقامٍ كَريم * كذلكَ وأوْرثْناها بَني إسْرائيلَ * فأتْبعُوهُم مُشْرقينَ * فلمَّا تَرَاءَى الجَمْعانِ قالَ أصْحابُ مُوسَى إنَّا لمدْرَكونَ * قالَ كلاَّ ، إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدينِ * فأوْحَيْنا إلَى مُوسَى أن اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ ، فانْفَلقَ فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العَظِيم * وأزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرِينَ * وأنْجَينا مُوسَى ومَنْ مَعهُ أجْمعينَ * ثمَّ أغْرقْنا الآخَرِينَ * إنَّ في ذلكَ لآيةً ، وما كانَ أكْثَرهُم مُؤْمِنينَ * وإنَّ ربَّكَ لَهُو العَزيزُ الرَّحيمُ ﴾ [2] .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم ، حتى قيل كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنود تزيد على ألف ألف وستمائة ألف ، فالله أعلم ، وقيل إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير

---

(١) نوح الآيات ٢٦ ،٢٧

(٢) الشعراء الآيات ٥٢ ـ ٦٨

الذرية . وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود ، فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراءى الجمعان ، ولم يبق ثم ريب ولا لبس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة . فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ،وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعَدَدِه وعُدَده ، وهم منه في غاية الخوف والذعر ، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر .

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه . فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : ﴿ كلاً ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ وكان في الساقة ، فتقدم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه ، وهو يقول : هاهنا أمرت . ومعه أخوه هارون ، ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار ،وقد أوحى الله إليه وجعله نبيًا بعد موسى وهارون عليهما السلام ، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف . ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر ، هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن ، ويقول لموسى عليه السلام : يانبي الله .. هاهنا أمرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم ، وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ، رب العرش الكريم ، إلى موسى الكليم : ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ . فلما ضربه ، يقال إنه قال له : انفلق بإذن الله . ويقال : إنه كناه بأبي خالد .. والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ويقال إنه انفلق اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق يسيرون فيه ، حتى قيل إنه صار فيه أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً ! وفي هذا نظر ، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه .

وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول

للشيء كن فيكون ، وأمر الله ريح الدبور فلفحت حال البحر فأذهبته ، حتى صار يابساً لايعلق في سنابك الخيول والدواب .

قال الله تعالى : ﴿ ولَقدْ أوْحَينا إلَى مُوسَى أنِ أسْرِ بِعبادِي فاضْرِبْ لَهُم طَرِيقاً في البَحْرِ يَبساً لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخْشَى * فأتْبعَهُم فِرعَونُ بجنُودِه فغشِيَهمْ مِن اليمِّ ما غَشِيهُم * وأضَلَّ فِرْعونُ قَومَه وما هَدَى ﴾ [١] .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال ، فبإذن الرب العظيم الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم مايحير الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين . فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه ،وانفصلوا عنه ، وكان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه .

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه . لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما قال وهو الصادق في المقال : « ولَقَدْ فَتنَّا قَبْلَهُم قَومَ فِرْعونَ وجاءَهُم رسُولٌ كَريمٌ * أنْ أدُّوا إليَّ عِبادَ اللهِ ، إنِّي لَكُم رسُولٌ أمينٌ * وأنْ لاتَعْلُوا عَلَى اللهِ ، إنِّي آتيكُم بِسُلطانٍ مُبينٍ * وإنِّي عذْتُ بِرَبِّي وربكُم أنْ تَرْجُمُونِ * وإنْ لَمْ تؤْمِنُوا لِي فاعْتَزِلُونِ * فدَعا ربَّه أنَّ هٰؤلاءِ قَوْمٌ مُجرِمُونَ * فأسْرِ بِعبَادِي لَيْلاً إنَّكُم مُتَّبعُونَ * واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً ، إنَّهمْ جُنْدٌ مُغرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وعُيونٍ * وزُروعٍ ومَقامٍ كَريمٍ * ونَعْمةٍ كانُوا فِيهَا فاكِهِينَ * كَذٰلكَ وأوْرَثْناهَا قَوماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَليْهِمُ السَّماءُ والأرْضُ وما كانُوا مُنْظَرِينَ * ولَقدْ نَجَّيْنا بَني إسْرائيلَ مِنَ العَذابِ المهِينِ * مِنْ فِرْعَونَ ، إنَّه كانَ عالياً مِنَ المُسْرِفِينَ * ولَقد اخْتَرناهُم عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ * وآتَيْناهُم مِنَ الآياتِ مافِيهِ بلاءٌ مُبينٌ » [٢] .

فقوله تعالى : ﴿ واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً ﴾ أي ساكناً على هيئته ، لايُغيِّره عن هذه الصفة .

---

(١) طه الآيات ٧٧ ـ ٧٩

(٢) الدخان الآيات ١٧ ـ ٣٣

قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون ، فرأى ما رأى ، وعاين ما عاين ، هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لاينفعه الندم ، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي ، الخارجين على طاعتي وبلدي ؟ وجعل يورى في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات !

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة حائل فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله ، فحمحم إليها وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر ، واستبق الجواد وقد أجاد ، فبادر هذا وفرعون لايملك من نفسه ضراً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين ، حتى هَمّ أولهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر . فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينج منهم إنسان .

قال تعالى : ﴿ **وأنْجَينا مُوسَى ومَنْ مَعهُ أجْمَعِينَ * ثمّ أغْرَقْنا الآخَرِينَ * إنّ في ذلكَ لآيةً ، ومَا كانَ أكْثرهُم مُؤْمِنِينَ * وإنّ ربّكَ لَهُو العزِيزُ الرّحِيمُ** ﴾ [1] أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد . وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد ، آيه عظيمة ، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : ﴿ **وجَاوَزْنا ببَنِي إسْرائيلَ البَحْر فأتْبعَهُم فِرْعونُ وجنُودُه بغْياً وعَدْواً ، حتّى إذا أدْرَكه الغَرَق قالَ آمنْتُ أنّه لاَ إلَـهَ إلاّ الّذي آمَنتْ بهِ بَنُو إسْرائيل وأنَا مِنَ المسْلمِينَ * الآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قبلُ وكُنتَ مِنَ المفْسِدينَ * فاليَوْم نُنجّيكَ ببَدنكَ لتَكونَ لمَنْ**

---

(١) سورة الشعراء آيات ٦٥ ـ ٦٨ .

خَلْفك آيةً ، وإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لغافِلُونَ ﴾ [1] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل ، وأشفي لنفوسهم . فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب ، وآمن حين لاينفع نفساً إيمانها ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ حقَّتْ عَليْهِم كَلِمةُ رَبِّكَ لايؤْمِنونَ * ولَوْ جاءَتْهمْ كلُّ آيَةٍ حتَّى يَروُا العَذابَ الأَلِيمَ ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ فلمَّا رأَوْا بأْسنا قالُوا آمنَّا باللهِ وحْدَه وكَفَرنا بِمَا كنَّا بِهِ مُشْركِينَ * فلَمْ يكُ ينْفَعهُم إيمانُهُم لَمَّا رأَوْا بأْسَنا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتي قَدْ خلَتْ في عِبادِه ، وخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُونَ ﴾ [3] .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه ، أن يطمس على أموالهم ، ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، أي حين لاينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم . وقد قال تعالى لهما ـ أي لموسى وهارون ـ حين دعوا بهذا : ﴿ قَدْ أُجِيبتْ دَعْوتكُما ﴾ [4] فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليه وأخيه هارون عليهما السلام .

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون ﴿ آمنْتُ أنَّه لاَ إلَهَ إلاَّ الَّذي آمَنتْ به بَنُو إسْرائيل ﴾ قال لي جبريل : لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه ، مخافة أن تناله الرحمة » !

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الآية من حديث حماد بن سلمة ، وقال

---

(١) يونس الآيات ٩٠ ـ ٩٢

(٢) يونس الآيات ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) غافر الآيات ٨٤ ، ٨٥

(٤) يونس الآية ٨٩ .

الترمذي : حديث حسن .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت ، وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي . عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته : ﴿ آمنتُ أنَّه لاَ إلَـهَ إلاَّ الَّذي آمَنتْ به بَنُو إسْرائيل ﴾ قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه ، فيضرب به وجهه فيرمسه ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به .

ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شعبة ، وقال الترمذي : حسن غريب صحيح . وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه .

وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف ،وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل عليه السلام : يامحمد .. لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه ، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » يعني فرعون .

وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران ، ويقال إن الضحاك بن قيس خطب به الناس ، وفي بعض الروايات أن جبريل قال : « ما بغضت أحداً بغضي لفرعون حين قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [1] ولقد جعلت أدس في فيه الطين حين قال ماقال » .

وقوله تعالى : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ استفهام إنكار ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك ، لأنه - والله أعلم - لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ يَالَيتَنَا نُرَدّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ [2] قال الله : ﴿ بَلْ بَدا لَهُم مَا كَانُوا يُخفُونَ مِنْ قَبْل ،

---

(١) النازعات الآية ٢٤ .

(٢) الأنعام الآية ٢٧

ولوْ رُدُّوا لَعادُوا لِمَا نُهُوا عَنهُ وإنَّهمْ لكَاذِبُونَ ﴾ [1] وقوله : ﴿ فاليَوْم نُنَجّيكَ بِبَدنِكَ لِتَكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً ﴾ .

قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بني إسرائيل في موت فرعون ، حتى قال بعضهم إنه لايموت ، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع ، قيل على وجه الماء ، وقيل على نجوة من الأرض ، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه . ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : ﴿ فاليَومَ نُنَجّيكَ ببَدنِكَ ﴾ أي مصاحباً درعك كالمعروفة بك : ﴿ لِتَكونَ ﴾ أي أنت آية ﴿ لِمَنْ خَلفَكَ ﴾ أي من بني إسرائيل ، ودليلا على قدرة الله الذي أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف : « لتكون لمن خلقك آية » ويحتمل أن يكون المراد : ننجيك بجسدك مصاحباً درعك ، لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت .. والله أعلم ، وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء .

كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدنية واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ماهذا اليوم الذي تصومونه » ؟ فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . قال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » .

وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما .. والله أعلم .

---

(١) الأنعام الآية ٢٨ .

أمر بنى اسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين* وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ [1] .

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم ، وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم ، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم ، كما قال : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [2] وقال : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ [3] وقال هاهنا : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ،ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ .

أي أهلك ذلك جميعه ، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا ، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا .

ذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر : أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها ، بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة ، فكانت لهن السطوة عليهم . واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا ! .

---

(١) الأعراف الآيات ١٣٦ ـ ١٤١

(٢) الشعراء الآية ٥٩ .

(٣) القصص الآية ٥ .

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح أهل كل بيت حملاً من الغنم ، فإن كانوا لايحتاجون إلى حمل فليشترك الجار وجاره فيه . فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ، ليكون علامة لهم على بيوتهم ، ولا يأكلونه مطبوخاً ، ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ، ولا يبقوا منه شيئاً ، ولا يكسروا له عظماً ، ولا يخرجوا منه شيئاً إلى خارج بيوتهم ، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم ، وكان ذلك في فصل الربيع فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة ،وخفافهم في أرجلهم ، وعصيهم في أيديهم ، وليأكلوا بسرعة قياماً ، ومهما فضل عن عشائهم فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار ، وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها ، فإذا نسخت بطل شرعها . وقد وقع .

قالوا : وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ، ليشتغلوا عنهم ، وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار ، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلا فيه عويل .

وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين ، فحملوا العجين قبل اختماره ، وحملوا الأردية وألقوها على عواتقهم ، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً ، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري بما معهم من الأنعام ،وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة .. هذا نص كتابهم .

وهذه السنة عندهم تسمى سنة « الفسخ » وهذا العيد الفسخ : ولهم عيد « الفطر » وعيد « الحمل » وهو أول السنة ، وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم ، منصوص عليها في كتابهم .

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام ، وخرجوا على طريق بحر يوسف ، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور ، والليل أمامهم عمود نار ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك ، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين ، وهم هناك حلول على شاطئ اليم ، فقلق كثير من بني إسرائيل ، حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية . فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لاتخشوا فإن فرعون وجنوده لايرجعون إلى بلدهم بعد هذا .

قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس ، وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين ، وصار وسطه يبساً ، لأن

الله سلط عليه ريح الجنوب والسموم فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه ، فرجع الماء كما كان عليهم لكن عند أهل الكتاب : أن هذا كان في الليل ، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح . وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم .. والله أعلم .

قالوا : ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذ سبح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب ، وقالوا : « نسبح الرب البهي ، الذي قهر الجنود ، ونبذ فرسانها في البحر الأنيع المحمود » وهو تسبيح طويل .

قالوا : وأخذت مريم النبية ـ أخت هارون ـ دفاً بيدها ،وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول ، وجعلت مريم ترتل لهن وتقول : سبحان الرب القهار ، الذي قهر الخيول وركبانها إلقاء في البحر .

هكذا رأيته في كتابهم . ولعل هذا هو من الذي حمل محمد بن كعب القرظي على زعمه : أن مريم بنت عمران أم عيسى . هي أخت هارون وموسى . مع قوله : ﴿ ياأُخْتَ هارُونَ ﴾ [1] .

وقد بينا غلطه في ذلك ، وأن هذا لايمكن أن يقال ،.ولم يتابعه أحد عليه ، بل كل واحد خالفه فيه . ولو قدر أن هذا محفوظ ، فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام . وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ ، لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة ، لما سأله أهل نجران عن قوله : ﴿ يا أُخْتَ هَارُون ﴾ فلما يدر ما يقول لهم : حتى سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم » رواه مسلم .

وقولهم : « النبية » كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة ، ومن بيت الإمرة أميرة ، وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك ، فكذا هذه استعارة لها ، لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها .

وضربها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلها ضرب الدف في العيد ، وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء : لحديث الجاريتين

---

(١) مريم الآية ٢٨

اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدف في أيام منى ، ورسول الله ﷺ مضطجع مول ظهره إليهن ، ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال « دعهن يا أبا بكر .. فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » وهكذا يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب ، كما هو مقرر في موضعه .. والله أعلم .

وذكروا أنهم لما جازوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لايجدون ماء ، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك ، فوجدوا ماء زعافاً أجاجاً لم يستطيعوا شربه ، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه ، فحلا وساغ شربه ،وعلمه الرب هنالك فرائض وسننا ، ووصاه وصايا كثيرة .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهين على ماعداه من الكتب : ﴿ وجَاوَزْنا ببَني إسْرائيلَ البَحْرَ فأتَوْا علَى قَوْمٍ يعكُفُون عَلَى أصْنامٍ لَهُم ، قالُوا يامُوسَى اجْعَل لَنا إلَهاً كَما لَهُمْ آلِهةٌ ، قالَ إنَّكُم قَومٌ تَجْهلونَ * إنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وباطِلٌ ما كانُوا يعْمَلونَ ﴾ [1] .
قالوا هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته مادلهم على صدق ماجاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناماً ، قيل كانت على صور البقر ، فكأنهم سألوهم . لم يعبدونها ؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضروريات ، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم مبيناً لهم إنهم لايعقلون ولا يهتدون : ﴿ إنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وباطِلٌ ما كانُوا يعْمَلونَ ﴾ .

ثم ذكرهم نعمة الله عليهم ، في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع ،والرسول الذي بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ،وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسعادة ،وما كانوا يعرشون ، وبين لهم أنه لاتصلح العبادة إلا لله وحده لاشريك له ، لأنه

---

(١) الأعراف الآيات ١٣٨ ، ١٣٩

الخالق الرازق القهار، وليس كل بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله: ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً ﴾ [1] فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلنا: يارسول الله .. اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر .. هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم».

ورواه النسائي عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري به، ثم قال: حسن صحيح.

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق ومعمر وعقيل عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين. قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم. يقال لها: «ذات أنواط» قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يارسول الله .. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾.

والمقصود أن موسى عليه السلام، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين، من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم.

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا

---

(١) الكهف الآيات ٤٧، ٤٨

عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف ، وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون ، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإذ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ياقَوْمِ اذْكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنبياءَ وجَعَلكم مُلوكاً وآتاكُم مالَمْ يُؤتِ أحداً مِنَ العالَمِينَ * ياقَوْمِ ادْخُلوا الأرْضَ المقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُم ولاَ تَرتَدُّوا علَى أدْبارِكُم فتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ * قالُوا يامُوسَى إنَّ فِيها قَوماً جَبَّارِينَ وإنَّا لَنْ نَدْخُلَها حتَّى يَخْرُجوا مِنْها فإنْ يَخْرُجُوا مِنْها فإنَّا داخِلُونَ * قالَ رجُلانِ مِنَ الَّذِين يخافُون أنْعَمَ اللهُ عليْهِما ادْخلُوا عَليهِمُ البابَ فإذا دَخلْتُموهُ فإنَّكم غالِبُونَ ، وعلَى اللهِ فتَوكَّلُوا إنْ كنْتُم مُؤْمِنِينَ * قالُوا يامُوسَى إنَّا لنْ نَدْخلَها أبداً ما دامُوا فِيها ، فاذْهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا إنَّا هاهُنا قاعِدونَ * قالَ رَبِّ إنِّي لا أمْلِكُ إلاَّ نَفْسِي وأخِي ، فافْرُق بيْنَنا وبيْنَ القَوْمِ الفاسِقِينَ * قالَ فإنَّها مُحرَّمةٌ عليْهِم أرْبعينَ سَنةً ، يَتيهُونَ في الأرْضِ ، فلا تأْسَ علَى القَوْمِ الفاسِقِين ﴾ (1) .

يذكرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : ﴿ ياقَوْمِ ادْخُلوا الأرضَ المقَدَّسَةَ التِي كَتبَ اللهُ لَكُم ولا تَرتَدُّوا عَلى أدْبارِكُم ﴾ أي تنكصوا على أعقابكم ، وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ ﴾ أي فتخسروا بعد الربح ، وتنقصوا بدع الكمال .

﴿ قالُوا يامُوسَى إنَّ فيها قَوماً جبَّارِينَ ﴾ أي عتاة كفرة متمردين ﴿ وإنَّا لنْ نَدْخُلَها حتَّى يَخْرجُوا مِنْها فإنْ يَخْرُجُوا مِنْها فإنَّا داخِلُون ﴾ خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً ، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً . وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة ، من الذلة عن مصاولة الأعداء ، ومقاومة المردة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة ، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ، ويلقهم في أكامه وحجزة سراويله ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال : ما هؤلاء ؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتى عرفوه . وكل هذه هذيانات وخرافات لاحقيقة لها .

---

(1) المائدة الآيات ٢٠ ـ ٢٦ .

وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجل ، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح .

وذكروا هاهنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلي بني إسرائيل ليهلكهم ،وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع .

هكذا ذكره البغوي وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

قالوا : فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى ، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق . ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشر أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله .

يروى هذا عن نوف البكالي ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر ، ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ،وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل ، فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم ، وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام ، ويقال : إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس ، وغير واحد .

﴿ قالاَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ ﴾ أي يخافون الله ، وقرأ بعضهم : ﴿ يُخَافون ﴾ أي يهابون : ﴿ أَنْعَم اللهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ ادْخلُوا عليهمُ البابَ فإذَا دخَلتمُوهُ فإنَّكُمْ غالِبُونَ ، وعلَى اللهِ فتَوكَّلوا إنْ كنْتُم مُؤْمِنينَ ﴾ أي إذا توكلتم على الله ، واستعنتم به ولجأتم إليه ، نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم .

﴿ قالُوا ياموسَى إنَّا لَنْ نَدْخلَها أبداً ما دامُوا فِيهَا ، فاذْهَب أنْتَ وربُّكَ فقاتِلا إنَّا هَاهُنا قاعِدُونَ ﴾ فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ، ووقع أمر عظيم ووهن كبير ، فيقال : إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما ،وإن موسى وهارون سجدا إعظاماً لهذا الكلام وغضبا لله عز وجل ، وشفقة عليهم من وبيل المقالة .

﴿ قالَ ربِّ إنّي لا أمْلِكُ إلاّ نَفْسي وأخِي ، فافْرُق بَيْنَنا وبيْن القَوْمِ الفاسِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : اقض بيني وبينهم : ﴿ قالَ فإنَّها مُحرَّمةٌ عَليْهِمْ أرْبَعينَ سَنةً ، يَتيهُون في الأرْضِ ، فلا تَأْسَ علَى القَوْمِ الفَاسِقِين ﴾ عوقبوا على نكالهم بالتيهان في الأرض ، يسيروا إلى غير مقصد . ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً . ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله ، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ، ولم يبق إلا ذراريهم ، سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى ، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن وتكلم غيره من المهاجرين .

ثم جعل يقول : « أشيروا عليَّ » حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله ؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنَّا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي ، عن طارق - هو بن سهاب - أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله .. إنا لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذْهَب أنْتَ وربُّك فَقَاتِلا إنَّا هَاهُنا قاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون . وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ،وله طرق أخرى .

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، لقد شهدت من المقداد مشهداً ، لأن أكون أنا صاحبه ، أحب إلي مما عدل به ، أتي رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله يارسول الله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذْهَبْ أنْتَ وربُّك فقَاتِلا إنَّا هَاهُنا قاعِدُونَ ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك . رواه البخاري في التفسير ،والمغازي من طرق عن مخارق به .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا على بن الحسين بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري : حدثنا حميد عن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما سار

إلى بدر ، استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يامعشر الأنصار .. إياكم يريد رسول الله ﷺ : قالوا : إذن لانقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذْهَب أنْتَ وربُّكَ فقاتِلا إنَّا هاهُنا قاعِدونَ ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك .

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس به ، ورواه النسائي عن محمد بن المثني ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد ، عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى ، عن عبد الأعلى عن معتمر ، عن حميد ، عن أنس به نحوه .

دخول بني اسرائيل التيه

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنهم لايخرجون منه إلى أربعين سنة .

ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نكولهم عن قتال الجبارين ، ولكن فيها : أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار ، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة ، ورفع موسى عصاه ، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم ، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام.وعندهم أن (يثرون) كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ، ومعه ابنته « صفورا » زوجة موسى ، وابناها منه ، « جرشون » و« عازر » فتلقاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلوه .

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم ، فأشار

على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء ، يبغضون الرشاء والخيانة ، فيجعلهم على النـــاس رءوس ألـوف ، ورءوس مئين ، ورءوس خمسين ، ورءوس عشرة ، فيقضـوا بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاءوك ففصلت بينهم ما أشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا : ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء ، في الشهر الثالث من خروجهم من مصر ،وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم ، وهي أول فصل الربيع ، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف .. والله أعلم .

قالوا : ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء ، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه ، وأمره أن يذكر بني إسرائيل ما أنعم به عليهم ، من إنجائه إياهم من فرعون وقومه ، وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته ، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ، ولا يقتربن أحد منهم إليه ، فمن دنا منه قتل ، حتى ولا شيء من البهائم ، ماداموا يسمعون صوت القرن فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه . فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا .

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة ، وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد جداً . ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل ، وغشي الجبل دخان عظيم في وسطه عمود نور زلزل الجبل كله زلزلة شديدة ، واستمر صوت الصور ، وهو البوق واشتد ، وموسى عليه السلام فوق الجبل ، والله يكلمه ويناجيه ، وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فيأمر بين إسرائيل أن يتقربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ، وأمر الأحبار ، وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ، ليتقدموا بالقرب .

وهذا نص في كتابهم على وقوع النسخ لا محالة .

فقال موسى : يارب .. إنهم لايستطيعون أن يصعدوا ، وقد نهيتهم عن ذلك ، فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون ، ولكن الكهنة وهم العلماء ، والشعب وهم بقية بني إسرائيل ، غير بعيد ففعل موسى .

وكلمه ربه عز وجل ، فأمره حينئذ بالعشر الكلمات .

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله ، ولكن لم يفهموا حتى فهمهم موسى ،وجعلوا يقولون لموسى : بلغنا أنت عن الرب عز وجل ؛ فإنا نخاف أن نموت .

فبلغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات . وهي : الأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، والنهي عن الحلف بالله كاذباً ، والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصل بيوم الجمعة الذي نسخ الله به السبت ، أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض . الذي يعطيك الله ربك . لاتقتل . لاتزن . لاتسرق . لاتشهد على صاحبك شهادة زور . لا تعمد عينك إلي بيت صاحبك ، ولا تشته امرأة صاحبك ، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً من الذي لصاحبك .. ومعناه النهي عن الحسد .

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم : مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن ، وهما قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّم رَبُّكُم عَلَيْكُم ، ألاَّ تُشْركُوا به شَيْئاً ، وبالوَالِدَيْن إحْسَاناً ، ولا تَقْتلُوا أوْلادَكُم مِنْ إمْلاقٍ ، نَحْنُ نرْزقُكُم وإيَّاهُم ، ولا تَقْرَبُوا الفَواحشَ ما ظَهَر مِنْها وما بَطَن ، ولا تَقْتلُوا النَّفسَ الَّتي حرَّم اللهُ إلاَّ بالحَقّ ، ذَلكُم وصَّاكُم بهِ لَعلَّكُمْ تعْقِلونَ * ولا تَقْربُوا مالَ اليَتيمِ إلاَّ بالَّتي هِيَ أَحْسنُ حتَّى يبْلغَ أشُدَّه ، وأوْفُوا الكَيلَ والمِيزانَ بالقِسْطِ ، لانُكلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ، وإذا قُلْتم فاعْدِلوا ولو كانَ ذاَ قُرْبَى ، وبعَهْد اللهِ أوفُوا ، ذَلكُم وصَّاكُم بهِ لعلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وأنَّ هَذا صِراطِي مُسْتقِيماً فاتَّبِعوهُ ، ولا تتَّبعُوا السُّبلَ فتَفرَّق بكُمْ عَنْ سَبيلِه ، ذَلكُمْ وصَّاكُم بهِ لعلَّكُم تتَّقُونَ ﴾ [1] .

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة ، كانت فزالت ، وعمل بها حيناً من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ، ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها ، ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة ، بعد ما كانت مشروعة مكملة .

فلله الأمر من قبل ومن بعد ،وهو الذي يحكم ما يشاء ، ويفعل مايريد ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يابَنِي إسْرائيلَ قَدْ أَنْجيناكُم مِنْ عَدوِّكُم ووَاعدْناكُم جانِبَ الطُّور

---

(١) الأنعام الآيات ١٥١ - ١٥٣ .

الأيمنِ ونزّلنا عَليْكُم المنّ والسّلْوى * كلُوا مِنْ طيّبَاتِ ما رَزقْناكُم ولا تَطغوْا فِيهِ فَيحلَّ عليْكُم غضَبِي ، ومَنْ يَحْلِل عليْهِ غضَبِي فَقدْ هَوَى * وإنّي لَغفارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِل صالحاً ثمّ اهْتَدي ﴾ [1] .

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمنِ أي منهم ، لينزل عليه أحكاماً عظمية فيا مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس ليها زرع ولا ضرع ، منّا من السماء ، يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم ، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز ،وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى ، فيقتنصون منها بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم .

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام ، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر ، كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يابَنِي إسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الّتي أنْعمتُ عَليْكُم وأوفُوا بعَهْدِي أُوفِ بعَهْدِكُم وإيّايَ فارهَبُونِ * وآمنُوا بمَا أنْزلتُ مُصدّقاً لمَا مَعَكُم ولا تَكُونُوا أوّلَ كافِرٍ بهِ ، ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمناً قَليلاً وإيّايَ فاتّقُون ﴾ [2] .

إلى أن قال : ﴿ وإذْ نَجّيْناكُم مِنْ آلِ فِرعَونَ يَسُومُونكُم سُوءَ العَذابِ يُذبّحونَ أبْناءَكُم ويسْتَحيُون نِساءَكُم ، وفِي ذٰلكُم بَلاءٌ مِنْ ربّكُم عَظيمٌ * وإذْ فَرقْنا بِكُم البَحْر فأنْجَيناكُم وأغرقْنا آلَ فِرعَونَ وأنْتُم تنْظرُونَ * وإذْ واعَدْنا مُوسَى أرْبعينَ ليلةً ثُمّ اتّخذتُم العِجْلَ مِنْ بَعْده وأنْتُم ظَالمونَ * ثُمّ عَفَونا عنْكُم مِنْ بَعْد ذٰلكَ لَعلّكُم تشْكُرونَ * وإذْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ والفُرقانَ لَعلّكُمْ تَهتَدونَ * وإذْ قالَ مُوسَى لِقوْمِهِ ياقَوْمِ إنّكُم ظَلَمْتُم أنْفُسكُم باتّخاذِكُمُ العِجْل فتُوبُوا إلَى بَارِئِكُم فَاقْتلُوا أنْفُسكُم ، ذٰلكُم خَيرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئكُم فَتابَ عليْكُم ، إنّه هُو التّوابُ الرّحِيمُ * وإذْ قُلتُم يامُوسَى لَن نُؤْمِنَ لَكَ حتّى نَرَى اللهَ جَهرةً فأخَذتْكُم الصّاعقةُ وأنتُمْ تنْظرُونَ * ثُمّ بَعثْناكُم مِنْ بَعدِ موْتِكُم لعلّكُم تَشْكُرُونَ * وظلّلْنَا عليْكُمُ الغَمامَ وأنْزَلنا

---

(1) طه الآيات ٨١ ـ ٨٣ .

(2) البقرة الآيات ٤٠ ، ٤١

عليكُم المنّ والسّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم ، وما ظَلَمُونا ولكن كانُوا أنفُسَهمْ يظْلِمون ﴾ [1] .

إلى أنْ قالَ : ﴿ وإذ اسْتَسْقى مُوسَى لِقوْمِهِ فقلْنا اضْرِبْ بعصاك الحَجَر ، فانْفَجرتْ مِنهُ اثْنتَا عَشْرةَ عَيْناً ، قَدْ عَلمَ كلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُم ، كلُوا واشْربُوا مِنْ رِزقِ اللهِ ولا تَعْثَوا في الأرْضِ مُفْسدينَ * وإذْ قُلتُم يامُوسَى لَنْ نَصبرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فادْعُ لنَا ربَّك يُخرِجْ لَنا مِمَّا تُنبِتُ الأرْضُ مِنْ بَقْلها وقثّائِها وفُومِها وعَدَسِها وبَصَلِها ، قالَ أتسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُو أدْنَى بالَّذي هُو خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْراً فإنَّ لَكَم ما سَألْتُم ، وضُرِبَتْ عَليهِمُ الذِّلَّة والمسْكَنةُ وباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذلكَ بأنَّهُم كانُوا يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ ويقْتلُونَ النَّبِيِّين بغَيْرِ الحَقّ ، ذلك بِمَا عَصوْا وكانُوا يعْتَدونَ ﴾ [2] .

فذكر تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بما يسر لهم من المن والسلوى ، طعامَيْن شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه ، بل ينزل الله المنّ باكراً ، ويرسل عليهم طير السلوى عشيًّا ، وأنبع الماء لهم ، بضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا ، فتتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط عين منه تنبجس ، ثم تنفجر ماء زلالا فيستقون فيشربون ويسقون دوابهم ، ويدخرون كفايتهم ، وظلل عليهم الغمام من الحر .

وهذه نعم من الله عظيمة ، وعطيات جسيمة ، فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .

فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً : ﴿ أتسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُو أدْنَى بالَّذي هُو خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْراً فإنَّ لَكُم ما سَألْتُم ﴾ أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه

(1) البقرة الآية ٤٧ ـ ٥٧) .

(2) البقرة الآيات ٦٠ ، ٦١

النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها ، وإذا هبطتم بها ما تشتهون وما ترومون بما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى .

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم ، تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عليْكُم غَضَبِي ، ومنْ يَحْلِلْ عليْه غَضَبِي فَقدْ هَوَى ﴾ أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبار .

ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد ، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد ، فقال : ﴿ وإنِّي لَغفَّارٌ لمنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالحاً ثُمَّ اهْتَدى ﴾ .

سؤال الرؤية

قال تعالى : ﴿ ووَاعَدْنا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيلةً وأتْمَمناها بعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ ربِّه أرْبَعينَ لَيلةً ، وقالَ مُوسَى لأخِيهِ هارُونَ اخْلُفْني في قَوْمِي وأصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سَبيلَ المُفْسِدينَ * ولمَّا جاءَ مُوسَى لمِيقَاتِنا وكلَّمهُ ربُّه قالَ ربِّ أرِني أنْظُر إليْكَ ، قالَ لَنْ تَراني ولكنْ انْظُر إلَى الجَبَلِ فإن اسْتَقَرَّ مَكانَه فَسَوفَ تَراني ، فلمَّا تَجلَّى ربُّه للْجَبَلِ جَعَلَهُ دكاً وخرَّ مُوسَى صَعِقاً ، فلمَّا أفاقَ قالَ سُبْحانكَ تُبتُ إليكَ وأنَا أوَّلُ المؤْمِنِينَ * قالَ يامُوسَى إنِّي اصْطَفيتُك علَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وبكلامِي فَخذْ ما آتَيتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكرينَ * وكَتبْنا له في الألْواحِ مِنْ كلِّ شيءٍ مَوْعِظةً وتفْصِيلاً لِكلِّ شَيءٍ فخُذْها بقُوةٍ وأْمُر قَومك يأخذُوا بأحْسَنِها ، سأُوريكُم دَارَ الفَاسِقِينَ * سأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتكبَّرونَ في الأرْضِ بغَيرِ الحَقِ وإنْ يَروْا كلَّ آيةٍ لايؤْمِنُوا بِها وإنْ يَروْا سَبيل الرُّشْد لايتَّخِذوهُ سَبيلاً وإنْ يَروْا سَبيلَ الغَيِّ يتَّخِذُوهُ سَبيلاً ، ذلكَ بأنَّهمْ كذَّبوا بآيَاتِنا وكانُوا عَنْها غافِلينَ * والذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطتْ أعْمالُهُم ، هَلْ يُجزَونَ إلاَّ ما كانُوا يعْمَلونَ ﴾ (١) .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة .

(١) الأعراف الآيات ١٤٢ ـ ١٤

فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر ، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحمد ﷺ دينه ، وأقام حجته وبراهينه .

والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات ، وكان فيه صائماً يقال إنه لم يستطعم الطعام ، فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمره الله أن يمسك عشراً أخرى ، فصارت أربعين ليلة . ولهذا ثبت في الحديث : أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون ، المحبب المبجل الجليل . وهو ابن أمه وأبيه ، ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه ، فوصاه ، وأمره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة .

قال الله تعالى : ﴿ ولمّا جاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أي في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿ وكلّمهُ ربُّه ﴾ أي كلمه الله من وراء حجاب ، إلا أنّه أسمعه الخطاب ، فناداه وناجاه ، وقربه وأدناه ، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ، ومنصب شريف ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه تترى ، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى .

ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية ، وسمع الخطاب ، سأل رفع الحجاب ، فقال للعظيم الذي لاتدركه الأبصار القويّ البرهان : ﴿ ربِّ أرنِي أنْظُر إلَيْكَ ، قالَ لَنْ تَرانِي ﴾ ثم بين تعالى أنه لايستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان ، لايثبت عند التجلي من الرحمن . ولهذا قال : ﴿ ولَكِنِ انْظُر إلَى الجَبَلِ فإنِ اسْتَقرَ مَكانَهُ فَسَوفَ تَرانِي ﴾ .

وفي الكتب المتقدمة : أن الله تعالى قال له : « ياموسى .. إنه لايراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حجابه النور - وفي رواية : النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إلى بصره من خلقه » .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [1] ذاك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلى لشيء لايقوم له شيء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فلمّا تَجلّى ربُّه للجَبَل جَعَله دَكًّا وخرّ مُوسَى صَعِقاً ، فلمّا أفاق قالَ سُبْحانَك تُبتُ إليكَ وأنا أوّلُ المؤْمِنينَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ ولَكِنَ انْظُر إلَى الجَبَل فإن اسْتَقرَّ مَكانُه فَسَوف تَراني ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ، ﴿ فلمّا تَجلّى ربُّه للجَبَل ﴾ فنظر إلى الجبل لايتمالك ، وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى مايصنع الجبل فخر صعقاً .

وقد ذكرنا في التفسير مارواه الإمام أحمد والترمذي ، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت ، وزاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ فلمّا تَجلّى ربُّه للجَبَل جَعلَه دَكًّا ﴾ قال هكذا بأصبعه ، ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل ، لفظ ابن جرير .

وقال السدي عن عكرمة ، عن ابن عباس : ما تجلي - يعني من العظمة - الامنه إلا قدر الخنصر فجعل الجبل دكًّا ، قال : تراباً ، ﴿ وخَرّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ أي مغشيًّا عليه . وقال قتادة : ميتاً . والصحيح الأول لقوله : ﴿ فلمّا أفَاقَ ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشي ﴿ قالَ سُبْحانَك ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ، ﴿ تُبتُ إليْكَ ﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤية ، ﴿ وأنَا أوّلُ المؤْمِنينَ ﴾ أنه لايراك أحد حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيام فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور » ؟

لفظ البخاري . وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال : لا والذي اصطفي موسى على البشر . فقال رسول الله ﷺ : « لاتخيروني من بين الأنبياء » .

---

(1) الأنعام الآية ١٠٣

وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه . وفيه : « لاتخيروني على موسى » وذكر تمامه .

وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو النهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية ، أو : ليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وليس ينال هذا بمجرد الرأى ، بل بالتوقيف .

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ، ففي قوله نظر ، لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخراً ، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا .. والله أعلم .

ولا شك أنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أفضل البشر بل الخليقة ، قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (1) وما كملوا إلا بشرف نبيهم .

وثبت بالتواتر عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولوا العزم الأكملون : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .

وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ـ أي آخذاً بها ـ فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة ، حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده : فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال ، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ، ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش . قال الصادق المصدوق : « فلا أدرى أصعق فأفاق قبلي » ؟ أي وكانت صعقته خفيفة ، لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، « أو جوزي بصعقة الطور » ؟ يعني فلم يصعق بالكلية .

وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية ، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه . ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة ، لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه الصلاة والسلام ، فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه .

---

(1) آل عمران الآية ١٠٠ .

وقوله تعالى : ﴿ قالَ يامُوسَى إنّي اصْطَفيتُكَ علَى النّاسِ بِرِسالاتِي وبِكَلامي ﴾ أي في ذلك الزمان ، لا ماقبله ، لأن إبراهيم الخليل أفضل منه ، كا تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ، ولا ما بعده ، لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كا ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكا ثبت أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلائق حتى إبراهيم » .

وقوله تعالى : ﴿ فَخُذْ ما آتيتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكرينَ ﴾ أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك .

وقال الله تعالى : ﴿ وكَتَبنا لَهُ في الألْواحِ مِنْ كلِّ شَيءٍ مَوْعظةً وتَفْصيلاً لِكلِّ شَيءٍ ﴾ وكانت الألواح من جوهر نفيس ، ففي الصحيح : أن الله كتب له التوراة بيده ، وفيها مواعظ عن الآثام ، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام .

﴿ فَخذْها بِقوّةٍ ﴾ أي بعزم ونية صادقة قوية ﴿ وأْمُر قَوْمَك يأْخذُوا بأحْسَنِها ﴾ أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجل محاملها ﴿ سَأُوريكُم دَارَ الفَاسِقِينَ ﴾ أي سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي ، المخالفين لأمري ، المكذبين لرسلي .

﴿ سأصْرِفُ عَنْ آياتي ﴾ أي عن فهمها وتدبرها ، وتعقل معناها الذي أريد منها ، ودل عليه مقتضاها ﴿ الذينَ يتكبَّرونَ في الأرْضِ بغَيْرِ الحقِّ وإنْ يَروْا كلَّ آيةٍ لايُؤمنُوا بِها ﴾ أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات ، لاينقادون لاتباعها ﴿ وإنْ يَروْا سَبِيلَ الرُّشدِ لايتّخذوهُ سَبيلاً ﴾ أي لايسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وإنْ يَروْا سَبِيلَ الغَيِّ يتّخذوهُ سَبِيلاً ، ذلكَ بأنَّهُم كذَّبُوا بآيَاتِنا ﴾ أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير في معناها ،وترك العمل بمقتضاها . ﴿ والذينَ كذَّبُوا بآياتِنا ولِقاءِ الآخرَةِ حَبطتْ أعْمالُهم ، هَلْ يُجزَونَ إلاَّ ما كانُوا يعْمَلونَ ﴾ .

عبادة العجل فى غياب موسى عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ واتّخَذَ قومُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِم عِجْلاً جَسداً لهُ خُوارٌ ، ألَمْ يَروْا أنَّه لايُكلِّمُهُم ولا يَهْديهِم سَبيلاً ، اتَّخذُوهُ وكانُوا ظَالِمينَ * ولَمّا سُقِطَ في أيْديهِم ورَأَوْا أنَّهمْ قدْ ضَلّوا قالُوا لَئنْ لَمْ يرْحَمنا ربُّنا ويغْفِرْ لَنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخَاسِرينَ * ولَمّا رَجَعَ مُوسَى إلَى قَومِه غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلفْتُموني مِنْ بَعْدي ، أعَجِلتُم أمْرَ ربِّكُم ، وألْقَى الألْواحَ

وأخذَ برأسِ أخيهِ يَجرُّهُ إليهِ ، قالَ ابْنَ أمّ إنّ القومَ استَضعَفُوني وكادُوا يقتُلونَني فلا تُشمِت بِيَ الأعْداءَ ولا تَجْعلني معَ القَوْم الظّالمينَ * قالَ ربِّ اغْفِرْ لِي ولأخِي وأدْخِلنا فِي رَحمتكَ ، وأنْتَ أرْحمُ الرّاحِمينَ * إنّ الذينَ اتخذُوا العِجْلَ سَينالُهُم غَضَبٌ مِنْ ربِّهِمْ وذِلّةٌ في الحَياةِ الدُّنيا ، وكذلكَ نَجْزي المفْتَرينَ * والذينَ عَمِلُوا السَّيِّئات ثمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وآمَنُوا إنّ ربَّكَ مِنْ بَعْدها لغفُورٌ رَحيمٌ * ولمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أخَذَ الألْواحَ ، وفِي نُسْختِها هُدًى ورَحْمةٌ للذِينَ هُم لربِّهِم يرْهَبُون ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ ومَا أعْجَلكَ عَنْ قَوْمِكَ ياموسَى * قالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أثَرِي وعَجِلتُ إليْكَ ربِّ لِتَرْضَى * قالَ فإنّا قدْ فَتنّا قَومَكَ مِنْ بَعْدِكَ وأضلَّهُم السّامِريُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إلَى قَوْمِه غَضْبانَ أسِفاً ، قالَ ياقَوْمِ ألَمْ يَعِدْكُم ربُّكُمْ وعْداً حَسَناً ، أفَطالَ عَلَيْكُم العَهْدُ أمْ أرَدْتُم أنْ يَحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبٌ مِنْ ربِّكُم فأخْلَفتُم مَوعِدِي * قالُوا ما أخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا ولكنّا حُمِّلْنا أوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ فَقذَفْناها فكذلكَ ألْقَى السّامِرِيُّ * فأخْرجَ لَهُم عِجْلا جَسداً لهُ خُوارٌ فقالُوا هذا إلهُكُم وإلهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أفَلاَ يَرَوْنَ ألاّ يرْجِعُ إلَيْهِم قَوْلا ولا يَمْلِكُ لَهُم ضَرًّا ولا نَفْعاً * ولَقدْ قالَ لَهُم هارُونُ مِنْ قَبلُ ياقَوْمِ إنَّما فُتِنْتُم بهِ * وإنّ ربَّكُم الرَّحْمٰن فاتَّبِعُوني وأطِيعُوا أمْرِي * قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عليْه عاكِفِينَ حتّى يرْجِعَ إلَيْنا مُوسَى * قالَ ياهارونُ ما مَنَعكَ إذْ رَأيْتَهُم ضَلُّوا * ألاّ تَتّبِعنِ ، أفَعصيْتَ أمْرِي * قالَ يابْنَ أمَّ لا تأخُذ بِلحْيَتِي ولا بِرأسِي ، إنِّي خَشِيتُ أنْ تَقولَ فرّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسْرائيلَ ولَمْ تَرقُبْ قَوْلِي * قالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسامِرِيُّ * قالَ بَصُرتُ بِما لَم يبْصُروا بهِ فَقَبَضتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ الرَّسُولِ فَنَبذتُها وكذلكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسِي * قالَ فاذْهَبْ فإنّ لكَ فِي الحَياةِ أنْ تَقُولَ لامِسَاسَ ، وإنّ لكَ موْعداً لَنْ تُخلفَهُ ، وانْظُر إلَى إلهِكَ الّذِي ظَلْتَ عَليهِ عاكِفاً ، لنُحرِّقَنَّهُ ثمَّ لَنَنْسِفنَّهُ فِي اليمِّ نَسْفاً * إنَّما إلهُكُمْ اللهُ الّذِي لا إله إلاّ هُوَ ، وسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْماً ﴾ [2] .

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل ، حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها .

---

(١) الأعراف الآيات ١٤٨ ـ ١٥٤

(٢) طه الآيات ٨٣ ـ ٩٨ .

فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري ، فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلي ، فصاغ منه عجلاً وألقي فيه قبضة من التراب ، كان أخذها من أثر فرس جبريل ، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه . فلما ألقاها في فيه خار كما يخور العجل الحقيقي . ويقال إنه استحال عجلاً جسداً ، أي لحماً يخور ودماً حياً يخور ، قاله قتادة وغيره . وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون .

﴿ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أي فنسى موسى ربه عندنا ، وذهب يتطلبه وهو هاهنا ! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وتضاعفت آلاؤه وهباته .

قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه : وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً أو شيطاناً رجيماً : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [1] .

فذكر أن هذا الحيوان لايتكلم ولا يرد جواباً ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، ولا يهدى إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم ، عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال .

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا على ماصنعوا ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [2] .

ولما رجع موسى عليه السلام إليهم ، ورأى ما هم عليهم من عبادة العجل ، ومعه الألواح المتضمنة التوراة ، ألقاها ، فيقال إنه كسرها . وهكذا هو عند أهل الكتاب ، وإن الله أبدله غيرها ، وليس في اللفظ القرآني مايدل على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين .

وعند أهل الكتاب : أنها كانا لوحين ،وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل ، فأمره بمعاينة ذلك .

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن حبان عن ابن عباس قال : قال رسول

---

(١) الأعراف الآية ١٤٨ .

(٢) الأعراف الآية ١٤٩ .

الله ﷺ : « ليس الخبر كالمعاينة » .

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذوا إليه ، بما ليس بصحيح ، قالوا : إنا ﴿ حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقى السَّامِرِيُّ ﴾ تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهم أهل حرب ،وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ، ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار ، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار !

ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام قائلاً له : ﴿ ياهَارونُ مامَنَعكَ إذْ رَأَيتَهُم ضَلُّوا * ألا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا . فقال : ﴿ إنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسْرائِيلَ ﴾ أي تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم .

﴿ قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ولأَخِي وأَدْخِلْنا في رحْمَتِك ، وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] وقد كان هارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي ، وزجرهم عنه أتم الزجر .

قال الله تعالى : ﴿ ولَقدْ قالَ لَهُم هَارونُ مِنْ قَبلُ ياقَوْمِ إنَّما فُتِنْتُم بِهِ ﴾ أي إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ، ﴿ وإنَّ ربَّكُم الرَّحْمٰن ﴾ أي لاهذا ﴿ فاتَّبِعُونِي ﴾ أي فيما أقولُ لكُم ﴿ وأطِيعُوا أمْرِي * قالُوا لَنْ نَبْرح عَلَيْه عاكِفِينَ حتَّى يرْجِعَ إلَيْنَا مُوسَى ﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿ وكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾[2] أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه .

ثم أقبل موسى على السامري ﴿ قالَ فَمَا خَطْبكَ ياسَامِريّ ﴾ أي ماحملك على ماصنعت ؟ ﴿ قالَ بَصُرتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي رأيت جبريل وهو راكب فرساً : ﴿ فَقَبضْتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أي من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه ، وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخْضرّ وأعْشَب ، فأخذ من أثر حافرها ، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان .. ولهذا قال : ﴿ فَنَبَذْتُها وكَذلكَ سَوَّلت لِي نَفْسِي * قالَ فاذْهَب فإنَّ لَكَ فِي الحَياةِ أنْ تَقُولَ لامِسَاسَ ﴾ وهذا دعاء عليه بألا يمس أحداً ، معاقبة له على مسه مالم يكن له مسه ، هذا معاقبة له في الدنيا ، ثم توعده في الأخرى فقال : ﴿ وإنَّ لَكَ مَوْعداً لَنْ تُخلِفَهُ ﴾ وقرئ : ﴿ لن نخلفه ﴾ ﴿ وانظُرْ إلَى إلٰهكَ الَّذِي ظَلْت عَلَيْهِ عاكفاً ،

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥١

(٢) سورة الفتح الآية ٣/ .

﴿ لنُحرّقنّهُ ثمّ لَنَنسِفَنّه في اليَمّ نسْفاً ﴾ قال : فعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل ، فحرقه : قيل : بالنار ، كما قاله قتادة وغيره ، وقيل بالمبادر ، كما قاله علي وابن عباس وغيرهما ، وهو نص أهل الكتاب ، ثم ذراه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه علق في شفاههم من ذلك الرماد مايدل عليه ، وقيل بل اصفرت ألوانهم .

ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : ﴿ إنّما إلهكُم اللهُ الّذِي لاَ إلَـهَ إلاَّ هُوَ ، وَسِعَ كلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنّ الذينَ اتّخذُوا العِجْلَ سَينالُهُم غَضبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وذلةٌ في الحَياةِ الدُّنْيا ، وكذَلكَ نَجْزي المفْتَرينَ ﴾ [1] وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : ﴿ وكذَلكَ نَجْزِي المفْتَرِينَ ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة .

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ،وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه ، بتوبته عليه ، فقال : ﴿ والّذِينَ عَمِلُوا السّيِّئاتِ ثمّ تابُوا من بَعْدِها وآمنُوا إنّ ربَّكَ مِنْ بَعْدها لَغفُورٌ رَحيمٌ ﴾ [2] .

لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل ، كما قال تعالى : ﴿ وإذْ قالَ مُوسَى لِقَومِهِ ياقَوْمِ إنّكُم ظَلَمْتُم أنْفُسَكم باتّخاذِكُم العِجْلَ فتُوبُوا إلَى بَارِئِكُم فاقتلُوا أنْفُسَكم ، ذَلِكمْ خَيْرٌ لَكمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَليكم ، إنّهُ هُو التّوابُ الرّحيمُ ﴾ [3] فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف ، وألقى الله عليهم ضباباً حتى لايعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم ، فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً .

ثم قال تعالى : ﴿ ولمّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أخَذَ الألْواحَ وفي نُسْخَتِها هُدًى ورَحْمَةٌ للّذِينَ هُمْ لربِّهِمْ يرْهَبُون ﴾ [4] استدل بعضهم بقوله : ﴿ وفي نُسْخَتِها ﴾ على أنها تكسرت ، وفي هذا الاستدلال نظر ، وليس في اللفظ مايدل على أنها تكسرت .. والله أعلم .

---

(١) الأعراف الآية ١٥٢

(٢)الأعراف الاية ١٥٣ .

(٣) البقرة الآية٥٤

(٤) الأعراف الآية١٥٤ .

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي : أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر ، وما هو ببعيد ، لأنهم حين خرجوا : ﴿ قالُوا يامُوسَى اجْعَل لَنَا إلهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ ﴾ (١) . وهكذا عند أهل الكتاب ، فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم ، بلاد بيت المقدس . وذلك أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل ، قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف ، ثم ذهب موسى يستغفر ، فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة .

﴿ واخْتارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رجُلاً لِمِيقاتِنا / فَلَمَّا أَخَذَتْهُم الرَّجْفَةُ قالَ ربِّ لو شِئْتَ أهْلَكتَهم مِنْ قَبلُ وإيَّايَ ، أتهْلِكنَا بِمَا فَعَل السُّفَهاءُ منَّا / إنْ هِيَ إلاّ فِتْنَتكَ تُضلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وتَهْدي مَنْ تَشاءُ ، أنْتَ وليُّنا فاغْفِر لَنا وارْحَمْنا وأنْتَ خَيْرُ الغافِرينَ * واكْتُبْ لَنا في هٰذهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَة إنَّا هُدْنا إليْكَ / قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أشاءُ ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فسأَكْتُبُها للَّذِينَ يتَّقُونَ ويؤْتُونَ الزَّكاةَ والذِينَ هُمْ بآياتِنا يؤْمِنُونَ * الذِينَ يتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكتوباً عِنْدَهُم في التَّوراةِ والإنْجِيل يأْمُرهُم بالمعْرُوفِ وينْهاهُم عَنْ المنْكَر ويُحلُّ لَهُم الطَّيباتِ ويُحَرِّمُ عليْهِمُ الخَبائِثَ ويضَعُ عنْهُم إصْرَهُم والأغْلالَ الَّتي كانَتْ عليْهِم ، فالَّذِينَ آمنُوا بِهِ وعزَّروهُ ونَصروهُ واتَّبَعُوا النُّور الَّذي أُنزِلَ مَعهُ أُولئكَ هُمُ المفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناذاب وأبيهو ، ذهبوا مع موسى عليه السلام ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل ، وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل .

فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله . وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ وقَدْ كانَ فَريقٌ مِنْهُم يسْمَعون كلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحرِّفونَهُ مِنْ بَعْد ما عَقَلوهُ وهُمْ يعْلَمونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف الآية ١٣٨ .

(٢) الأعراف الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧

(٣) البقرة الآية ٧٥ .

وليس هذا بلازم ، لقوله تعالى : ﴿ فأجِرْهُ حتى يسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ﴾ [1] أي مبلغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام .

وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله ، وهذا غلط منهم ، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة ، كما قال تعالى : ﴿ وإذْ قلتُم ياموسَى لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فأخَذتْكُم الصّاعِقَةُ وأنْتُم تنْظرُونَ * ثُمّ بَعثْناكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكمْ لعلّكُم تشْكُرونَ ﴾ [2] وقال هاهنا : ﴿ فلمّا أخَذتْهُم الرّجْفَةُ قالَ ربِّ لَوْ شِئْتَ أهْلكتهُم مِنْ قَبلُ وإيّايَ ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً . الخير فالخير ، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم .

فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقته له ربه ، وكان لايأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله ، فقال : أفعل .

فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشي الجبل كله ، ودنا موسى فدخل في الغمام ، وقال للقوم : ادنوا .وكان موسى إذا كلمه الله ، وقع على جبهته نور ساطع لايستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه : افعل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليه فقالوا : ﴿ ياموسَى لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ فأخذتهم الرجفة ، وهي الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعاً . فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول : ﴿ ربِّ لَوْ شِئْتَ أهْلَكتَهُمْ مِنْ قَبلُ وإيّايَ ، أتُهلِكُنا بِما فَعلَ السُّفهاءُ مِنّا ﴾ أي لاتؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : ﴿ إنْ هِيَ إلاّ فِتْنَتُكَ ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ،

(١) التوبة الآية ٦ .

(٢) البقرة الآيات ٥٥ ، ٥٦

يعني أنت الذي قدرت هذا ، وخلقت ما كان من أمر العجل اختبارا تختبرهم به كما : ﴿ قالَ لَهُم هارُونُ مِنْ قَبْلُ ياقَوْمِ إِنَّما فُتِنتُم بِهِ ﴾ [1] أي اختبرتم .

ولهذا قال : ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشاءُ وتَهْدِي مَنْ تَشاءُ ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه ، ومن شئت هديته ، لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت .

﴿ أَنْتَ ولِيُّنا فاغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا وأَنْتَ خَيْرُ الغافِرِينَ * واكْتُبْ لَنا في هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التيمي والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد . وهو كذلك في اللغة .

﴿ قالَ عذابِي أُصِيبُ بهِ مَنْ أشاءُ ورَحْمتِي وَسِعتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها .

﴿ ورَحْمَتِي وَسِعَت كُلَّ شَيْءٍ ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » ﴿ فسأَكْتُبُها للَّذِينَ يتَّقُونَ ويؤْتُونَ الزَّكاةَ والذِينَ هُمْ بآياتِنَا يؤْمِنُون ﴾ أي فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات : ﴿ الذِينَ يتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِي الأُمِّي ﴾ الآية .

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام ، في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومقنع ، ولله الحمد والمنة .

وقال قتادة : قال موسى : يارب .. إني أجد في الألواح أمة هي خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب .. إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون في الخلق ، السابقون في دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب .. إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها ، وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : رب .. اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

---

(1) سورة طه الآية ٩٠ .

قال : رب .. إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب .. إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويؤجرون عليها . وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها ، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب .. فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب .. فإني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال : رب .. اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال : رب .. إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد .

قال قتادة : فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام ، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ماتيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه : « ذكر سؤال كليم الله ربه عز وجل عن أدني أهل الجنة وأرفعهم منزلة » أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ ، حدثنا حامد ابن يحيي البلخي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الله بن أبجر شيخان صالحان ، قالا : سمعنا الشعبي يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل : أي أهل الجنة أدني منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخاذاتهم ؟ فيقال له : أترضي أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقال : لك هذا ومثله معه . فيقول : أي رب رضيت ، فيقال له : لك مع هذا ماشتهت نفسك ولذت عينك ، وسأل ربه : أي أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : سأحدثك عنهم ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلاَ تَعْلَم نفسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّة أعْيُنٍ جَزاءً بِمَا كانُوا يعْملون ﴾ [1] .

وهكذا رواه مسلم والترمذي كلاهما عن ابن عمر ، عن سفيان ـ وهو ابن عيينة ـ به . ولفظ مسلم : « فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مِلْك مَلَكٍ مِنْ ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقال له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة : رضيت رب .. فيقال : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب . قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر » .

قال : ومصداقه من كتاب الله : ﴿ فَلاَ تَعْلَم نفسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّة أعْيُنٍ جَزاءً بِمَا كانُوا يعْملون ﴾ .

وقال الترمذي : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان : « ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع » : حدثنا عبد الله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس ، حدثنا حرملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن أبا السمح حدثه عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « سأل موسى ربه عز وجل عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها .

قال : يارب .. أي عبادك أتقى ؟ قال : الذي يذكر ولا ينسى . قال : فأي عبادك أهدى ؟ قال : الذي يتبع الهدى . قال : فأي عبادك أحكم ؟ قال : الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأي عبادك أعلم ؟ قال : عالم لايشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه . قال : فأي عبادك أعز ؟ قال : الذي إذا قدر غفر . قال : فأي عبادك أغنى ؟ قال : الذي يرضى بما يؤتى . قال : فأي عبادك أفقر ؟ قال : صاحب منقوص » .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن ظهر ، إنما الغنى غنى النفس ، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبد شرًا جعل فقره بين عينيه » .

---

(١) السجدة الآية١٧ .

قال ابن حبان : قوله : « صاحب منقوص » يريد به منقوص حالته ، يستقل ما أوتي ويطلب الفضل .

وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حميد ، عن يعقوب التيمي . عن هارون بن هبيرة ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه عز وجل فذكر نحوه . وفيه : « قال : أي رب .. فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه ، عسى أن يجد كلمة تهديه إلى الهدى أو ترده عن ردي . قال : أي رب .. فهل في الأرض أحد أعلم مني ؟ قال : نعم الخضر . فسأل السبيل إلى لقياه فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله ، وبه الثقة .

حديث البطاقة

قال الإمام أحمد : حدثنا يحي بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أي رب .. عبدك المؤمن مقتر عليه في الدنيا ؟ قال : ففتح له باب من الجنة فنظر إليها ، قال : ياموسى .. هذا ماأعددت له . فقال موسى : يارب .. وعزتك وجلالك لو كان مقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة ، وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال : أي رب .. عبدك الكافر موسع عليه في الدنيا ، قال : ففتح له باب إلى النار فقال : ياموسى : هذا ما أعددته له . فقال موسى : أي رب .. وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وفي صحته نظر .. والله أعلم .

وقال ابن حبان : « ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به » حدثنا ابن سلمة ، حدثنا حرملة بن يحي ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قال موسى : يارب .. علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به . قال : قل ياموسى : لا إله إلا الله . قال : يارب .. كل عبادك يقول هذا . قال : قل لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : ياموسى .. لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله » .

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة ، وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروى في السنن عن

النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء دعاء عرفة ، وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلي . لا إلٰه إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

وقال ابن أبي حاتم عند تفسير آية الكرسي : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية ، حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن الدسكي ، حدثني أبي عن أبيه ، حدثنا أشعث بن إسحاق ، عن جعفر بن أبي المغيرة . عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى .. هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ! فناداه ربه عز وجل : ياموسى .. سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ؛ ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلثه نعس فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا ، فقال : ياموسى .. لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك ! قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسي .

وقال ابن جرير : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال : « وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله ملكاً فأرقه ثلاثة ، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بها . قال : فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان ، ، فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى ، حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلاً : أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » .

وهذا حديث غريب رفعه ، والأشبه أن يكون موقوفاً ،وأن يكون أصله إسرائيلياً .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذْ أَخَذْنا ميثاقَكُم ورَفَعْنا فوقَكُم الطُّورَ خُذُوا بما آتَيْناكُم بقوّةٍ واذكُروا مافيهِ لعلكم تتقُونَ * ثُمّ توليْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلكَ ، فلَوْلا فضْلُ اللهِ عليْكُم ورحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِنَ الخاسِرينَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وإذْ نَتَقْنا الجَبَلَ فوْقَهُم كأنّهُ ظلّةٌ وظنّوا أنّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيناكُم بقوّةٍ واذكُروا مافيه لعلَّكُم تتّقُون ﴾ (٢)

---

(١) البقرة الآيات ٦٣ ، ٦٤

(٢) الأعراف الآية ١٧١.

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم . فقالوا : أنشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال : بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رءوسهم حتى صار كأنه ظلة ـ أي غمامة ـ على رءوسهم ، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا ، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم ، فصارت سنة لليهود إلى اليوم ، يقولون : لاسجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب .

وقال سنيد بن داود عن حجاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبد الله قال : فلما نشرها لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتهم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بأن تداركم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم . ﴿ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

بقرة بني اسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [1] .

---

(١) البقرة الآيات ٦٧ ـ ٧٣

قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي ، وغير واحد من السلف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً ، وله بنو أخ ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق ، ويقال على باب رجل منهم .

فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم ، فقالوا : مالكم تختصمون ولا تأتون نبي الله ؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم . فقال موسى عليه السلام : « أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به » فلم يكن عند أحد منهم علم منه ، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل .

فسأل ربه عز وجل في ذلك ، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُم أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل ، وأنت تقول لنا هذا ؟ ﴿ قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ ﴾ أي أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلي ، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وأبو العالية وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ، ولكن شددوا فشدد عليهم . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، وفي إسناده ضعف .

فسألوا عن صفتها ، ثم عن لونها ، ثم عن سنها ، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم . وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في التفسير .

والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان ، وهي الوسط النصف بين الفارض وهي الكبيرة ، والبكر وهي الصغيرة ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والحسن وقتادة وجماعة ، ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها ، فأمروا بصفراء فاقع لونها ، أي مشرب بحمرة تسر الناظرين ،وهذا اللون عزيز. ثم شددوا أيضاً ﴿ قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنا ما هِيَ إِنَّ البَقَر تَشابَه عَلَيْنا وإِنَّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : « لولا أن بني إسرائيل استثنوا لما أعطوا » وفي صحته نظر .. والله أعلم .

﴿ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فِيها ، قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ ، فَذَبَحُوها وما كادُوا يَفْعَلُونَ ﴾وهذه الصفات أضيق مما تقدم ، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول ،وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية ، مسلمة وهي

الصحيحة التي لاعيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة ، وقوله ﴿ لا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هي مسلمة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها . فلما حددها بهذه الصفات ، وخصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ ﴾ .

ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًا بأبيه ، فطلبوها منه فأبي عليهم ، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه ، فيما ذكر السدي ، بوزنها ذهباً فأبي عليهم ، حتي أعطوه بوزنها عشر مرات ، فباعها لهم .

فأمرهم نبي الله بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وما كادُوا يفْعَلونَ ﴾ أي وهم يترددون في أمرها ، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها قيل بلحم فخذها ، وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف وقيل بالبضعة التي بين الكتفين ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى ، فقام وهو يشخب أوداجه ، فسأله نبي الله موسى : من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي . ثم عاد ميتاً كما كان .

قال الله تعالى : ﴿ كذٰلِكَ يُحيِ اللهُ المَوْتَى ويُرِيكُم آياتِهِ لَعلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾ أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له ، كذلك أمره في سائر الموتى ، إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال : ﴿ ما خَلْقكُم ولا بَعْثكُم إلاّ كَنفْسٍ واحِدَةٍ ﴾ [1] .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإذْ قالَ موسَى لِفتَاهُ لا أبْرحُ حتَّى أبْلغَ مَجْمَعَ البَحْريْنِ أوْ أمْضِيَ حُقباً * فلمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بيْنِهِما نَسيَا حُوتَهُما فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَباً * فلمَّا جاوَزَا قالَ لِفتاهُ آتِنَا غَداءَنا لَقدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنا هٰذا نَصَباً * قالَ أرأيتَ إذْ أويْنا إلَى الصَّخْرَةِ فإنِّي نسِيتُ الحُوتَ وما أنْسانِيهِ إلاَّ الشَّيْطانُ أنْ أذْكرهُ ، واتَّخذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجباً * قالَ ذٰلكَ ما كُنَّا نَبْغِ ، فارْتدَّا علَى آثارِهِما قَصَصاً * فوَجَدَا عَبداً مِنْ عِبادِنا آتيْناهُ رحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعلَّمناهُ مِنْ لَدنَّا عِلْماً * قالَ لهُ مُوسَى هَلْ أتَّبعكَ علَى أنْ تُعلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشداً * قال إنَّك

---

(١) لقمان الآية ٢٨

لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِي صَبْراً * وكيفَ تصبِرُ على مالَمْ تُحِطْ بهِ خُبْراً * قالَ سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ صابِراً ولاَ أعْصِي لكَ أمْراً * قالَ فإن اتَّبعتني فلاَ تَسْألني عَنْ شَيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْراً * فانْطلقا حتَّى إذا رَكِبَا في السَّفِينَةِ خرَقَها ، قالَ أخرقْتَها لتغرِقَ أهْلَها لقدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً * قالَ ألَمْ أقُلْ إنكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً * قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْراً * فانْطلَقا حتَّى إذَا لَقِيَا غُلاماً فقَتَلهُ قالَ أقَتلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكراً * قالَ ألَمْ أقلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِي صبْراً * قالَ إنْ سألتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلغْتَ مِنْ لَدُنِي عُذْراً * فانْطلقا حتَّى إذا أتَيا أهْل قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أهْلَها فأبَوْا أنْ يُضيِّفُوهُما فَوَجَدَا فِيها جِداراً يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ فأقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليْهِ أجراً * قالَ هَذا فِراقُ بَيْنِي وبيْنِكَ ، سأُنبِّئكَ بتأْويلِ مالَمْ تَسْتَطِعْ عَليهِ صَبْراً * أمَّا السَّفِينَةُ فكانَتْ لمساكِينَ يعْمَلونَ في البَحْرِ فأرَدتَ أنْ أعيبَها وكانَ ورَاءَهُم مَلِكٌ يأْخذُ كلَّ سَفِينةٍ غَصْباً * وأمَّا الغُلامُ فكانَ أبَوَاهُ مؤْمِنَيْنِ فخَشِينَا أنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْياناً وكُفْراً * فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُمَا ربُّهُمَا خيراً مِنْهُ زكاةً وأقْربَ رُحْماً * وأمَّا الجِدارُ فكانَ لِغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ في المدِينَةِ وكانَ تحتَهُ كنزٌ لَهُمَا وكانَ أبُوهُمَا صالِحاً فأرادَ ربُّكَ أنْ يَبْلُغَا أشُدَّهُمَا ويَسْتَخرِجَا كنْزَهُمَا رحْمةً مِنْ ربِّكَ ، وما فَعلتُه عَنْ أمْرِي ، ذلكَ تأْوِيل مالَمْ تَسْطِعْ عليْهِ صَبراً ﴾ [1] .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن منسا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم ، منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي . ويقال إنه دمشقي ، وكانت أمه زوجة كعب الأحبار .

والصحيح الذي دل عليه سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه : أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل .

قال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، قال : أخبرني سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال :

---

(١) الكهف الآيات ٦٠ ـ ٨٢ .

أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحي الله إليه ، إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب .. فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع ابن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما . واضطرب الحوت في المكتب ، فخرج منه فسقط في البحر ، واتخذ سبيله في البحر سرباً . وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما .

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتِنَا غَداءَنَا لَقَد لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هٰذا نَصَباً ﴾ قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَة فإِنِّي نَسِيتُ الحوتَ وما أَنْسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، واتَّخذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَباً ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ، ولموسى ولفتاه عجباً فقال له موسى : ﴿ ذٰلِكَ ما كنَّا نَبْغِ ، فارتدَّا علَى آثارِهما قَصَصاً ﴾ .

قال : فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى ، فقال الخضر ، وأنى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً : ﴿ قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ﴾ ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لاأعلمه . فقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ .

فقال له الخضر : ﴿ فإِنِ اتَّبعتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً * فانْطَلَقا ﴾ يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغرِقَ أَهْلَهَا ، لَقدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قالَ أَلَمْ أَقلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قالَ لاتُؤاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ .

قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً . قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر !

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع

الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفساً زكيةً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ .

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ قال : مائل . فقام الخضر ﴿ فأقامه ﴾ بيده ، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك .. ﴾ إلى قوله : ﴿ ... ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً ﴾ [1] فقال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » .

قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ : ﴿ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينةٍ صالحةٍ غصباً ﴾ وكان يقرأ : « وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين » .

ثم رواه البخاري أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عيينة بإسناده نحوه ، وفيه : « فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام » .

قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة ، لايصيب من مائها شيء إلا حي ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا .. ﴾ الآية وساق الحديث .

وقال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ماعلمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ماغمس هذا العصفور منقاره .. وذكر تمام الحديث .

---

(١) الكهف الآية ٨٢ .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جريج أخبرهم ، قال : أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، يزيد أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال : إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني ، فقلت : أي أبا عباس ـ جعلني الله فداك ـ بالكوفة رجل قاص يقال له نوف ، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل . أما عمرو فقال لي ، فقال : قد كذب عدو الله . وأما يعلى فقال

لي : قال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : موسى رسول الله قال : ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ولى ، فأدركه رجل فقال : أي رسول الله ! هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال : لا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله ،

وقيل : بلى . قال : أي رب فأين ؟ قال : بمجمع البحرين ، قال : أي رب اجعل لى علماً أعلم ذلك به . قال لي عمرو : قال : حيث يفارقك الحوت ، وقال لي يعلى : قال : خذ نوناً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح .

فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، فقال لفتاه : لاأكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كثيراً ، فذلك قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون ،

ليست عن سعيد بن جبير ، قال بينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره ، وتضرب الحوت

حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر ، قال لي عمرو : هكذا ، كأن أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانها .

﴿ لقدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هٰذا نَصَباً ﴾ قال : قد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد . أخبره فرجعا فوجدا خضراً ـ قال لي عثمان بن أبي سلمان ـ على طنفسة خضراء على كبد البحر ، قال سعيد بن جبير مسجى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ،

فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ فقال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئتك لتعلمني مما علمت رشداً ، قال : أما يكفيك أن التوراة بيديك ، وأن الوحي يأتيك ؟ ياموسى .. إن لي

علماً لاينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لاينبغي لي أن أعلمه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر ، فقال : والله ماعلمي وعلمك في جنب علم الله كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

﴿ حتّى إذا رَكبَا في السَّفِينَةِ ﴾ وجد معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحر إلى أهل هذا الساحل الآخر ، عرفوه فقالوا : عبد الله الصالح . قال : فقلنا لسعيد : خضر ؟ قال : نعم . لانحمله بأجر ، فخرقها ووتد فيها وتداً ﴿ قالَ ﴾ موسى : ﴿ أخرقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها لقدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً ﴾ قال مجاهد : منكراً . ﴿ قالَ ألَمْ أقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ كانت الأولى نسياناً . والوسطى شرطاً ، والثالثة عمداً ﴿ قالَ لاتُؤاخِذْني بمَا نَسِيتُ ولا تُرْهِقْني مِنْ أمْرِي عُسْراً * فانْطَلَقَا حتّى إذَا لَقِيَا غُلاماً فقَتَلهُ ﴾ قال يعلى قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين ﴿ قالَ أقَتلْتَ نَفْساً زَكيَّةً بغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ لم تعلم بالخبيث . وكان ابن عباس قرأها : زكية زاكية مسلمة . كقولك : غلاماً زكياً .

فانطلقا ﴿ فَوجَدَا فِيها جِداراً يُريدُ أنْ ينقَضَّ فأقَامهُ ﴾ [1] قال سعيد بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام . قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال : فمسح بيده فاستقام : ﴿ قالَ لوْ شِئْتَ لاتَّخذْتَ عليْه أجْراً ﴾ قال سعيد ، أجراً نأكله .

﴿ وكانَ وَرَاءهُمْ ﴾ كان أمامهم ، قرأها ابن عباس : أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه « هدد بن بدد » والغلام المقتول اسمه يزعمون « جيسور » ﴿ مَلكٌ يأخذُ كلَّ سَفينَةٍ غَصْباً ﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها ، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها ، ومنهم من يقول : سدوها بقارورة ، ومنهم من يقول بالقار .

﴿ وكانَ أبواهُ مُؤْمنَيْن ﴾ [2] وكان كافراً ﴿ فَخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وكُفْراً ﴾ أي يحملها حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿ فأرَدْنا أنْ يُبدِلَهُما ربُّهمَا خيراً منْهُ زَكاةً ﴾ لقوله : ﴿ أقَتلْتَ نَفْساً زَكيَّةً ﴾ ﴿ وأقْربَ رُحْماً ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل الخضر .

وزعم غير سعيد بن جبير أنهم أبدلا جارية ، وأما داود ابن أبي عاصم فقال غير واحد : إنها جارية .

وقد رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس

---

(١) سورة الكهف الآية ٧٧

(٢) سورة الكهف الآية ٨٠

قال : خطب موسى بني إسرائيل ، فقال : ما أحد أعلم بـالله وبـأمره مني ، فـأمر أن يلقى هـذا الرجل ، فذكر نحو ماتقدم .

وهكـذا رواه محمـد بن إسحـاق عن الحسن بن عمـارة ، عن الحكم ابن عيينـة ، عن سعيـد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب ، عن رسول الله ﷺ كنحو ماتقدم أيضاً .

ورواه العوفي عنه موقوفاً . وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبـة بن مسعود عن ابن عبـاس : أنـه تمـارى هو والحر بن قيس بن حصن الفـزاري في صـاحب مـوسى ، فقـال ابن عباس : هو خضر فمر بهم أبي بن كعب فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هـذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيـاه ، فهل سمعت من رسول الله فيـه شيئـاً ؟ قـال : نعم ، وذكر الحديث .

وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد .

وقـولـه : ﴿ وأمَّا الجِـدارُ فكانَ لغُـلامَيْن يَتيمَيْن في المدينَـةِ ﴾ قـال السهيلي : وهمـا أصرم وصريم ابنا كاشح ﴿ وكانَ تحْتَه كنزٌ لَهُما ﴾ قيل كان ذهباً ، قاله عكرمة . وقيل علماً ، قالـه ابن عباس . والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً في علم . قال البزار : حدثنـا إبراهيم بن سعيـد الجوهري ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي ، عن عيـاش بن عبـاس الغساني ، عن ابن حجيرة ، عن أبي ذر رفعه قـال : « إن الكنز الـذي ذكره الله في كتـابه لوح من الذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب ؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهكذا روى عن الحسن البصري وعمر مولى غفرة وجعفر الصادق نحو هذا .

وقولـه : ﴿ وكانَ أبُـوهُما صالِحـاً ﴾ قيـل إنـه كان الأب السـابـع وقيـل العـاشر ، وعلى كل تقدير : فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته .. والله المستعان .

وقوله : ﴿ رحْمةً مِنْ ربِّك ﴾ دليل على أنه كان نبيًّا ،وأنه مافعل شيئاً من تلقـاء نفسـه بل بأمر ربـه فهو نبي ، وقيل رسول ، وقيل ولي ، وأغرب من هـذا من قـال إنـه كان ملكاً . قلت وقد أغرب جداً من قال هو ابن فرعون ، وقيل إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة .

قال ابن جرير : والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن « أفريدون » ويقـال إنـه كان على مقدمة ذي القرنين ، الذي قيل إنه كان أفريـدون ، وذو الفرس هو الـذي كان في زمن

الخليل ، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن .

وقيل إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم ، وهاجر معه من أرض بابل . وقيل اسمه « ملكان » وقيل « أرميا بن حلقيا » وقيل كان نبيًّا في زمن سباسب بن بهراسب .

قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لايجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب ، قال ابن جرير والصحيح أنه كان في زمن أفريدون ، واستمر حيًّا إلى أن أدركه موسى عليه السلام . وكانت نبوة موسى في زمن « منو شهر » الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون أحد ملوك الفرس ، وكان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده وكان عدلاً . وهو أول من خندق الخنادق . وأول من جعل في كل قرية دهقاناً وكانت مدة ملكه قريباً من مائة وخمسين سنة . ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم .

وقد ذكر عنه من الخطب الحسان والكلم البليغ النافع الفصيح مايبهر العقل ، ويحير السامع ،وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل .. والله أعلم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللهُ ميثَاقَ النَّبيِّين لما آتيْتُكُم مِنْ كِتابٍ وحِكْمةٍ ثُمَّ جاءَكُم رسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُم لتؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصرُنَّهُ ، قالَ أأقْرَرْتُم وأخَذْتُم علَى ذٰلكُم إصْرِي ، قالُوا أقْرَرْنا ، قالَ فاشْهَدُوا وأنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [1] .

فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره فلو كان الخضر حيًّا في زمانه ، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر ، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة .

وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًّا ،وهو الحق ، أو رسولاً كما قيل ، أو ملكاً فيما ذكر ، وأيًّا ما كان فجبريل رئيس الملائكة ، وموسى أشرف من الخضر ، ولو كان حيًّا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر وليًّا كما يقوله طوائف كثيرون ؟ فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى ، ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واجداً إلى رسول الله ﷺ ، ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه ،وإن كان الحاكم قد رواه ، فإسناده ضعيف .. والله أعلم ، وسنفرد لخضر ترجمة على حدة بعد هذا .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨١ .

حديث الفتون

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه ، عند قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وقَتلْتَ نفْساً فنَجيْناكَ مِنَ الغَمّ وفَتنّاك فُتُوناً ﴾ [1] : «حديث الفتون » .

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أصبغ بن زيد ، حدثنا القاسم ابن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله تعالى لموسى : ﴿ وفَتنّاك فُتُوناً ﴾ فسألته عن الفتنون ماهي ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً .

فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأتنجز منه ماوعدني من حديث الفتون ، فقال :

تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك مايشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم علي أن يبعث رجالاً معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا ذلك .

فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم ،والصغار يذبحون قالوا : توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونهم ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم ، فتخافوا مكاثرهم إياكم ، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم .

فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لايقتل فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة .

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من

---

(١) سورة طه الآية ٤٠ .

الفتون ، ياابن جبير .. مادخل عليه في بطن أمه مما يراد به . فأوحى الله إليها : ﴿ لا تَخَافِي ولا تَحْزَنِي ، إنَّا رادُّوهُ إليْكِ وجَاعِلوه مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ [1] فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم .

فلما ولدت فَعلت ذلك ، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان ، فقالت في نفسها : مافعلت بابني ؟ لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه .

فانتهى الماء به حتى أوفي عند فرضة تستقي منها جواري امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فهممن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن في هذا مالاً ، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها . فلما فتحته رأت فيه غلاماً ، فألقي الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط ﴿ وأصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾ [2] من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه . وذلك من الفتون يا ابن جبير !

فقالت لهم : أقروه فإنه هذا الواحد لايزيد في بني إسرائيل . حتى آتى فرعون فأستوهبه منه ، فإن وهبه منى كنتم قد أحسنتم وأجلتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم . فأتت فرعون فقالت : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكَ ﴾ [3] فقال فرعون : يكون لك ، فأما لي فلا حاجة لي فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي يحلف به لو أقر فرعون لأن يكون قرة عين له ، كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ، ولكن حرمه ذلك » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئراً ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك . فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها ، فلم يقبل . وأصبحت أم موسى ولها ، فقالت لأخته : قص أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكراً ؟ أحي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه .

---

(١) القصص الآية ٧ .

(٢) القصص الآية ١٠ .

(٣) القصص الآية ٩ .

﴿ فبَصُرتْ بـهِ ﴾ [1] أختـه ﴿ عَنْ جُنبٍ وهُم لايشْعُرونَ ﴾ [1] والجنب : أن يسمـو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لايشعر به . فقالت من الفرح حين أعياهم الظئرات : أنـا ﴿ أدُلكُم علَى أهْلِ بيْتٍ يكْفلونَه لَكُم وهُم لهُ ناصِحُونَ ﴾ [2] فـأخـذوهـا فقـالوا : مـايـدريـك مانصحهم لهُ ؟ هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك ،وذلـك من الفتون يـا ابن جبير ! فقـالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملـك . فـأرسلوهـا فـانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت أمه ، فلمـا وصعتـه في حجرهـا نزا إلى ثـديهـا فمصـه حتى امتلأ جنباه ريًّا ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً . فأرسلت إليها فأتت بها وبه .

فلما رأت ما يصنع بها قـالت : امكثي ترضعي ابني هـذا ، فـإني لم أحب شيئـاً حبـه قـط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أترك بيتى وولدي فيضيع ، فإن طـابت نفسـك أن تعطينيـه ، فـأذهب بـه إلى بيتي ، فيكـون معي لا آلـوه خيراً ، فعلت ، فـإني غير تـاركـة بيتي وولـدي ، وذكرت أم مـوسى مـا كان الله وعـدهـا ، فتعـاسرت على امرأة فرعـون . وأيقنت أن الله منجـز موعوده ، فرجعت إلي بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قـد قضي فيـه . فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ، ممتنعين من السخرة والظلم ماكان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني ، فوعدتها يوماً تزيرها إياه فيـه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظئورها وقهارمتها : لايبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهديـة وكرامة ، لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أميناً يحصى كل مـايصنع كل إنسـان منكم ، فلم تزل الهـدايـا والكرامـة والنحل تستقبلـه من حين خرج من بيت أمـه إلى أن دخل على امرأة فرعـون . فلمـا دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به ، وأنحلت أمه لحسن أثرهـا عليهـا . ثم قـالت : لآتين بـه فرعون فلينحلنه وليكرمنه .

---

(١) القصص الآية ١١

(٢) القصص الآية ١٢

فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ماوعد الله إبراهيم نبيه ؟ إنه زعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك ! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به .

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون ، فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أن يصرعني ويعلوني ؟ فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه ! فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين ، علمت أن أحداً لايؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو عاقل . فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين ، فانتزعها منه مخافة أن تحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان همّ به ، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الامتناع . فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي . فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى غضباً شديداً ، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم لايعلم الناس إلا أنه من الرضاع إلا ام موسى ، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على مالم يطلع عليه غيره . فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي ، فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، إنَّهُ عَدوٌّ مُضلٌّ مُبينٌ ﴾ [1] ثم قال : ﴿ ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِر لي فَغَفَرَ لهُ إنهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ * قالَ ربِّ بِمَا أنْعمْتَ عليَّ فَلنْ أكُونَ ظَهيراً للمُجْرِمينَ * فأصْبَحَ في المَدِينَةِ خائفاً يَترَقَّبُ ﴾ [2] الأخبار .

فأتي فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوة من قومه ، لاينبغي له

---

(١) القصص الآية ١٥.

(٢) القصص الآيات ١٦ ـ ١٨

أن يقتل بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم .

فبينما هم يطوفون لايجدون بينة ، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجل من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فصادف موسى وقد ندم على ماكان منه وكره الذي رأى ، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم : ﴿ إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [1] فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ماقال له ماقال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعد ماقاله له : ﴿ إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده ، إنما أردا الفرعوني ، فخاف الإسرائيلي وقال : ﴿ يامُوسَى أتُرِيدُ أنْ تَقْتُلنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمْسِ ﴾ [2] ؟ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا .

وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ﴿ أتُرِيدُ أنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمْسِ ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم ، يطلبون موسى وهم لايخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصا المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره . وذلك من الفتون ياأبن جبير !.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ عَسَى رَبِّي أنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * ولَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وجَدَ عليْهِ أمَّةً مِنَ النَّاسِ يسْقُونَ ووَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرأتيْنِ تَذُودانِ ﴾ [3] يعني بذلك حابستين غنمها ، فقال لهما : ﴿ ما خَطْبُكُمَا ﴾ [3] معتزلين الناس . قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضول حياضهم . فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء وانصرفتا بغنمها إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظل بشجرة ، وقال : ﴿ ربِّ إنِّي لِمَا أنْزلتَ إليَّ مِنْ خَيرٍ فَقِيرٌ ﴾ [4] .

---

(١) القصص الآية ١٨

(٢) القصص الآية ١٩ .

(٣) القصص الآيات٢٠ ،٢٣ .

(٤) القصص الآية ٢٤ .

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمها حفلا بطاناً فقال : إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته . فلما كلمه : ﴿ قالَ لا تَخَفْ ، نَجوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ ﴾ (١) ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته ، فقالت إحداهما : ﴿ يا أبَتِ اسْتأجِرْه ، إنَّ خَيرَ مَنْ اسْتأجَرتَ القَويُّ الأمينُ ﴾ (٢) فاحتملته الغيرة على أن قال لها : مايدريك ماقوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالته . ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسرى عن أبيها وصدقها ، وظن به الذي قالت .

فقال له : هل لك ﴿ أنْ أُنكِحَكَ إحْدَى ابْنَتيَّ هاتَيْن عَلَى أنْ تأْجُرَني ثَمانِي حِجَجٍ ، فإنْ أتْمَمت عشْراً فَمِن عنْدِك ، وما أُريدُ أنْ أشُقَ عَليكَ ، سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحينَ ﴾ (٣) ففعل فكانت على نبي الله مسوى ثماني سنين واجبة ، وكانت السنتان عدة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً .

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ لقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، فقال : هل تدرى أي الأجلين قضي موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدري . فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له ، فقال : أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة ، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ؟ وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده ، فإنه قضى عشر سنين . فلقيت النصراني فأخبرته ذلك ، فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولي .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر الناس والعصا ويده ، ما قص الله عليك في القرآن .

فشكا إلى الله تعالي مايتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه

(١) القصص الآية ٢٥ .
(٢) القصص الآية ٢٦
(٣) القصص الآية ٢٧

عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ، يكون له ردءاً ، يتكلم عنه بكثير مما لايفصح به لسانه ، فأتاه الله عز وجل سؤله وحل عقدة من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه .

فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لايؤذن لهما . ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إنَّا رَسُولا رَبِّك ﴾ [1] قال : ﴿ فَمنْ رَبُّكما ﴾ [2] فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن . قال : فما تريدان ؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ، قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معى بني إسرائيل ، فأبي عليه وقال : ﴿ ائتِ بآيةٍ إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فألقَى عَصَاهُ فإذَا هِيَ ﴾ [3] حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل .

ثم أحرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعنى من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول .

فاستشار الملأ من حوله فيا رأى فقالوا له : ﴿ إنَّ هٰذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أنْ يُخْرِجاكُم مِنْ أرْضِكُم بِسحْرِهِما ويَذْهَبا بِطَرِيقَتِكم المثْلَى ﴾ [4] يعنى ملكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرهما .

فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعلم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيات . قالوا : فلا والله ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل ، فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم ، فتواعدوا : ﴿ يَوْمِ الزِّينةِ وأنْ يُحشَرَ النَّاسُ ضُحَى ﴾ [5] .

---

(١) طه الآية ٤٧ .

(٢) طه الآية ٤٩ .

(٣) الأعراف الآيات ١٠٦ ، ١٠٧

(٤) طه الآية ٦٣

(٥) طه الآية ٥٩ .

قـال سعيـد : فحـدثني ابن عبـاس أن يوم الزينـة ، اليوم الـذي أظهر الله فيـه مـوسى على فرعون والسحرة ، هو يوم عاشوراء .

فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هـذا الأمر ﴿ لعَلَّنـا نَتَّبع السَّحَرة إنْ كانُوا هُمُ الغَالبِينَ ﴾ [١] يعنون موسى وهـارون استهزاء بهما ، فقـالوا يـاموسى ، بعد تريثهم بسحرهم : ﴿ إمَّـا أنْ تُلقِي وإمَّـا أنْ نَكونَ نَحنُ الملْقِينَ ﴾ [٢] قـال بل ألقوا ، ﴿ فـألقَوا حِبَـالَهُم وعِصِيَّهُمْ وقـالوا بعزَّةِ فِرْعوْنَ إنَّـا لنَحنُ الغَـالبُـونَ ﴾ [٣] فرأى مـوسى من سحرهم مـا أوجس في نفسه خيفة ، فأوحي الله إليه : ﴿ أنْ ألْقِ عَصَاكَ ﴾ [٤] فلمـا ألقـاهـا صـارت ثعبـاناً عظيمة فأغرة فاها ، فجعلت العصا تلتبس بالحبال ، حتى صارت حرزاً للثعابين تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته .

فلما عرف السحرة ذلك ، قالوا لو كان هـذا سحراً لم يبلغ من سحرنـا كل هـذا ،ولكنـه أمر من الله تعالى ، آمنا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه .

فكسر الله ظهر فرعون في ذلـك الموطن وأشيـاعـه وظهر الحق ﴿ وبَطَل مـا كانُوا يعْمَلونَ * فَغُلبُوا هُنالكَ وانْقلبُوا صاغِرينَ ﴾ [٥] .

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعـه ، فمن رآهـا من آل فرعون ظن أنها ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ،وإنما كان حزنها وهمُّها لموسى .

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ، كلما جاء بآية وعده عندهـا أن يرسل معـه بني إسرائيل ، فـإذا مضت أخلف موعـده وقـال هل يستطيع ربـك أن يصنع غير هـذا ؟ أرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات . كل كـذلـك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ليوافقه علي أن يرسل معـه بني إسرائيل ، فـإذا كف ذلـك

---

(١) الشعراء الآية ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١١٥ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٤٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١١٧ .

(٥) سورة الأعراف آيتا ١١٨ ، ١١٩ .

عنه أخلف بوعده ونكث عهده ، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه ، فخرج بهم ليلاً .

فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه .

فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل !

فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿ قالَ أصْحابُ مُوسَى إنَّا لمدْرَكونَ ﴾ [1] افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب ، قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى . فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقي عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالُوا يامُوسَى اجْعَل لَنا إلٰهاً كَما لَهمْ آلِهَةٌ ، قالَ إنَّكُم قومٌ تَجْهلون * إنَّ هٰؤلاءِ مُتبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وباطلٌ ما كانُوا يعْمَلونَ ﴾ [2] قد رأيتم من العبر وسمعتم مايكفيكم .

ومضى فأنزلهم موسى مَنْزلا وقال : أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم ، فإني ذاهب إلى ربي . وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها .

فلما أتي ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً ، وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فقال له

---

(١) سورة الشعراء الآية ٦١ .

(٢) سورة الأعراف آيتا ١٣٨ ، ١٣٩

ربه حين أتاه لم أفطرت ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال : يارب .. إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح . قال : أوما علمت ياموسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! ارجع فصم عشراً ثم ائتني ، ففعل موسى ما أمره به ربه .

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك ،وكان هارون قد خطبهم فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ، ولكم فيها مثل ذلك وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ،ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا . فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ، ثم أوعد عليه النار فأحرقه ، فقال : لايكون لنا ولا لهم .

وكان السامري من قوم يعبدون البقر ، جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون : ياسامري .. ألا تلقي مافي يديك ؟ وهو قابض عليه لايراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقيها لشيء ، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون . فقال : أريد أن تكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلاً أجوف ، ليس فيه روح وله خوار .

قال ابن عباس : لا والله ما كان فيه صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك .

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ، فقالت فرقة : ياسامري .. ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق !

وقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فان كان ربنا لم نكن ضيعناه وعكفنا عليه حين رأيناه ،وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولانصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به .

فقال لهم هارون عليه السلام : ﴿ ياقَوْمِ إنَّمَا فُتِنتُمْ به ، وإنَّ ربَّكُمُ الرَّحْمنُ ﴾[1] ليس هذا .

---

(١) سورة طه الآية ٩٠ .

قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا ؟ هذه أربعون يوماً قد مضت . وقال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه ويبتغيه .

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقي قومه من بعده : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ [1] فقال لهم ماسمعتم مما في القرآن ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ [2] وألقى الألواح من الغضب . ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له ،وانصرف إلى السامري فقال له : ماحملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾ [3] ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه .

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون ، فقالوا لجماعتهم : ياموسى .. سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ماعلمنا . فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك ، لايألوا الخير من خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض .

فاستحيا نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم مافعل فقال : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [4] وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، لذلك رجفت بهم الأرض فقال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [4] .

فقال : يارب .. سألتك التوبة لقومي ، فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي ، فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم . فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل

---

(١) طه الآية ٨٦ .

(٢) الأعراف ١٥٠ .

(٣) طه الآيات ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) الأعراف الايات ١٥٦ . ١٥٧ .

منهم من لقي من والد وولد ، فيقتله السيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن .

وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون أمرهم ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة ،وأخذ الألواح بعد ماسكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها ، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم . ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجباً من عظمها . فقالوا : ﴿ يامُوسَى إنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ ﴾ [١] لاطاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ماداموا فيها ، ﴿ فإنْ يخْرجُوا مِنْها فإنَّا داخِلُون ﴾ [١] .

﴿ قالَ رجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يخَافُون ﴾ [٢] قيل ليزيد : هكذا قرأه ؟ قال : نعم ، من الجبارين ، آمنا بموسى وخرجا إليه ، فقالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . ويقول أناس : إنهم من قوم موسى .

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل : ﴿ يامُوسَى إنَّا لَنْ نَدْخلَها أبداً مادامُوا فِيها ، فاذْهَب أنْتَ وربُّكَ فقَاتِلا إنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ﴾ [٣] فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذ فاستجاب الله له ، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ثم ظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لاتبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً ، وأمر موسى فضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، في كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها ، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالمنزل الأول بالأمس .

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٢٣ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢٤

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ،وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل . فقال : كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيت معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري ، فقال له : ياأبا إسحاق .. هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلي الذي أفضي عليه أم الفرعوني ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره .

وهكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي ، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون .

والأشبه ـ والله أعلم ـ أنه موقوف ، وكونه مرفوعاً فيه نظر .

وغالبة متلقى من الإسرائيليات ، وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام .

وفي بعض مافيه نظر ونكارة ، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار . وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك .. والله أعلم .

بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأنعام ، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ، ولها عشر سرادقات ، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً ،وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة ، وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره ، وبعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون بطوله ذراعين ونصفاً ، وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ، ويكن مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه ، وله أربع حلق في أربع زواياه ، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب ـ يعنون صفة ملكين بأجنحة ـ وهما متقابلان صنعة رجل اسمه : « بصليال » .

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز طولها ذراعان وعرضها ذراعان ونصف ، لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب ، وأربع حلق من نواحيها من ذهب ، مغرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً . وأن يعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة ، ويصنع منارة من الذهب دلي فيها ست قصبات من ذهب ، من كل جانب ثلاثة ، على كل قصبة ثلاثة سرج ، وليكن في المنارة أربع قناديل ، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب . صنع ذلك « بصلياال » أيضاً ، وهو الذي عمل المذبح أيضاً

ونصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم ، وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة ، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله تعالى : ﴿ إنّ آيةَ مُلْكِهِ أنْ يأْتِيكُم التَّابوتُ فيه سَكِينَةٌ مِنْ ربِّكُم وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وآلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الملائِكَةُ ، إن في ذلكَ لآيَةً لَكُم إنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ ﴾ [1] .

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جدًّا ،وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم ، وكيفيته . وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ، ويتقربون عندها ، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها ، وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرون عند ذلك سجداً لله عز وجل .

ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ، ويأمره وينهاه ،وهو واقف عند التابوت صامد إلى مابين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي .

وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء ، يجيء إلى قبة الزمان ،ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة .

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم ، أعني استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ ، في معبدهم وعند مصلاهم ، فأما في شريعتنا فلا ، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها ، لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما وسع مسجد رسول الله ﷺ ، للذي وكله على عمارته : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس . وقال ابن

---

(1) سورة البقرة الآية ٢٤٨ .

عباس : لاتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصاري كنائسها .

وهـذا من بـاب التشريف والتكريم والتنزيـه ، فهـذه الأمـة غير مشـابهـة من كل قبلهم من الأمم ، إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصـارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكير في غير ماهم بصدده ، من العبادة العظيمة .. فلله الحمد والمنة .

وقـد كانت قبـة الـزمـان هـذه مع بني إسرائيـل في التيـه ، يصلـون إليـه وهي قبلتهم وكعبتهم ،وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام .

فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم ، من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن .

وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام ،وهو الـذي دخل بهم بيت المقدس كما سيأتي بيانه .

والمقصود هنا أنه لمـا استقرت يـده على البيت المقـدس ، نصب هـذه القبـة على صخرة بيت المقـدس فكانوا يصلون إليهـا . فلمـا بـادت صلـوا إلى محلتهـا وهي الصخرة ، فلهـذا كانت قبلـة الأنبيـاء بعـده إلى زمـان رسول الله ﷺ ، وقـد صلى إليـه رسـول الله ﷺ قبـل الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه ، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقـدس فصلي إليـه سـتـة عشر - وقيل سبعة عشر - شهراً .

ثم حولت القبلة إلى الكعبـة وهي قبلـة إبراهيم الخليل في شعبـان سنـة ثنتين في وقت صلاة العصر وقبـل الظهر ، كما بسطنـا ذلـك في التفسير عنـد قـولـه تعـالى : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُم عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ﴾ [1] إلى قـولـه : ﴿ **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ [2] الآيات .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٢ .

(٢) سورة البقرة لآية ١٤٤ .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوم مُوسَى فَبغَى عَلَيْهِمْ ، وآتَيناهُ مِنَ الكُنوزِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتنُوءُ بالعُصْبَة أُولِي القُوَّةِ إذْ قالَ لَه قَومُهُ لاتَفْرحْ ، إنَّ اللهَ لايُحبُّ الفَرِحِينَ * وابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرةَ ، ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وأحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللهُ إليْكَ ، ولا تَبْغِ الفَسادَ في الأرْضِ ، إنَّ اللهَ لايُحبُّ المُفْسِدينَ * قالَ إنَّما أُوتيتُه على عِلْمٍ عِنْدِي ، أوَ لَم يعْلَم أنَّ اللهَ قَدْ أهْلَكَ مِنْ قَبلِهِ مِنَ القُرونِ مَنْ هُو أشَدُّ منْه قُوةً وأكْثَرُ جَمْعاً ، ولا يُسْألُ عَنْ ذُنُوبِهم المُجْرِمُونَ * فَخَرجَ على قَوْمِه في زِينَتِه ، قالَ الذِينَ يُرِيدُونَ الحَياةَ الدُّنْيا يالَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إنَّهُ لَذُو حظٍّ عَظِيمٍ * وقالَ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ويْلَكُم ثَوابُ اللهِ خيْرٌ لمنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً ، ولا يُلقَّاها إلا الصَّابرُونَ * فَخَسَفْنا بهِ وبدارِهِ الأرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئةٍ ينْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وما كانَ مِنَ المُنْتَصرينَ * وأصْبَحَ الذِينَ تَمنَّوا مَكانَهُ بالأمْسِ يقُولونَ ويْكأنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ويقْدرُ ، لوْلا أنْ مَنَّ اللهُ عَليْنا لَخَسَفَ بِنا ، ويْكأنهُ لايُفلحُ الكافِرُونَ * تِلكَ الدَّارُ الآخِرةُ نَجْعلُها للَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلوًّا في الأرْضِ ولا فَساداً ، والعَاقِبةُ للمتَّقِينَ ﴾ (١) .

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى ، وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وزاد فقال : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى ابن عمران بن قاهث . قال ابن جرير : وهذا قول أكثر أهل العلم ، أنه كان ابن عم موسى ، ورد قول ابن إسحاق أنه كان عم موسى . قال قتادة : وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله ، وقال شهر بن حوشب : زاد في ثيابه شبراً طولا ترفعاً على قومه .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه ، حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد ، وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا .. فالله أعلم .

---

(١) القصص الآيات ٧٦ ـ ٨٣

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين : ﴿ لاتَفْرحْ ﴾ أي لاتبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ إنّ اللهَ لايُحبُّ الفَرحينَ * وابْتَغ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَةَ ﴾ يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ، فإنه خير وأبقى ،ومع هذا : ﴿ لا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾[1] أي وتناول منها بمالك ما أحل الله لك ، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ، ﴿ وأحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللهُ إليكَ ﴾ أي وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ، ﴿ ولا تَبْغِ الفَسادَ في الأرْضِ ﴾ أي ولا تسئ إليهم ولا تفسهم فيهم ، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلبك ما وهبك : ﴿ إنّ اللهَ لايُحبُّ المفْسِدِينَ ﴾ .

فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن ﴿ قالَ إنَّما أُوتيتهُ عَلَى علْمٍ عِنْدي ﴾ يعنى أنا لا أحتاج إلى استماع ماذكرتم ، ولا إلى ماإليه أشرتم ، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه ، وأني أهل له ، ولولا أني حبيب إليه وحَظّي عنده لما أعطاني ما أعطاني .

قال الله تعالى ردًا عليه فيما ذهب إليه : ﴿ أوَ لَمْ يَعلَم أنّ اللهَ قَدْ أهلَكَ مِنْ قَبْلِه مِنَ القُرونِ مَنْ هُو أشَدُّ مِنْهُ قُوة وأكثَر جَمْعاً ، ولا يُسألُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المجْرِمُونَ ﴾ أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولاداً فلو كان ماقال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به ، كما قال تعالى : ﴿ وما أمْوالكُم ولا أوْلاَدكُم بالّتي تُقرّبكُم عِنْدنا زُلْفَى إلاَّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ أيحْسَبُونَ أنّما نُمدهُم بِهِ مِنْ مالٍ وبَنِينَ * نُسارعُ لَهُم في الخَيرات ، بلْ لايَشْعرونَ ﴾[3] وهذا الرد عليه يدل على صحة ماذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ إنَّما أُوتيتُهُ على عِلمٍ عِنْدِي ﴾ .

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، لو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال ، فليس بصحيح ، لأن الكيمياء تخييل وصنعة ، ولاتحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخالق . والاسم الأعظم لايصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثم لايصح جوابه لهم بهذا على التقدير ، ولا يبقى بين الكلامين تلازم وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ، ولله الحمد .

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) سورة سبأ الاية ٥٦ .

(٣) سورة المؤمنين آيتا ٥٥ ، ٥٦ .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ في زِينَتِهِ ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم ، من ملابس ومراكب وخدم وحشم ، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله ، وغبطوا بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ، ذوو الفهم الصحيح الزهاد الأنبياء ، قالوا لهم : ﴿ ويْلَكُم ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لمنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى . قال الله تعالىٰ : ﴿ ولا يُلقَّاها إلاَّ الصَّابرُونَ ﴾ أي وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة . وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية ، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده ، وأيد لبه وحقق مراده .

وما أحسن ماقال بعض السلف : إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال الله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنا بهِ وبدَارِهِ الأرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئةٍ يَنْصرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وما كانَ مِنَ المنْتَصرينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها ، وفخره على قومه بها قال : ﴿ فَخَسَفْنا بهِ وبدَارِهِ الأرْضَ ﴾ كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلي يوم القيامة » .

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه ،وقد ذكر عن ابن عباس والسدي : أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس : إنكَ فعلت بي كذا وكذا ، فيقال إنها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق وصلى ركعتين ، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك ، وما حملك عليه ، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه . فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون . فأوحى الله إليه : إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك .. والله أعلم .

وقد قيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته مر بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسىٰ عليه السلام ، وهو يذكر قومه بأيام الله . فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه فدعاه موسى عليه السلام فقال له : ماحملك على هذا ؟ فقال : ياموسى .. أما لئن كنت فضلت عليَّ بالنبوة ، فقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علي ولأدعون عليك .

فخرج موسى وخرج قارون في قومه ، فقال له موسى : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يجب له في موسى ، فقال موسى : أدعو ؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم مر الأرض فلتطعني اليوم ، فأوحى الله إليه : إني قد فعلت . فقال موسى : يا أرض .. خذيهم . فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم . ثم قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوي ، فاستوت بهم الأرض .

وقد روى عن قتادة أنه قال : يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة ، وعن ابن عباس أنه قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة ، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ لم يكن ناصر له من نفسه ولا من غيره كما قال : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (١)

ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم من كان يتمنى مثل ما أوتي ، وشكروا الله تعالى ، الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقد تكلمنا على لفظ : ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ في التفسير ، وقد قال قتادة ، ويكأن بمعنى ألم تر أن . وهذا قول حسن من حيث المعنى .. والله أعلم .

ثم أخبر تعالى : أن ﴿ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ وهي دار القرار ،وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هي معدة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً ﴾ فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر .

والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية ، من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

---

(١) الطارق الآية ١٠

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التيه ، وتكون الدار عبارة على المحلة التي تضرب فيها الخيام ، كما قال عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

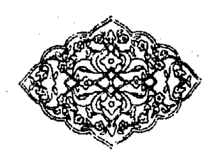
.. والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن ، قال الله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ (١) .

وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ،وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) .

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم ، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى بن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » . انفرد به أحمد رحمه الله .



---

(١) غافر الآيات ٢٣ ، ٢٤

(٢) العنكبوت الآيات ٣٩ ، ٤٠

قال الله تعالى : ﴿ واذكُر في الكِتابِ مُوسَى ، إنَّه كانَ مُخلَصاً وكانَ رسُولاً نَبيًّا * ونَادَيْنَاهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الأَيْمنِ وقرَّبناهُ نَجيًّا * ووهبْنا لهُ مِنْ رَحْمتِنا أخاهُ هارُونَ نَبيًّا ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ قالَ يامُوسَى إنِّي اصْطَفَيتُك علَى النَّاسِ برِسالاتِي وبِكلامِي فَخذْ ما آتَيتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ ﴾ [2] .

وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لاتفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي ؟ أم جوزي بصعقة الطور » ؟

وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهو - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، قطعاً جزماً لايحتمل النقيض .

وقال تعالى : ﴿ إنَّا أوْحَينَا إليْكَ كَمَا أوْحَينا إلَى نُوحٍ والنَّبيِّينَ مِنْ بَعْدهِ وأوْحَيْنا إلَى إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ ويعْقُوبَ والأسْبَاط ﴾ [3] إلى أن قال : ﴿ ورُسلاً قَدْ قَصصْنَاهُمْ عَليكَ ورُسلاً لَمْ نَقْصصْهُمْ عَليكَ ، وكلَّم اللهُ موسَى تَكْليماً ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تكُونُوا كالذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبرَّأهُ اللهُ مِمَّا قالُوا ، وكانَ عِندَ اللهِ وجيهاً ﴾ [5] .

قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ابن روح بن عبادة ، عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حييًّا ستِّيراً لايرى من جلده شيء استحياء منه . فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما

---

(١) مريم الايات ٥١ - ٥٣

(٢) الأعراف الآية ١٤٤ .

(٣) النساء الآية ١٦٣ .

(٤) النساء الآية ١٦٤ .

(٥) الأحزاب الآية ٦٩ .

يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبرأه الله مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله عز وجل : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تَكونُوا كالذينَ آذَوْا مُوسَى فَبرّأهُ اللهُ مِمَّا قالُوا ، وكانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً ﴾ .

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمام بن منبه عن أبي هريرة به . وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عنه به . ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيًّا ، كما قال ﴿ ووَهبْنا لَهُ مِنْ رَحمتِنا أخاهُ هارُونَ نَبيًّا ﴾ [1] .

ثم قال البخاري : حدثنا أبو الوليد : حدثنا شعبة عن الأعمش قال : سمعت أبا وائل ، قال : سمعت عبد الله ، قال : قسم رسول الله ﷺ قسماً ، فقال رجل : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب ، حتى رأيت الغضب في وجهه ، ثم قال : « يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان ، عن زيد بن أبي زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لايبلغني أحد من أحد شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » قال : وأتي رسول الله ﷺ مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . فثبت حتى سمعت ماقالا ، ثم أتيت رسول الله فقلت :

---

(١) سورة مريم الآية ٥٣ .

يارسول الله .. إنك قلت لنا لايبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ، ثم قال : « دعنا منك فقد أوذي موسى أكثر من ذلك فصبر » !

وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم به . وفي رواية للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السدي عن الوليد به . وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره ، ورواه مسلم عن أنس .

وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى في السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى ، فسلم عليه . قال : « فسلمت عليه فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فلما تجاوزت بكى . قيل له مايبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي » !

وذكر إبراهيم في السماء السابعة ، وهذا هو المحفوظ .

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر ، عن أنس ، من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة ، بتفضيل كلام الله ـ فقد ذكر غير واحد من الحفاظ : أن الذي عليه الجادة : أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لايعودون إليه آخر ماعليهم .

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ـ مر بموسى ، فقال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة . فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل . ويخفف عنه في كل مرة ، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة . وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون . أي بالمضاعفة ، فجزي الله عنا محمداً ﷺ خيراً ، وجزي الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخاري : حدثنا مسدد ، حدثنا حصين بن نمير عن حصين بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت على

الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق ، فقيل هذا موسى في قومه » .

هكذا روى البخاري هذا الحديث هاهنا مختصراً .

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال : حدثنا شريح ، حدثنا هشام ، حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ قلت : أنا ، ثم قلت : إني لم أكن في صلاة ولكن لدغت . قال ، وكيف فعلت ؟ قلت : استرقيت قال : وما حملك على ذلك ؟ قال قلت : حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي أنه قال : « لارقية إلا من عين أو حمة » فقال سعيد - يعني ابن جبير - قد أحسن من أنهي إلى ماسمع .

ثم قال : حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال : عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي معه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظمي فقلت : هذه أمتي ؟ فقيل : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب ، فإذا سواد عظيم ، فقيل : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل ، فخاض القوم في ذلك ، فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ . وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط ، وذكروا أشياء .

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه » ؟ فأخبروه بمقالتهم فقال : « هم الذين لايكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : أنا منهم يارسول الله ؟ قال : « أنت منهم » ثم قام آخر فقال : أنا منهم يارسول الله ؟ فقال : « سبقك بها عكاشة » !

وهذا الحديث له طرق كثيرة جدًا وهو في الصحاح والحسان وغيرها وقد أوردناها في باب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها .

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيراً ، وأثني عليه وأورد قصته في كتابه

العزيز مراراً ، وكررها كثيراً ، مطولة ومبسوطة ومختصرة ، وأثني عليه ثناء بليغاً .

وكثيراً مايقرنه الله ويذكره ، ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه ، كما قال في سورة البقرة : ﴿ ولمّا جاءَهُم رسُولٌ مِنْ عِندِ اللهِ مُصدِّقٌ لِمَا معَهُم نَبذَ فَريقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وراءَ ظُهورِهِم كأنَّهمْ لايعلَمُون ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ * اللهُ لا إلٰهَ إلاَّ هُو الحيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عليْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصدِّقاً لما بَيْن يَديْهِ وأنْزلَ التَّوراةَ والإنْجيلَ * مِنْ قبلُ هُدًى للنَّاسِ وأنْزلَ الفُرقانَ ، إنَّ الذِينَ كَفرُوا بآياتِ اللهِ لَهُمْ عذابٌ شَديدٌ ، والله عَزِيزٌ ذُو انْتقامٍ ﴾ [2] .

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالُوا ما أنزلَ اللهُ علَى بَشَرٍ مِنْ شَيءٍ ، قلْ مَنْ أنْزلَ الكتابَ الَّذي جاءَ بهِ مُوسَى نُوراً وهُدًى للنَّاسِ ، تجْعَلونهُ قَراطِيسَ تُبْدونَها وتُخفُون كَثيراً ، وعَلِمْتُم مالَمْ تَعلمُوا أنْتُم ولا آباؤُكُم ، قلْ اللهُ ثمَّ ذَرهُم في خَوْضِهِمْ يلْعبُونَ * وهٰذا كتابٌ أنْزلناهُ مُباركٌ مُصدِّقُ الَّذي بيْنَ يَديْهِ ولِتُنْذِرَ أمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها ، والَّذينَ يؤْمِنُون بالآخِرَةِ يؤْمِنونَ بهِ ، وهُمْ علَى صلاَتِهِم يُحافِظُونَ ﴾ [3] .

فأثني الله تعالى على التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظياً .

وقال تعالى في آخرها : ﴿ ثمَّ آتينَا مُوسَى الكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذي أحسنَ وتفْصيلاً لكُلِّ شَيءٍ وهُدًى ورحْمةً لعلَّهمْ بِلقاءِ ربِّهِمْ يؤْمِنُونَ * وهٰذا كِتابٌ أنْزلناهُ مُباركٌ فاتَّبعُوه واتَّقوا لعلَّكُمْ تُرحَمُون ﴾ [4] .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ إنَّا أنْزَلنا التَّوراةَ فيها هُدًى ونُورٌ ، يَحكم بهَا النَّبيُّون الذِينَ أسْلَموا للَّذِينَ هَادُوا والرَّبانيُّون والأحْبارُ بِما اسْتُحفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وكانُوا عليْه شُهداءَ ، فلاَ تَخْشوُا النَّاس واخْشَونِ ولا تَشْتَرُوا بآياتِي ثَمناً قَليلاً ، ومَنْ لَم يحْكُم بِمَا أنْزَل اللهُ فأُولٰئكَ هُم الكافِرُونَ ﴾ [5] إلى أن قال : ﴿ ولْيَحكُم أهلُ الإنْجيلِ بِمَا أنْزلَ اللهُ فِيهِ ، ومَنْ لَمْ يَحْكم بِمَا أنْزَل اللهُ فأُولٰئكَ هُم الفَاسِقُونَ * وأنْزلنَا إليْكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصدقاً لمَا بيْنَ يَديهِ مِنَ الكِتَابِ ومُهيْمناً عَليْهِ ﴾ [6] ... الآية .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠١ .
(٢) سورة آل عمران آيات ١ ـ ٤ .
(٣) سورة الأنعام آيتا ٩١ ، ٩٢ .
(٤) سورة الأنعام آيتا ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٥) سورة المائدة الآية ٤٤ .
(٦) سورة المائدة الآيات ٤٧ ، ٤٨ .

فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره ،وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل ، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأديهم من الكتب ، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها ، فلهذا دخلها مادخلها من تغييرهم وتبديلهم ، ولسوء فهمهم وقصورهم في علومهم ، ورداءة قصودهم وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله ـ مالا يحد ولا يوصف ـ ومالا يوجد مثلة ولا يعرف .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ ولَقدْ آتيْنا مُوسَى وهَارُون الفُرقَانَ وضياءً وذِكْرى للمتَّقِينَ * الذِينَ يخْشَونَ ربَّهم بالغَيْبِ وهُمْ مِنَ السَّاعةِ مشْفِقُونَ * وهٰذا ذِكرٌ مُباركٌ أنْزلناهُ ، أفَأنْتُم لَهُ منْكِرُونَ ﴾ [1] .

وقال الله تعالى في سورة القصص : ﴿ فلمَّا جاءَهُم الحقُّ مِنْ عِنْدنا قالُوا لَوْلا أُوتيَ مِثْل ما أُوتِيَ مُوسَى ، أوَ لَمْ يكْفُروا بمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبلُ ، قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وقالُوا إنَّا بكُلٍّ كافِرُونَ * قُلْ فأْتُوا بِكتابٍ مِنْ عِندِ اللهِ هُو أهْدَى منْهُما أتَّبِعْهُ إن كنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ [2] .

فأثني الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام .

وقالت الجن لقومهم : ﴿ إنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزلَ مِنْ بَعْد مُوسَى ﴾ [3] .

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه : ﴿ اقْرأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذِي خَلَق * خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرأْ وربُّكَ الأكْرمُ * الَّذِي عَلَّم بالقَلَمِ * علَّمَ الإنْسانَ مالَمْ يَعْلَم ﴾ [4] قال : سبوح سبوح ، هذا الناموس الذي أنزل على موسى ابن عمران .

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة ، وأمته كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء ، وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء ، وسادات وكبراء ، لكنهم كانوا فبادوا ،

---

(١) الأنبياء الآيات ٤٨ ـ ٥٠ .

(٢) القصص الآيات ٤٨ ، ٤٩

(٣) الأحقاف الآية ٣٠

(٤) العلق الآيات ١ ـ ٥ .

وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها . ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

الحج للبيت العتيق

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال : « أي واد هذا » قالوا : وادي الأزرق ، قال : « كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية ، وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية » ، حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : « أي ثنية هذه » ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء ، قال : « كأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء ، عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبة » ـ قال هشيم : يعني ليفاً ـ وهو يلبي . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به .

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : « أن موسى حج على ثور أحمر » وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدى ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه « ك ف ر » قال : مايقولون ؟ قال : يقولون مكتوب بين عينيه « ك ف ر » فقال ابن عباس ، لم أسمعه قال ذلك ولكن قال « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة ، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي » قال هشيم : الخلبة : الليف .

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود ، عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم : فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم سبط » قالوا : فإبراهيم ؟ قال : « انظروا إلى صاحبكم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا شيبان قال : حدث قتادة عن أبي العالية ، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران

رجلاً طوالاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس » .

وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر قال الزهري : وأخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ حين أسري به : « لقيت موسى ، قال فنعته ، فإذا رجل - حسبته قال - مضطرب ، رجل الرأس كأنه من رجال الشنوءة ، ولقيت عيسى فنعته رسول الله ﷺ فقال : ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - قال : ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث . وقدتقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

وفاة موسى عليه السلام

قال البخاري في صحيحه : « وفاة موسى عليه السلام » حدثنا يحي بن موسى ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل ، فقال : أرسلتني إلى عبد لايريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : أي رب .. ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن .

قال : فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » .

قال : وأنبأنا معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه .

وقد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة ، عن عمار بن أبي عمار ، عن أبي هريرة مرفوعاً وسيأتي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن ، حدثنا لهيعة ، حدثنا أبو يونس - يعني سليم بن جبير - عن أبي هريرة ، قال : الإمام الأحمد لم يرفعه ، قال : « جاء ملك الموت إلى موسى عليه

السلام ، فقال : أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، فرجع الملك إلى الله فقال : إنك بعثتني إلى عبد لك لايريد الموت ، قال : وقد فقأ عيني . قال : فرد الله عينه ، وقال : ارجع إلى عبدي فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة . قال : ثم مه ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن يارب من قريب » .

تفرد به أحمد ،وهو موقوف بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه عن أبي هريرة ، قال معمر : وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله ﷺ . فذكره .

ثم استشكله ابن حبان ،وأجاب عنه بما حاصله : أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه ، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام كما جاء جبريل في صورة أعرابي ،وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب ، فلم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولا . وكذلك موسى لعله لم يعرفه ، لذلك لطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذن ، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن .

ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه ، قال له : أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه » وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري .

ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه ، قال له : أجب ربك ، وهذا التأويل لايتمشى على ماورد به اللفظ ، من تعقيب قوله : أجب ربك بلطمه ولو استمر على الجواب الأول لتمشي له ، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة ، ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق ، إذ لم يتحقق في تلك الساعة الراهنة أنه ملك كريم ، لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته ، من خروجهم من التيه ، ودخولهم الأرض المقدسة ، وكان قد سبق في قدر الله أنه عليه السلام يموت في التيه بعد هارون أخيه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وقد زعم بعضهم : أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين :

ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : « رب أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر »،

ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك . ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها ، وحث قومه عليها .ولكن حال بينهم وبينها القدر ، رمية بحجر .

ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر : « فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان : حدثنا حماد ، حدثنا ثابت وسليمان التيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر » . ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

وقال السدي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، وعن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوف هارون فائت به جبل كذا وكذا .

فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها ، وإذا هم ببيت مبني ، وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة . فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال : ياموسى .. إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه ، قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب علي ، قال له : لاترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم . قال : ياموسى .. بل نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هارون الموت . فلما وجد حسه قال : ياموسى خدعتني . فلما قبض رفع ذلك البيت ، وذهبت تلك الشجرة ، ورفع السرير به إلى السماء .

فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا : إن موسى قتل هارون وحسده على حب بني إسرائيل له ، وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى ، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم . فلما بلغه ذلك قال لهم ، ويحكم ! كان أخي أتروني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذا أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة ، فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله . فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدى يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله . فقال : لا والله ما قتلته ، ولكنه استل مني ، فلم

يصدقوه وأرادوا قتله . قال : فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام ، فدعا الله فأتي كل رجل ممن كان يحرسه في المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى ، وإنا قد رفعناه إلينا ، فتركوه .

ولم يبق أحد ممن أبي أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح وفي بعض هذا السياق نكارة وغرابة .. والله أعلم .

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى ، سوى يوشع بن نون ، وكالب ابن يوفنا ، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه : أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج ، فقال : ياملائكة الله .. لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك ،وتنفس أسهل تنفس ، ففعل ذلك ، فمات صلوات الله وسلامه عليه ، فصلت عليه الملائكة ودفنوه .

وذكر أهل الكتاب ، وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ويونس ، قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عمار بن أبي عمار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال : « كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، قال : فأتي موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال : يارب .. عبدك موسى فقأ عيني ، ولولا كرامته عليك لعتبت عليه . وقال يونس : أشفقت عليه قال له : اذهب إلى عبدي ، وقل له فليضع يده على جلد - أو مسك ثور - فله بكل شعرة وارت يده سنة ، فأتاه فقال له ، فقال : ما بعد هذا ؟ قال : الموت . قال : فالآن . قال : فشمه شمة فقبط روحه » .

قال يونس : فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية . وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به ، فرفعه أيضاً .

نبوة يوشع بن نون

هو الخليل يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وأهل الكتاب يقولون : يوشع ابن عم هود .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر كما تقدم من قوله : ﴿ وإذْ قالَ مُوسَى لِفتَاهُ ﴾ [1] ﴿ فلمَّا جَاوزَا قالَ لِفتَاهُ ﴾ [2] وقدمنا ما ثبت في الصحيح من رواية أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون .

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب ، فإن طائفة منهم وهم السامرة ، لايقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرح به في التوراة ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة !

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق : من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى ، فكان موسى يلقي يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي ، حتى قال له : ياكليم الله .. إني كنت لا أسألك عما يوحى الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك . فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت . ففي هذا نظر ، لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله ، حتى توفاه الله عز وجل ، ولم يزل معززاً مكرماً مدللاً وجيهاً عند الله ، كما قدمنا في الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت ، ثم بعثه الله إليه إن كان يريد الحياة فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال ، ثم ماذا ؟ قال : الموت ، قال : فالآن يارب ، وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فهذا الذي ذكر محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب ، ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة : أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٢ .

ولقد ذكروا في السفر الثالث : أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم ، وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميراً وهو النقيب ، وماذاك إلا ليتأهبوا للتقال ، قتال الجبارين عند الخروج من التيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت ، لأنه لم يعرفه في صورته تلك ، ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه ، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام .

كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ثم حج في سنة عشر ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ قاتِلُوا الَّذينَ لايؤْمِنُون باللهِ ولا باليوْم الآخِر ولا يُحرِّمونَ ما حَرَّم اللهُ ورَسُولهُ ولا يَدينُونَ دِينَ الحقّ مِنَ الَّذين أُوتُوا الكِتابَ حتَّى يُعْطوا الجِزْية عَنْ يدٍ وهُمْ صاغِرُونَ ﴾ [1] .

ولما جهز رسول الله جيش أسامة ، توفي عليه الصلاة والسلام وأسامة مخيم بالجرف ، فنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم لما لمَّ شعث جزيرة العرب ، وما كان دهي من أمر أهلها ، وعاد الحق إلى نصابه ، جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم ، ففتح الله لهم ومكن لهم وبهم ، وملكهم نواصي أعدائهم .

وهكذا موسى عليه السلام : كان الله دق أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى : ﴿ ولَقدْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَني إسْرائيلَ وبَعثْنا مِنهُم اثْنَى عَشَر نَقيباً ، وقالَ اللهُ إنّي مَعكُم ، لَئنْ أقَمْتمُ الصَّلاةَ وآتَيتمُ الزَّكاةَ وآمنْتُم برُسُلِي وعزَّرتُموهُم وأقْرضتُم اللهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرنَّ عنْكُم سَيِّئاتِكُم ولأُدْخلَنَّكمْ جنَّاتٍ تجْرى مِنْ تَحتِها الأنْهارُ ، فَمنْ كفَر بعْدَ ذلكَ فَقدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ﴾ [2] يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبت عليكم ، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة ، لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية : ﴿ قُلْ للمُخلَّفِينَ مِنَ الأعْرابِ سَتُدعوْنَ إلى قَومٍ أُولِي بأْسٍ شَديدٍ تُقاتِلونَهُم أو يُسْلِمونَ ، فإنْ تُطيعُوا يؤْتِكُم اللهُ أجراً

(١) سورة التوبة الآية ٢٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٢ .

حَسناً ، وإنْ تَتولَّوا كَمَا تولَّيتُم مِنْ قَبلُ يعذّبكُم عَذاباً أليماً ﴾ [1] .

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل : ﴿ فَمنْ كَفَر بَعْد ذٰلكَ مِنْكُم فَقَد ضلَّ سواءَ السَّبِيلِ ﴾ ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم ، وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ، ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً ، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم . السبط الأول : سبط روبيل لأنه بكر يعقوب ، وكان عدة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديئور . السبط الثاني : سبط شمعون : وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائه ، ونقيبهم شلوميئيل ابن هوريشداي ، السبط الثالث : سبط يهوذا وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة ، ونقيبهم نحشون بن عمينا ذاب . السبط الرابع : سبط أيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نثائيل بن صوعر . السبط الخامس : سبط يوسف عليه السلام وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس : سبط ميشا ، وكانوا أحداً وثلاثي ألفاً ومائتين ، ونقيبهم جمليئيل بني فدهصور . السبط السابع : سبط بنيامين ، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن : سبط حاد ، وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ، ونقيبهم الياساف بن رعوئيل . والسبط التاسع : سبط أشير ، وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم فجعيئيل ابن عكران . السبط العاشر : سبط دان ، وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ، ونقيبهم أخيعزر ابن عمشداي . السبط الحادي عشر : سبط نفتالي ، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم الباب بن حيلون . هذا نص كتابهم الذي بأيديهم .. والله أعلم .

وليس منهم « بنو لاوي » فقد أمر الله موسى ألا يعدهم معهم ، لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة وضربها وخزنها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا ، وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام ، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً ، من ابن شهر فما فوق ذلك ،وهم في أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها ، وهم كلهم حولها ، ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها .

---

[1] سورة الفتح الآية ١٦ .

وجملة ماذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف واحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون . لكن قالوا : فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون فما فوق ذلك ، ممن حمل السلاح ، ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وخمسين رجلاً ، سوى بني لاوي .

وفي هذا نظر ، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم ، لا تطابق الجملة التي ذكروها .. والله أعلم .

فكان بنو لاوي الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل ، وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل ، ورأس الميسرة بنو دان وبنو نفتالي يكونون ساقة . وقرر موسى عليه السلام ـ بأمر الله تعالى له ـ الكهانة في بني هارون ، كما كانت لأبيهم من قبلهم ، وهم : ذناداب وهو بكره ، وأبيهو ، وألعازر ، ويثمر ، والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا : ﴿ فاذهب أنتَ وربُّك فقَاتِلا إنَّا هاهُنَا قاعِدُونَ ﴾ [1] قاله الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس ، وقاله قتادة وعكرمة ، ورواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً .

وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى ، وإنما كان يوشع على مقدمته . وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعورا الذي قال تعالى فيه : ﴿ واتْلُ عَليْهِم نبأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فانْسَلخَ منْها فأتْبعهُ الشَّيْطانُ فكان مِنَ الغَاوِينَ * ولو شئْنا لرَفعْناهُ بها ولكنهُ أخْلَد إلَى الأرْضِ واتَّبعَ هَواهُ فمثَلهُ كَمثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحمِل عَلَيْهِ يلْهثْ أوْ تَترُكْه يلْهثْ ذَلكَ مَثلُ القَومِ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا فاقْصُص القَصَص لَعلَّهم يتفكَّرُونَ * ساءَ مَثلا القَومُ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا وأنْفسَهُم كانُوا يظْلمُونَ ﴾ [2]

وقد ذكرنا قصته في التفسير ، وأنه كان ـ فيما قاله ابن عباس وغيره ـ يعلم الاسم الأعظم ، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى وقومه ـ فامتنع عليهم ، ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ، ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل ، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت ، فضربها فقالت له : يابلعام .. أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ أتذهب إلى نبي الله

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف أيات ٧٥ ـ ١٧٧ .

والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزل عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل « حسبان » ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى وقومه ، ويدعو على قوم نفسه ، فلاموه على ذلك فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا ، واندلع لسانه حتى وقع على صدره ، فقال لقومه : قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة .

ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون في الزنى ، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر ، فمرت امرأة منهم اسمها « كسبتى » برجل من عظماء بني إسرائيل : وهو « زمرى بن شلوم » يقال إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل ، فجعل يجوس فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى « فنحاص » بن العيزار بن هارون ، أخذ حربته وكانت من حديد ، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول : اللهم .. هكذا نفعل بمن يعصيك . ورفع الطاعون . فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً ، والمقلل يقول عشرين ألفاً ، وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون ؛ فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللبة والذراع واللحى ، ولهم البكر من كل أموالهم وأنفسها .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح ، وقد ذكره غير واحد من علماء السلف ، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الذيار المصرية ، ولعله مراد ابن إسحاق ، ولكنه غير ما فهمه بعض الناقلين عنه ، وقد قدمنا عن نص التوراة ما يشهد لبعض هذا .. والله أعلم .

ولعل هذه قصة أخرى كانت في خلال سيرهم في التيه ، فإن في هذا السياق ذكر « حسبان » وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس ، أو لعله كان قاصداً بين المقدس ، كما صرح به السدى .. والله أعلم .

وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور : أن هارون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين ، وبعده موسى في التية أيضاً ، كما قدمنا . وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك .

فكأن الذي خرج بهم في التيه ، وقصد بهم بيت المقدس ، هو يوشع بن نون عليه السلام ، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ ، أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن أسواراً وأعلاها قصوراً ، وأكثرها أهلا ، فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضربوا بالقرون ـ يعني الأبواق ـ وكبروا تكبيرة رجل واحد ، فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة ، فدخلوا وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا اثنى عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً كثيرة . ويقال إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين ملكاً من ملوك الشام .

وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم الجمعة بعد العصر ، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ، ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان ، قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علي ، فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عند الطلوع ، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كان الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ، ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق ولا تكذب . ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم ، وفتح أريحا كان وسيلة إليه .. والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، وعن ابن سيرين عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس » انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري .

وفيه دلالة على أن الذي فيه بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام ، لا موسى ، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام . فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه : أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر ، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته ، فسأله رسول الله أن يردها الله عليه حتى يصلي العصر فرجعت . وقد صححه أحمد بن أبي صالح المصري ولكنه ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان ، وهو مما تتوافر الدواعي على نقله ، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها .. والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا عمر ، عن همام عن أبي هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ : « غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة ، وهو يريد أن يبني بها ولما يبن ، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها .

قال : فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علي شيئاً ، فحبست عليه حتى فتح الله عليه ، قال : فجمعوا ما غنموا ، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه ، فقال : فيكم غلول ، فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده ، فقال : فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك ، فبايعته قبيلته قال : فلصقت بيد رجلين ـ أو ثلاثة ـ فقال : فيكم الغلول .. أنتم غللتم .

قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال : فوضعوه بالمال وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته ، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا » .

انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة عن عبيد الله ابن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه . قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً أي ركعاً متواضعين شاكرين الله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم : (**حِطَّة**) أي حط عنا خطايانا التي سلفت ، من نكولنا الذي تقدم منا

ولهذا دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها ، دخلها وهو راكب ناقته ، وهو متواضع حامد شاكر ، حتى إن عثنونه ـ طرف لحيته ـ ليمس مورك رحله ، مما يطأطئ رأسه خضعاناً لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق ، ولاسيا الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ . ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر ، على المشهور من قول العلماء . وقيل إنها صلاة الضحى ، وما حمل هذا القائل على قوله

هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى .

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً ، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة ، وفي رواية : حنطة في شعرة .

وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به ، كما قال تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف وهي مكية : ﴿ وإذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هٰذِهِ القَرْيَةِ وكلُوا مِنْها حَيثُ شِئْتُم ، وقُولُوا حِطَّةٌ ، وادْخُلوا البَابَ سُجَّداً نَغْفر لَكُم خَطيئاتِكُم ، سَنَزِيدُ المُحْسِنينَ * فَبدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُم فأرْسَلنا عَليْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كانُوا يَظلِمُونَ ﴾ [1] .

وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم : ﴿ وإذْ قُلْنا ادْخُلوا هٰذِه القَرْيَةِ فكُلُوا مِنْها حَيثُ شِئْتُم رَغداً وادْخُلوا البابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفر لَكُم خَطاياكُمْ ، وسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ * فَبدلَ الذِينَ ظَلَمُوا قَولاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهمْ فأنْزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كانُوا يفْسُقونَ ﴾ [2] .

وقال الثوري عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ وادْخُلوا البابَ سُجَّداً ﴾ قال : ركعاً من باب صغير رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم ، وكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وكذا روى الثوري عن ابن إسحاق عن البراء .

قال مجاهد والسدي والضحاك : والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس .

قال ابن مسعود : فدخلوا مقنعى رءوسهم ضد ما أمروا به . وهذ لا ينافي قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم . وهكذا في الحديث الذي سنورده بعد ، فإنهم دخلوا يزحفون وهم مقنعوا رءوسهم .

وقوله : « وقُولُوا حِطَّةٌ » الواو هنا حالية لا عاطفة ، أي ادخلوا سجداً في حال قولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أمروا أن يستغفروا .

قال البخاري : حدثنا محمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن ابن المبارك ، عن عمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قيل لبني إسرائيل : ﴿ ادْخُلوا البَابَ

---

(١) سورة الأعراف آيتا ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) سورة البقرة آيتا ٥٨ ، ٥٩ .

سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [1] فبدلوا ، فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة في شعرة » . وكذا رواه النسائي من حديث ابن المبارك ببعضه ، ورواه عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن ابن مهدي به موقوفاً .

وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر، عن همام بن منبه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله لبني إسرائيل : ﴿ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا : حبة في شعرة » .

ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال محمد بن إسحاق : كان تبديلهم كما حدثني صالح بن كيسان ، عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاههم ، وهم يقولون : حنطة في شعيرة » .

وقال أسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود قال في قوله : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قال : قالوا : « هطى سقانا أزمة مزيا » فهي في العربية : « حبة حنطة مثقوبة فيها شعرة سوداء » .

وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة ، بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم ، وهو الطاعون ، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري ، عن عامر بن سعد ، ومن حديث مالك ، عن محمد بن المنكدر ، وسالم أبي النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة بن زيد ، عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » .

وروى النسائي وابن أبي حاتم وهذا لفظه من حديث الثوري عن حبيب بن أبي ثابت ، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم » ، وقال الضحاك عن ابن عباس : الرجز العذاب ، وكذا قال مجاهد وأبو مالك والسدي والحسن وقتادة . وقال أبو العالية : هو الغضب ، وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد ، وقال سعيد بن جبير : هو الطاعون .

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٨

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه ، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه ، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة ، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

قصتا الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر : فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني ، وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف ، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر عليه السلام ، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام ، الذي أنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف في الخضر ، في اسمه ، ونسبه ، ونبوته ، وحياته إلى الآن - على أقوال - سأذكرها لك هنالك إن شاء الله وبحوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساكر : يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه ، ثم روى من طريق الدارقطني : حدثنا محمد بن الفتح القلانسي ، حدثنا العباس بن عبد الله الرومي ، حدثنا رواد ابن الجراح ، حدثنا مقاتل بن سليمان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الخضر ابن آدم لصلبه ، ونسئ له في أجله حتى يكذب الدجال . وهذا منقطع وغريب .

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني : سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم .

قال : وذكر ابن إسحاق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة ، وأن يدفنوه معهم في مكان عينه لهم فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا : إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة فحرضهم وحثهم على ذلك . وقال : إن آدم دعا لمن يلي دفنه بطول العمر ، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، وأنجز الله ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاء الله له أن يحيا .

وذكر ابن قتيبة في « المعارف » عن وهب بن منبه : أن اسم الخضر « بليا » ويقال بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام .

وقال سماعيل بن أبي أويس : اسم الخضر - فيما بلغنا والله أعلم - المعمر بن مالك بن عبد الله ابن نصر بن الأزد . وقال غيره : هو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو : أرميا بن حلقيا .. فالله أعلم .

وقيل إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر . وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزي : رواه محمد بن أيوب عن ابن لهيعة ، وهما ضعيفان .

وقيل : إنه ابن مالك وهو أخو إلياس ، قال السدي كما سيأتي . وقيل إنه كان على مقدمة ذي القرنين . وقيل كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه . وقيل كان نبياً في زمن نشتاسب ابن بهراسب .

قال ابن جرير : والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون ابن إثفيان حتى أدركه موسى عليه السلام .

وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخضر أمه رومية وأبوه فارسي .

وقد ورد ما يدل على أنه من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً .

قال أبو زرعة في « دلائل النبوة » : حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : أنه ليلة أسرى به وجد رائحة طيبة ، فقال : ياجبريل .. ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها .

وقال : وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشرف بني إسرائيل ، وكان ممره براهب في صومعته ، فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوجه أبوه امرأة فعلمها الإسلام ، وأخذ عليها ألا تعلم أحداً ، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها . ثم زوجه أبوه بأخرى فعلمها الإسلام وأخذ عليها ألا تعلم أحداً ثم طلقها ، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى .

فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر ، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر . قال : قد رأيت الخضر ، قيل : ومن رآه معك ؟ قال فلان ، فسئل فكتم . وكان من دينهم أنه من كذب قتل ، فقتل ، وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة . قال : فبينما

هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس فرعون ، فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان وزوج ، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما ، فأبيا ، فقال : إني قاتلكما ، فجعلهما في قبر واحد ، فقال : وما وجدت ريحا أطيب منهما ، وقد دخلت الجنة .

وقد تقدمت قصة ماثلة بنت فرعون ، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أبي بن كعب ، أو عبد الله بن عباس .. والله أعلم . وقال بعضهم : كنيته أبو العباس ، والأشبه ، والله أعلم أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخاري رحمه الله : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء » . .

تفرد به البخاري ، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به .

ثم قال عبد الرزاق : الفروة : الحشيش الأبيض وما أشبه ، يعني الهشيم اليابس . وقال الخطابي : وقال أبو عمر : الفروة : الأرض التي لا نبات فيها . وقال غيره : هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ، ومنه قيل : فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر ، كما قال الراعي :

ولقد ترى الحبشي حول بيوتنا   جذلا إذا ما نال يوماً مأكلا
صعلا أصك كان فروة رأسه   بذرت فأنبت جانباه فلفلا

قال الخطابي : ويقال : إنما سمى الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه ، قلت : وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح ، فإن كان ولابد من التعليل بأحدهما ، فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى ، بل لا يلتفت إلى ما عداه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأبلي : حدثنا عثمان وأبو جزى وهمام بن يحيى ، عن قتادة ، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إنما سمى الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء » . وهذا غريب من هذا الوجه .

وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله .

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر ، وجداه على طنفسة خضراء على كبد البحر ، وهو مسجى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فسلم موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فرد ، وقال : إني بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : نبيّ بَني إسرائيل ؟ قال : نعم . فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما .

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ فوَجدا عَبداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رحْمةً مِنْ عِنْدِنا وعلَّمناهُ مِنْ لَدنَّا عِلماً ﴾ [1] . .

الثاني : قول موسى له : ﴿ هَلْ أتَّبعكَ عَلَى أنْ تُعلِّمني مِمَّا عُلِّمت رُشْداً * قالَ إنَّك لَنْ تَسْتطيعَ مَعِيَ صَبْراً * وكيْفَ تَصبرُ عَلَى ما لَمْ تُحِطْ بهِ خُبْراً * قالَ ستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِراً ولا أعْصِي لكَ أمراً * قالَ فإنِ اتَّبعتَني فلا تَسْألني عَنْ شَيءٍ حتَّى أُحْدثَ لكَ مِنْه ذِكْراً ﴾[2] .

فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه بهذه المخاطبة ، ولم يرد على موسى هذا الرد ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه . فلو كان غير نبي ، لم يكن معصوماً ، ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة ، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه ، ولو أنه يمضي حقباً من الزمان ، قيل ثمانين سنة . ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه ، واتبعه في صورة مستفيد منه فدل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه ، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم ، نَبيّ بَني إسرائيل الكريم . وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل الغلام ، وما ذلك إلا للوحي إليه من الملك العلام وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علما منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتها له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، دل ذلك على نبوته ، وأنه

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف آيات ٦٦ ـ ٧٠ .

مؤيد من الله بعصمته .

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه ، وحكى الاحتجاج عليه الرماني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى ، قال بعد ذلك كله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[1] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمر أمرت به وأوحى إلي فيه .

فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافي ذلك حصول ولايته ، بل ولا رسالته ، كما قاله آخرون . وأما كونه ملكاً من الملائكة فقول غريب جداً ، وإذا ثبتت نبوته - كما ذكرناه ، لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر ، مستند يستندون إليه ، ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا ، فالجمهور على أنه باق إلى اليوم ، قيل لأنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة ، وقيل لأنه شرب من عين الحياة فحيي . وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن . وسنوردها مع غيرها إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وهذه وصيته لموسى حين : ﴿ قالَ هذا فِراقُ بَيْني وبَيْنِكَ ، سأُنَبِّئُكَ بتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَليهِ صَبْراً ﴾[2] روى في ذلك آثار منقطعة كثيرة : قال البيهقي : أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو ، حدثنا أبو عبد الله الصفار ، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، حدثني أبو عبد الله الملطي قال : لما أرد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى : أوصني . قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً ، كن بشاشاً ولا تكن غضبان ، ارجع عن اللجاجة ولا تمشي في غير حاجة . وفي رواية من طريق أخرى زيادة : ولا تضحك إلا من عجب .

وقال وهب بن منبه : قال الخضر : ياموسى .. إن الناس معذبون في الدنيا على قدر همومهم بها .

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف الآية ٧٨ .

وقال بشر بن الحارث الحافي : قال موسى للخضر : أوصني . فقال : يسر الله عليك طاعته .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيي الوقاد - إلا أنه من الكذابين الكبار - قال : قرئ على عبد الله بن وهب وأنا أسمع ، قال الثوري ، قال مجالد ، قال أبو الوداك قال أبو سعيد الخدري ، قال عمر بن الخطاب ، قال رسول الله ﷺ : « قال أخي موسى : يارب .. وذكر كلمته - فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها ، فقال : السلام عليك ورحمة الله ياموسى بن عمران ، إن ربك يقرأ عليك السلام . قال موسى : هو السلام وإليه السلام ، والحمد لله رب العالمين ، الذي لا أحصي نعمه ، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته .

ثم قال موسى : أريد أن توصيني بوصية ينفعني الله بها بعدك ، فقال الخضر : ياطالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع ، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم ، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار ،وإنما جعلت بلغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ورض نفسك على الصبر تخلص من الاثم .

ياموسى .. تفرغ للعلم إن كنت تريده ، فإنما العلم لمن تفرغ له ، ولا تكن مكثاراً للعلم مهذاراً فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوئ السخفاء .. ولكن عليك بالاقتصاد ، فإن ذلك مى التوفيق والسداد وأعرض عن الجهال وماطلهم ، واحلم عن السفهاء ، فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء . وإذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً ، وجانبه حزماً ، فإن مابقى من جهلة عليك وسبه إياك أكثر وأعظم .

يا ابن عمران .. ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلا قليلاً ، فإن الاندلاث والتعسف من الاقتحام والتكلف . يا ابن عمران لاتفتحن باباً لاتدرى ماغلقه ،ولا تغلقن باباً لاتدرى مافتحه . ياابن عمران من لاينتهي من الدنيا نهمته ، ولا تنقضي منها رغبته ومن يحقر حاله ، ويتهم الله فيا قضي له كيف يكون زاهداً ؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه ؟ أو نفعه طلب العلم والجهل قد حواه ؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على ديناه .

ياموسى .. تعلم ما تعلمت لتعمل به ، ولا تعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بواره ، ولغيرك نوره ، ياموسى بن عمران .. اجعل الزهد والتقوى لباسك ، والعلم والذكر كلامك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضي ربك ، واعمل خيراً فإنك لابد عامل سوءاً ، قد وعظت إن حفظت .

قال : فتولى الخضر وبقى موسى محزونا مكروباً يبكي .

لايصح هذا الحديث ، وأظنه من صنعة زكريا بن يحيى الوقاد المصري وقد كذبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه ..

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، حدثنا عمرو ابن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي ، حدثنا بقية ابن الوليد ، عن محمد بن زياد ، عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ألا أحدثكم عن الخضر » ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : « بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب ، فقال : تصدق علي بارك الله فيك ، فقال الخضر آمنت بالله ، ما شاء الله من أمر يكون ، ماعندي من شيء أعطيكه فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت علي ، فإني نظرت إلى السماء في وجهك ، ورجوت البركة عندك . فقال الخضر : آمنت بالله ماعندي شيء أعطيكه ، إلا أن تأخذني فتبيعني ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال : نعم ، الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي ، بعني .

قال : فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فمكث عند المشتري زماناً لايستعمله في شيء ، فقال له : إنك إنما ابتعتني التماس خير فأوصني بعمل ، قال : أكره أن أشق عليك ، إنك شيخ كبير ضعيف قال : ليس تشق علي ، قال : فانقل هذه الحجارة . وكان لاينقلها دون ستة نفر في يوم . فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة ، فقال : أحسنت وأجملت وألطفت مالم أرك تطيقه ، ثم عرض للرجل سفر ، فقال : إني أحسبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة قال : فأوصني بعمل ، قال : إني أكره أن أشق عليك قال : ليس تشق علي ، قال : فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك . فمضى الرجل لسفره ، فرجع وقد شيد بناؤه .

فقال : أسألك بوجه الله ماسبيلك وما أمرك ؟ فقال : سألتني بوجه الله ، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية ، سأخبرك من أنا . أنا الخضر الذي سمعت به ، سألني مسكين صدقة فلم

يكن عندي من شيء أعطيه ، فسألني بوجه الله فأمكنته من رقبتي . فباعني . وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائل وهو يقدر ، وقف يوم القيامة جلده لالحم له ولا عظم يتقعقع .

فقال الرجل : آمنت بالله ، شققت عليك يانبي الله ولم أعلم ! فقال : لابأس أحسنت وأبقيت . فقال الرجل : بأبي وأمي يانبي الله ، احكم في أهلي ومالك بما أراك الله . أو أخيرك فأخلي سبيلك ، فقال : أحب أن تخلي سبيلي ، فأعبد ربي ، فخلى سبيله . فقال الخضر : الحمد لله الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها .

وهذا الحديث رفعه خطأ ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وفي رجاله من لايعرف .. فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه « عجالة المنتظر في شرح حال الخضر » من طريق عبد الوهاب بن الضحاك ، وهو متروك عن بقية .

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناد إلى السدي : أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، كان أبوهما ملكاً ، فقال إلياس لأبيه : إن أخي الخضر لارغبة له في الملك ، فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون الملك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لاحاجة لي في النساء ، فإن شئت أطلقت سراحك ، وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين على سري . فقالت : نعم ، وأقامت معه سنة .

فلما مضت السنة دعاها الملك ، فقال : إنك شابة وابني شاب فأين الولد ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله ، إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن ، فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها ، فلما زفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها ، فأجابت إلى الإقامة عنده . فلما مضت السنة سألها الملك عن الولد ، فقالت : إن ابنك لاحاجة له بالنساء ، فتطلبه أبوه فهرب ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه ، فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره ، فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى .

فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة ، فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول : باسم الله . فقالت له : أني لك هذا الاسم ؟ فقال : إني من أصحاب الخضر ، فتزوجته فولدت له أولاداً . ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : باسم الله ، فقال ابنة فرعون : أبي ؟ فقالت : لا ، ربي وربك ورب أبيك الله . فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ، ثم أمر بها فألقيت فيها . فلما عاينت

ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقالت لها ابن معها صغير : يـا أمـه .. اصبري فـإنـك على الحق . فألقت نفسها في النار فماتت ، رحمها الله .

وقد روى ابن عساكر عن أبي داود الأعمى نفيع ـ وهو كذاب وضاع ـ عن أنس بن مالـك ، ومن طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف ـ وهو كذاب أيضاً ـ عن أبيـه عن جـده : أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ وهو يـدعو ويقول : « اللهم أعني على مـا ينجيني مما خوفتني ، وارزقني شوق الصـالحين إلى مـا شوقتهم إليـه » فبعث إلى رسـول الله ﷺ أنس بن مـالـك فسلم عليه فرد عليه السلام وقال له : « إن الله فضلك على الأنبيـاء كما فضل شهر رمضـان على سـائر الشهور ، وفضل أمتك على أمم كما فضل يوم الجمعة على غيره » الحديث .

وهو مكـذوب لايصح سنـداً ولا متنـاً ، فكيف لا يتمثل بين يـدي رسـول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلماً ومتعلماً ؟!

وهم يذكرون في حكايـاتهم ومـا يسنـدونه عن بعض مشـايخهم أن الخضر يـأتي إليهم ويسلم عليهم ، ويتعرف أسماءهم ومنـازلهم ومحـالهم ، وهو مـع هـذا لايعرف مـوسى بن عمران كليم الله ، الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه ، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل .

وقد قال الحـافـظ أبو الحسن بن المنـادي ، بعـد إيراده حـديث أنس هـذا : وأهل الحـديث متفقون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن ، يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي قائلاً : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبـأنـا أبو بكر بن بالويه ، حدثنا محمد بن بشر بن مطر ، حدثنا كامل بن طلحة ، حـدثنـا عبـاد بن عبد الصمد ، عن أنس بن مالك قال : لما قبض رسول الله ﷺ أحدق به أصحابه ، فبكوا حوله واجتمعوا ، فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضاً من كل فـائت ، وخلفـاً من كل هالك ، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ، وقد نظر إليكم في البلاء فانظروا ، فإن المصاب من لم يجبر . وانصرف .

فقـال بعضهم لبعض : أتعرفون الرجل ؟ فقـال أبو بكر وعلي : نعم ، هـو أخـو رسـول الله ﷺ الخضر عليه السـلام .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كامل بن طلحة به . وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي .

ثم قال البيهقي : عباد بن عبد الصمد ضعيف ، فهذا منكر بمرة . قلت : عباد بن عبد الصمد هذا هو ابن معمر البصري ، روى عن أنس نسخة ، قال ابن حبان والعقيلي : أكثرها موضوع ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وقال أبو حاتم : ضعيف الحديث جدًّا منكره ، وقال ابن عدي : عامة مايرويه في فضائل علي ، وهو ضعيف غال في التشيع .

وقال الشافعي في مسنده : أنبأنا القاسم بن عبد الله بن عمر ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده عن على بن الحسين قال : لما توفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن في الله عزاء من كل مصيبة ،و خلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ،وإياه فارجعوا ، فإن المصاب من حرم الثواب . قال على بن الحسين أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر .

شيخ الشافعي القاسم العمري متروك . قال أحمد بن حنبل ويحي بن معين : يكذب . زاد أحمد : ويضع الحديث ، ثم هو مرسل ومثله لايعتمد عليه هاهنا .. والله أعلم .

وقد روى من وجه آخر ضعيف ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبيه عن على ولا يصح .

وقد روى عبد الله بن وهب عمن حدثه ، عن محمد بن عجلان ، عن محمد بن المنكدر : أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول : لاتسبقنا يرحمك الله . فانتظره حتي لحق بالصف . فذكر دعاءه للميت : إن تعذبه فكثيراً عصاك ، وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دفن قال : طوبي لك ياصاحب القبر إن لم تكن عريفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شرطيًّا . فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو ؟ قال : فتوارى عنهم ، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع . فقال عمر : هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ .

وهذا الأثر فيه مبهم ، وفيه انقطاع ولايصح مثله .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري عن عبد الله بن المحرز ، عن يزيد بن الأصم ، عن على بن أبي طالب قال : دخلت الطواف في بعض الليل ، فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يامن لايمنعه سمع عن سمع ، ويا من تغلطه المسائل ، ويامن لايبرمه إلحاح الملحين ولا مسألة السائلين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك . قال : فقتل أعد على ماقلت ،

فقال لي : أو سمعته ؟ قلت : نعم . فقال لي : والذي نفس الخضر بيده ـ قال : وكان هو الخضر ـ لايقولها عبد خلف صلاة مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ، ولو كانت مثل زبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم ، لغفرها الله له .

وهذا ضعيف من جهة عبد الله بن المحرز ، فإنه متروك الحديث ،ويزيد بن الأصم لم يدرك عليًا ، ومثل هذا لايصح .. والله أعلم .

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي : حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا صالح بن أبي الأسود ، عن محفوظ بن عبد الله الحضرمي ، عن محمد بن يحيى قال : بينما علي بن أبي طالب يطوف بالكعبة ، إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يامن لايشغله سمع عن سمع ، ويامن لايغلطه السائلون ، ويامن لايتبرم بإلحاح الملحّين ارزقني برد عفوك وحلاوة رحمتك . قال : فقال له علي : عبد الله .. أعد دعاءك هذا ، قال : أو قد سمعته ؟ قال : نعم . قال : فادع به في دبر كل صلاة ، فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عدد نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها ، لغفر لك أسرع من طرفة عين .

وهذا أيضاً منقطع ، وفي إسناده من لايعرف .. والله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا : حدثنا يعقوب بن يوسف ، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكره نحوه . ثم قال : وهذا إسناد مجهول منقطع ، وليس فيه مايدل على أن الرجل الخضر .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو القاسم بن الحصين أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد ، أنبأنا أبو إسحاق المزكي ، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان ، أنبأنا عمرو بن عاصم ، حدثنا الحسن بن رزين عن ابن جريج ، عن عطاء عن ابن عباس قال : ـ ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ قال : « يلتقي الخضر وإلياس كل الموسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات : باسم الله ماشاء الله ، لايسوق الخير إلا الله ، ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، ماشاء الله ما كان من نعمة فمن الله ، ماشاء الله لاحول ولا قوة إلا الله » .

قال وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات ، امنه الله من الغرق والحرق والسرق . قال : وأحسبه قال ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطني في الأفراد : هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه يعني الحسن بن رزين هذا . وقد روى عن محمد بن كثير العبدي أيضاً ، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي ، ليس بالمعروف .

وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي : مجهول وحديثه غير محفوظ . وقال أبو الحسن بن المنادي : هو حديث واه بالحسن بن رزين . وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضمي ـ وهو كذاب ـ عن ضمرة بن حبيب المقدسي ، عن أبيه ، عن العلاء بن زياد القشيري ، عن عبد الله بن الحسن ، عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كل يوم عرفة بعرفات ـ جبريل وميكائيل وإسرافيل والخضر . وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصداً .. والله الحمد .

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشني ، عن ابن رواد قال : إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل .

وروى ابن عساكر : أن الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ باني جامع دمشق ـ أحب أن يتعبد ليلة في المسجد ، فأمر القومة أن يخلوه له ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء في باب الساعات فدخل الجامع ، فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء ، فقال للقوم : ألم آمركم أن تخلوه ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي هاهنا .

قال ابن عساكر أيضاً : أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد ، أنبأنا أبو بكر بن الطبري ، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل ، أنبأنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب ـ هو ابن سفيان الفسوي ـ حدثني محمد بن عبد العزيز ، حدثنا ضمرة عن السرى بن يحيي ، عن رباح بن عبيدة ، قال : رأيت رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه ، فقلت في نفسي : إن هذا الرجل حاف ، قال : فلما انصرف من الصلاة قلت : من الرجل الذي كان معتمداً على يدك آنفاً ؟ قال : وهل رأيته يارباح ؟ قلت : نعم . قال : ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضر بشرني أني سألى وأعدل .

قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي : الرملي مجروح عند العلماء . وقد قدح أبو الحسن بن المنادي في ضمرة والسرى ورباح . ثم أورد من طرق أخرى عن عمر بن عبد العزيز ، أنه اجتمع بالخضر ، وضعفها كلها .

وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التيمي وبسفيان بن عيينة وجماعة يطول ذكرهم .

وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم .وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدًّا لايقوم بمثلها حجة في الدين ، والحكايات لايخلو أكثرها عن ضعف الإسناد ، وقصارها أنها صحيحة إلا من ليس بمعصوم من صاحبي أو غيره ، لأنه يجوز عليه الخطأ .. والله أعلم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن الزهري ، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال . وقال فيما يحدثنا : « يأتي الدجال - وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة - فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس - أو من خيرهم - فيقول : أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحيا : والله ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن . قال : فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه » .

قال معمر : بلغني أنه يحمل على حلقه صحيفة من نحاس ، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به . .

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم : الصحيح أن يقال إن هذا الرجل الخضر ، وقول معمر وغيره : بلغني ليس فيه حجة . وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث : فيأتي بشاب ممتلئ شباباً فيقتله ، وقوله الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لايقتضي المشافهة ، بل يكفي التواتر .

وقد تصدي الشيخ أبوالفرج بن الجوزي رحمه الله في كتابه : « عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر » للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعة ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك أحسن الانتقاد .

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ،ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسن بن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي ، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً أسماه « عجالة المنتظر في شرح

حالة الخضر » فيحتج لهم بأشياء كثيرة : منها قوله : ﴿ ومَا جَعلْنا لِبشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْد ﴾ [1] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله .

ومنها أن الله تعالى قال : ﴿ وإذْ أخذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبيِّينَ لَما آتَيتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وحِكْمةٍ ثُمَّ جاءَكُم رسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُم لتؤْمِنُنَّ بهِ ولتنْصُرنَّه ، قالَ أأقْرَرْتُم وأخَذتُم علَى ذلِكُم إصْري ، قالُوا أقْرَرْنا ، قالَ فاشْهدُوا وأنَا مَعكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [2] .

قال ابن عباس : مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه .. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ذكره البخاري عنه .

فالخضر إن كان نبيًّا أو وليًّا ، فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حيًّا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه ، يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه ، لأنه إن كان وليًّا فالصديق أفضل منه ، وإن كان نبيًّا فموسى أفضل منه .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أنبأنا مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني » ، وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة ، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة : أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ لكانوا كلهم أتباعاً له ، وتحت أوامره وفي عموم شرعه . كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم . ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم ، فصلى بهم في محل ولا يتهم ودار إقامتهم . فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجل المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا علم هذا ـ وهو معلوم عند كل مؤمن ـ علم أنه لو كان الخضر حيًّا لكان من جملة أمة محمد ﷺ ، وممن يقتدي بشرعه لايسعه إلا ذلك .

هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة ،

---

(1) سورة الانبياء الآية ٣٤ .

(2) سورة آل عمران الآية ٨١ .

لايخرج منها ولا يحيد عنها ، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل ، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه ، أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالا في مشهد من المشاهد .

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل ، واستنصره واستفتحه على من كفره : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعدها في الأرض » وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام ، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له ، في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب :

وببئر بـــدر إذ يرد وجـــوههم　　　جبريـل تحت لـوائنـــا ومحمـــد

فلو كان الخضر حيًّا ، لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته .

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراد الحنبلي : سئل بعض أصحابنا عن الخضر : هل مات ؟ فقال : نعم . قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال : وكان يحتج بأنه لو كان حيًّا لجاء إلى رسول الله ﷺ .

نقله ابن الجوزي في « العجالة » .

فإن قيل : فهل يقال إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ولكن لم يكن أحد يراه ؟ فالجواب : أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات . ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء ؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته ؟ ثم لو كان باقياً بعده ، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية ،وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهود جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقريره الأدلة والأحكام ، أفضل مما يقال عنه من كنونه في الأمصار ، وجوبه الفيافي والأقطار . واجتماعه بعباد لايعرف أحوال كثير منهم ،وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذي ذكرناه لايتوقف فيه أحد بعد التفهيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ماثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإنه إلى مائة سنة لايبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم

أحد » . وفي رواية « عين تطرف » قال ابن عمر : فوهل الناس من مقالة رسول الله ﷺ هذه ، أراد نخرام قرنه .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري قال : أخبرني سالم بن عبد الله وأبو بكر بن سلمان بن أبي خيثمة ، أن عبد الله بن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قام فقال : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة لايبقى ممن على ظهر الأرض أحد » . وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن سليمان التيمي ، عن أبي نضرة ، عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما من نفس منفوسة - أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة - يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية » .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « يسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله ، أقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة » .

وهكذا رواه مسلم من طريق أبي نضرة وأبي الزبير : كل منهما عن جابر بن عبد الله به نحوه .

وقال الترمذي : حدثنا عباد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة » .

وهذا أيضاً على شرط مسلم .

قال ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر .

قالوا : فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع ، فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه ، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ، لأنه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله .. والله أعلم .

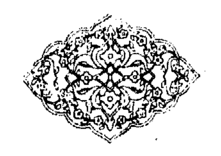
وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه « التعريف والأعلام » عن البخاري وشيخه

أبي بكر العربي : أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث .

وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا وأنه بقى إلى زمان النبي ﷺ نظر .

ورجح السهيلي بقاءه ، وحكاه عن الأكثرين .

قال : وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح ، ثم ذكر ماتقدم مما ضعفناه ، ولم يورد أسانيدها .. والله أعلم .



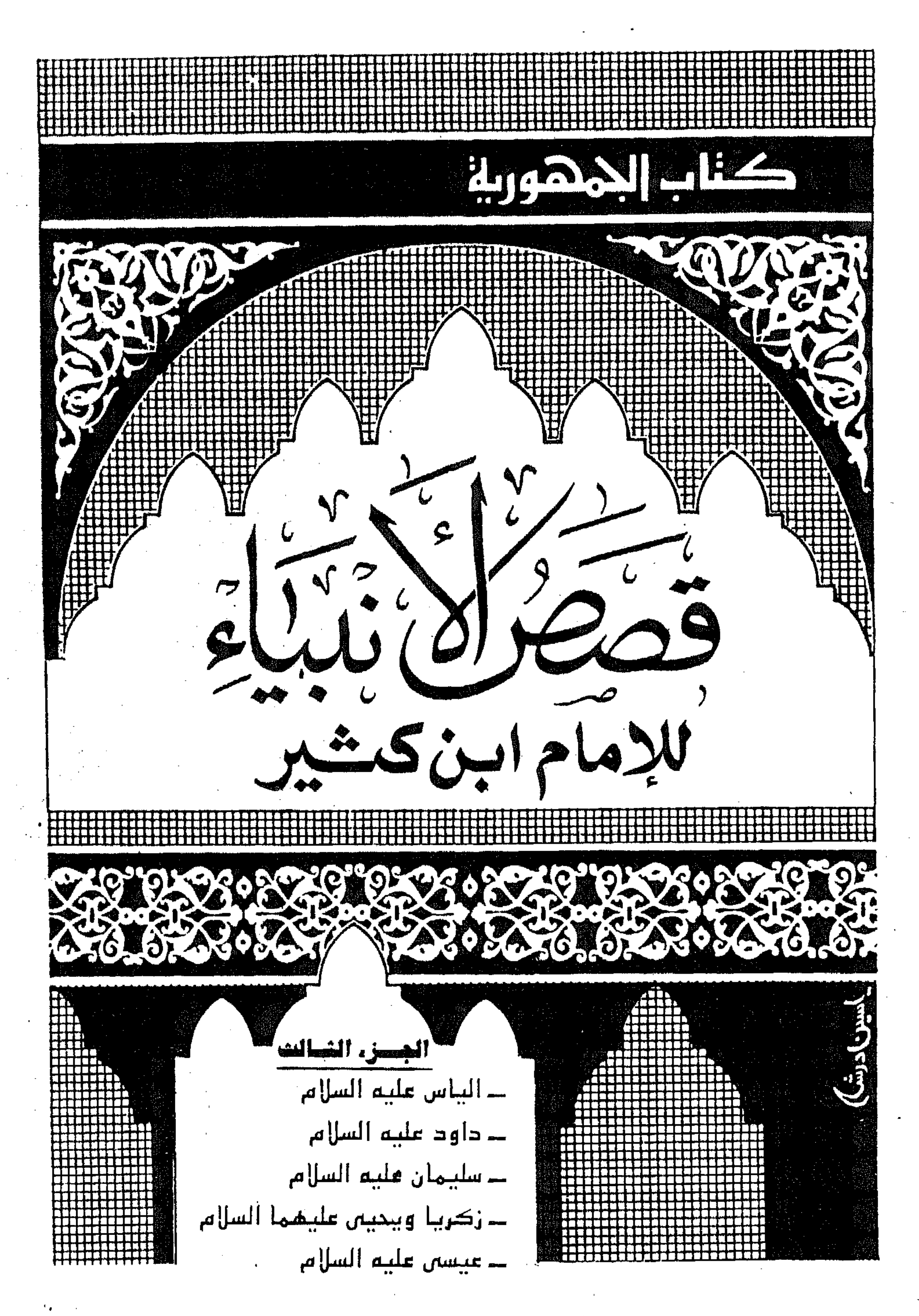
الفهـــرس

صفحة


مصر للتأمين
أربـــاح
التأمين المختلط مع الإشتراك فى الأرباح
هذا العام
٦٠
جنيهًا سنويًا
لكل مبلغ تأمين قدره ألف جنيه
ناصر



بسم الله الرحمن الرحيم
بنك مصر
فروع المعاملات الإسلامية
وحدات تزاول نشاطها وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية بإشراف لجنة من كبار علماء الأزهر
تقبل جميع أنواع الودائع بالعملة المحلية والعملات الأجنبية .
تقدم الخدمات المصرفية وتمول المشروعات وفقاً لنظام المشاركة والمرابحة والمضاربة .
توزع ناتج الربح الحلال على عملائها المستثمرين بما أحله الله .
تنفرد بإصدار الشهادات الإسلامية ذات العائد المتغير
شهادات بنك مصر
للمعاملات الإسلامية
بالجنيه المصري والدولار الأمريكي
شهادات بنك مصر
للمعاملات الإسلامية
ذات العائد الشهري
بالجنيه المصري والدولار الأمريكي
تستثمر أموال هذه الشهادات في مشروعات إسلامية
يمكن للعميل الحصول على قرض حسن بضمان الشهادة .
يحق للعميل حفظ الشهادات في خزائن البنك بالنسبة للعملاء من أصحاب الحسابات الجارية أو الاستثمارية دون تقاضي أجور ايداع .
يصرف العائد بنفس العملة المشترك بها في الشهادة من الفرع المنفذ "البائع للشهادة" أو الفرع الإسلامي المصدر لها .
بنك مصر
فروع المعاملات الإسلامية
تعمل على إرساء قواعد الاقتصاد الإسلامي في مصر



يصدر فى ١٥ شوال ١٤١٠ هـ

رقم الإيداع ٣٩٠٧ / ١٩٩٠

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية



الثمن ٣٠٠ قرش